ربع قرن في القيود

الجزء الأول

المأساة



صبحي الجبار

ناشر
دار النهضة العربية
٣٢ عبد الخالق ثروت - القاهرة

إلى
الأخت الرفيقة الفاضلة ...
مع أطيب التمنيات
وخالص التقدير و ...
صبحي الجبار
١٩٧٢

ربع قرن في القيود

الجزء الأول

المأساة

بقلم

صبحي الجبار

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة

دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧

إهداء

الى كل يائس من رحمة الله
الى كل من ضاقت به دنياه
الى كل حى على الأرض بلا حياة
الى كل من بلغ به الكرب مداه
اليه ... أهدى هذه القصة
قصة حياتى .
لعلها تقنعه بأن الحياة حلوة
... رغم كل شىء .

المؤلف

مقدمة

ترددت كثيراً قبل أن أقدم على تسجيل قصة حياتى ، فالمألوف أن من يتعرض لهذه المحاولة ، غالباً ما يكون قد قطع من العمر سنوات طويلة مليئة بتجارب الحياة ، والخبرات العريضة ، والأعمال البطولية ، وحكمة الشيخوخة . أما أنا فلم أقطع من العمر سوى أربعين سنة . ولم يصور لى الغرور أنى حققت نجاحاً خارقاً أو أتيت بما لم يستطعه الأوائل .. ولست أدّعى أن لى ماضياً عريقاً يستحق أن يخلد فى سجل التاريخ .

ومع هذا ، ففى حياتى تجربة فريدة أعتقد أنها جديرة بالتسجيل . فقد قضيت من سنوات عمرى القليلة ، أكثر من ربع قرن داخل سجن رهيب ، مقيد الحركة ، لا أشغل من هذا العالم العريض سوى جزء من فراشى لا يتعدى مساحة ظلى . وهو نفس القدر الذى يحتله جسد ميت فى قبره .

ربع قرن قضيته فى وضع أفقى ، وقد التصق ظهرى بالسرير ، وتطلع بصرى إلى السقف . لا تنبسط لى ساق ، ولا تنثنى فقرات ، ولا يلمس جنبي الفراش . لا يفرق بين ليلى ونهارى غير حركة الجفون .

ولم يكتف القدر بأن جعلنى أشبه بتمثال متحجر ، بل راح ينكل بى فى قسوة ، ولم أكن بلغت بعد الخامسة عشرة من عمرى . ومن ثم حرمنى من الصحة ، بعد أن كنت أتدفق قوة وحيوية ، ومن العلم برغم شغفى به ، ومن العمل برغم طموحى ، ومن المال برغم احتياجى المضاعف إليه لتغطية مصاريف علاجى وخدمتى . ومن العاطفة برغم مشاعرى الجياشة ، ومن الجنس برغم صراخه فى أعماقى ، ومن الزوجة والأبناء برغم تقديسى للحياة العائلية ، حتى وجدت نفسى حبيساً فى قوقعة من اليأس والشقاء . وكنت أنظر حولى فلا أجد شعاعاً واحداً من الأمل أشق – على هديه – طريقى فى الحياة .

لم أستسلم لليأس . وبدأت من نقطة الصفر . فتناسيت قيودى . وخضت صراعاً مريراً مع القدر ، أغلبه مرّة ، ويعرقلنى مرّات . واستفدت من مواهبى الطبيعية فنميتها بالدراسة والمثابرة والكفاح المتفائل العنيد . وبسن قلمى استطعت أن أثقب جدار سجنى وأخرج منه إلى عالم الأحياء .

فعملت رساماً ومؤلفاً قصصياً ، ثم اقتحمت ميدان الصحافة فعملت سكرتيراً لتحرير إحدى المجلات ، ثم أصدرت مجلة أدبية ، كنت أقوم بإدارتها وتحريرها بمجهودى الفردى . ثم تفرغت للأدب وجمعت بين القصة والترجمة والتمثيلية الإذاعية والتليفزيونية ، وصدرت لى تسعة كتب بين مؤلف ومترجم .

وتوجت الدولة جهودى مرتين ، أولاهما عندما أوفدتنى بقرار جمهورى إلى لندن للعلاج على نفقة الدولة ، وثانيتهما عندما وافقت وزارة الثقافة على تفرغى عامين كاملين أكتب فيهما قصة حياتى بمرتب شهرى قدره ستين جنيها .

المهم أنى — بفضل الله — استطعت أن أجعل من حطام إنسان ، رجلا ناجحاً ، يعيش فى رغد من العيش بمجهوده وكفاحه . وخلقت من اليأس إنساناً متفائلا مرحاً ، يسعد بحياته إلى أبعد الحدود . وينهل من متاع الدنيا مايعوض حرمان السنين الغابرة . ويرفع جفنيه إلى السماء ممتناً شاكراً على ما وهبته من سعادة لا يتمتع بها كثيرون من ذوى الأجسام المنطلقة، والنفوس الحبيسة فى سجن اليأس والقنوط. هؤلاء الذين يبالغون فى القليل الذى حرموه ، وينكرون الكثير الذى يتمتعون به .

هذه هى حياتى المتواضعة فى عدد سنواتها وفى بساطة

أحداثها الخالية من العنف والمغامرة والبطولات ، لكنها غنية بالأحاسيس الجياشة من ألم ويأس ، وأمل وبأس ، وإرادة وصبر ، وفشل وانتصار ، وحنان وحقد ، وعزم وتصميم ، وإيمان مطلق بعدالة السماء ، وتفسير متفائل لنكبات الدهر . ودراسة متأملة لفن الحياة وفلسفة السعادة .

كل هذه المشاعر قد تعتمل فى نفوس الكثيرين . لكن القيود الجسدية والنفسية تصبغها بطابع فريد ، فهى تمر بعقبات وتصطدم بمعوقات خفية ، لا يحسها الإنسان المنطلق . وتوجهها البواعث النفسية المعقدة والشعور بالنقص والإحساس بالقلق ، مما يدفع بصاحبها إلى الاستماتة فى التعويض ، وتهوى به أحياناً إلى الانطواء واليأس .

كذلك ماحققته من نجاح نسبى فى حياتى العملية لا يعد شيئاً مرموقاً بالنسبة لشخص عادى . لكنه فى إطار من القيود يتخذ أبعاداً جديدة ، وصوراً غير مألوفة لا يحس بها إلا من يكابدها ، ويعيش أحداثها . وقد تتشكل هذه الأحداث فى قوالب قاسية كئيبة ، لكنى أحياناً أتناولها من زاوية مرحة ، وأضحك من نفسى قبل أن يضحك منى الآخرون .

وفى حياتى أوضاع مقلوبة بالنسبة للإنسان العادى ، لكنها بحكم ظروفى أصبحت تصرفات عادية . . .

فالإنسان العادى مثلا ، إذا أراد أن ينام ، فهو يريح

رأسه على الوسادة ، أما أنا فعندما أنام ، فإنى أريح رأسى من الوسادة . . . المضغوطة عليها طول النهار . والطريف أن رأسى تظل معلقة فى الهواء ، ومرتفعة عن السرير ، تاركة مكان الوسادة خالياً . لأن فقرات ظهرى متيبسة . والأعجب أن هذا الوضع ، وإن لم يكن مريحاً تماماً ، فهو محتمل .

وكل إنسان عندما يكون فى حجرته ، وخاصة إذا لجأ إلى السرير ، فإنه يرتدى جلباباً أو منامة « بيجاما » . أما أنا — الذى ألازم الفراش ليل نهار ، فلم ألبس مثل هذه الثياب المنزلية منذ سنوات عديدة . فى الصيف أرتدى قميصاً عادياً . وفى الشتاء أرتدى « بلوفر » من الصوف وكوفية حريرية . وذلك لأنى معرض لزيارات دائمة من أناس غرباء ، ولا أحب أن أقابلهم بملابس النوم ، خاصة الزيارات التى تتصل بأعمالى . كما أنه ليس فى استطاعتى أن أغير ثيابى أثناء النهار ، فإن هذا يكبدنى مشقة وألماً ، وهناك سبب آخر لنبذى الملابس المنزلية ، هو أنها توحى بالنوم والكسل والمرض ، بعكس ثياب الخروج التى تمنحنى شعوراً بالانتعاش وبأنى لست مستسلماً للفراش والمرض . خاصة وأنا أحرص دائماً على تصفيف شعرى وحلاقة ذقنى والعناية بمظهرى ، ليس من باب التجمل ، ولكن حرصاً على الاحتفاظ بحيويتى ونشاطى ، وأطبق هذا المبدأ على أثاث غرفتى ، حيث أحيط نفسى بجو العمل ، فهى

اقرب إلى حجرة مكتب استعضت فيها عن المكتب بسرير .

إن الحديث عن الذات شائك تعترضه المزالق فإن تغنيت بنعم المولى وسبحت بحمده، فقد أنزلق إلى التباهى والغرور ، وإذا تغاضيت عن مواقف النجاح فى حياتى ، فإنى أكون قد جافيت الواقع والأمانة التى يتحتم أن يلتزمها كل من يتصدى للترجمة الذاتية . وإذا ذكرت عيوبى وكبواتى فقط من باب التواضع ، فإنى أكون بذلك قد ظلمت نفسى، وخرجت بالكتاب عن هدفه وهو استخلاص العبرة من حياة إنسان ، بكل ماله وماعليه .

كذلك الصراحة المطلقة غير مستحبة لاعتبارات كثيرة . منها ماتفرضه تقاليدنا الشرقية ، ومنها مايمس الأطراف الأخرى المشتركة معى فى أحداث معينة . وإن جاز لى أن أكشف عن أسرار نفسى ، فليس من حقى بالطبع أن أبوح بأسرار الآخرين . وأمام هذه الاعتبارات وغيرها ، فسوف اضطر — أحياناً — إلى التلميح دون التصريح . وقد أحذف بعض الحقائق ، لكنى لن أذكر إلا الحقائق . وقد اكتفى بتسجيل الأحداث دون إشارة إلى أسماء أصحابها ، ولعلى بذلك لا أكون معتدياً على حقك يا أخى القارىء فالعبرة بمضمون الحادثة مهما اختلفت الأسماء .

لا أنكر أنى أشعر برهبة أمام هذه التجربة الجديدة

على قلمي . فإني لم أعتد الكتابة عن نفسي ، ولم أحتفظ يوما بمذكرات شخصية ، فإني كتوم بطبعي ، ولم أكن أحب أن تقع مذكراتي في يد إنسان — أياً كان — فيكشف عن مشاعري وأسراري وآمالي وآلامي ، الساذج منها والجاد . ولا أدري كيف اقتنعت أخيراً تحت إلحاح أصدقائي بأن أكتب قصة حياتي في صراحة وتفصيل . وكنت ألمس هذه الرغبة في أسئلة أصدقائي الجدد — خاصة الجنس اللطيف — حين يكررون نفس الأسئلة مترددين بين الجرأة والحياء ، يدفعهم حب الاستطلاع ، وتمنعهم الخشية من إيلامي بأسئلة محرجة . لكني كنت دائماً أفتح لهم قلبي وأجيبهم ببساطة وإفاضة ، بل وأشجعهم على إشباع فضولهم . ولم أكن أعتبر هذا تطفلا منهم على حياتي الخاصة ما دامت نياتهم سليمة .

وقد اجتزت بنفسي هذا الموقف في مناسبات كثيرة ، حينما كنت ألتقي بصديق جديد ، في حياته شيء غير مألوف بالنسبة لي على الأقل . كأن يكون من بلد أجنبي ، أو من بيئة أعلى أو أقل من بيئتي ، أو كان يمارس مهنة لم ألتق بأحد أفرادها من قبل . ولعل حاستي الفنية كأديب يتعرض بقلمه لحياة الناس فيشرحها ويحللها ويعلق عليها ، لعل هذه الحاسة هي التي تدفعني إلى التغلغل في أعماق النفوس البشرية ودراسة مشاعرهم وتصرفاتهم في بيئاتهم المختلفة . وأذكر بهذه المناسبة

صديقة صغيرة لا تتعدى العشرين من عمرها ، زارتنى منذ سنوات قليلة لتعرض علىّ محاولاتها الأدبية فى الكتابة ، فرحبت بها فى مزيد من الحماس لأنها كانت ذكية ولمّاحة ومهذبة ومتفوقة فى دراستها الجامعية ، وفوق هذا فقد كانت ضريرة ! وكانت صريحة ، فلم تخف رغبتها فى التعرف على جوانب حياتى الخاصة : كيف أكتب ؟ أين تعلمت ؟ كيف أعيش ؟ لماذا لم أتزوج ؟ إلى آخر هذه الأسئلة التى اعتدت سماعها ، واعتدت أن أجيب عليها . وعلى ما تخفيه وراءها من علامات خبيثة أتطوع بتفسيرها بحكم العادة .

وشجعتنى صراحتها وروحها الصافية المرحة أن أغوص فى أعماقها ، وأسألها بدورى عن حياتها الخاصة فى عالمها المظلم ، سألتها كيف تتصور شكل الإنسان ؟ وكيف تميز الجميل من الدميم ، وما مفهوم الجمال فى تفكيرها ، وما إحساسها بالألوان والطبيعة والوقت . وكيف تأكل وتقرأ وتكتب . فكانت تجيبنى فى غير حرج أو تردد ، حتى أنها أخرجت من حقيبتها أداة تشبه المسطرة فيها ثقوب معينة ، وثبتت فيها ورقة سميكة ، ثم راحت تكتب عليها بطريقة « بريل » بقلم له طرف صلب رفيع . وفى زياراتها التالية لم تتحرج من أن تحكى لى — كأخ ترتاح لرأيه — عن حياتها

العاطفية بما فيها من مفارقات ومشاعر خاصة لا شك تختلف عن الفتاة العادية .

ووجدتنى أفكر ، إذا كنت قد خرجت بشيء جديد من حياة هذه الأخت المكافحة وسط دياجير الظلام، فهل أستطيع أن أقدم للقارىء شيئاً جديداً عن حياتى الخاصة من خلال القيود ؟

عندئذ تذكرت جملة ختم بها أحد النقاد[١] مقالا له ينقد به أحد كتبي ، فقال : « ولا شك أن حياته وكفاحه مع المرض أعظم قصة وأفضل مثل يمكن أن يقدمه لأبناء جيلنا ولأجيال مقبلة » .

وتذكرت كلمات جاءت فى مقال كتبه عنى الصحفى المعروف أنيس منصور[٢] ، قال فيه :

« . . إنه مثال عال . . يجب أن يذكره كل من له يدان ولا يعمل . . وله ساقان ولا يتحرك » .

ترى ، هل فى حياتى شيء ينفع الآخرين ؟

أرجو هذا .

رحت أسترجع فى ذهنى ، التراجم الذاتية التى قرأتها

---

(١) من مقال للاديب يوسف الشارونى بمجلة « المجلة » العدد ٨٢ صفحة ١٠٠

(٢) جريدة الاخبار الصادرة فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٨ .

من قبل لكبار الفنانين والأدباء والصحفيين والأطباء ، وأخرجت كتبهم من مكتبتي وأعدت قراءتها واستكملت من المكتبات ما ينقصني منها . فخرجت في النهـــاية بحصيلة لا بأس بها .

أعدت قراءة « الأيام » بجزأيه للدكتور طه حسين ، وقرأت « سجن العمر » و « زهرة العمر » للأستاذ توفيق الحكيم ، و « حياتي » الأستاذ أحمد أمين ، و « أنا » الأستاذ عباس محمود العقاد . و « تربية سلامه موسى » . و « قصة نفس » للدكتور زكي نجيب محمود ، و « خلّيها على الله » الأستاذ يحيي حقي ، وبعض قطاعات من حياة زميلي الأستاذ حسين القباني في كتابيه « ليالي القصر » و « خمسين يوم في لندن » ومقدمة كتاب « لِمَ قدّر عليّ هذا ؟ » للكاتب الأمريكي ايرلشنك مايرز ، وهي في حوالي أربعين صفحة ، لخص فيها الزميل القباني بعضاً من جوانب حياته بإيجاز . وقد اشتركت معه في هذا الكتاب بمقدمة أخرى عن لمحات من حياتي ، في مثل هذا الحجم .

ومن الترجمات الذاتية الأطباء ، قرأت « حياة طبيب » للدكتور نجيب محفوظ ، و « قصة حياتي » للدكتور مصطفى الديواني ، و « مذكرات طبيبة » للدكتورة نوال السعداوي .

ومن الأجانب بدأت بقراءة أشهر مذكرات في التاريخ

فى كتاب اعترافات جان جاك روسو ، ومذكرات الفنان العالمى شارلى شابلن والمفكر الكبير برتراند راسل، ومعجزة الإرادة الإنسانية هيلين كيلر فى كتابيها « معلمتى آن سوليفان» و « قصة حياتى » . وأحدث قراءة كتابين لمكسيم جوركى « طفولتى » و «شبابى» . و«شجرة تنمو فى بروكلين» للكاتبة الأمريكية « بيتى سميث » . وتحكى فيه قصة حياتها بطريقة غير مباشرة . وكتاب « أيها الموت ترفق » وهو نوع من السيرة الذاتية للكاتب جون جنتر فى مرحلة معينة .

وقرأت بعض مذكرات الصحفيين ، مثل مذكرات « روز اليوسف » وبعض مذكرات السياسيين والعسكريين والرحالة من الصحفيين ، لكنها كانت تؤرخ للحوادث ، وتصف بلاد العالم وشعوب الأرض، أكثر مما تحلل شخصيات أصحابها وانفعالاتهم وحياتهم الشخصية ، خاصة إذا كانت هذه الحياة غير مألوفة مثل حياة الدكتور طه حسين ، التى حللها فى « الأيام » بقلم ساحر ، وروح شفافة . وإحساس صادق . وكم بهرنى بوصفه لأحاسيس الطفل الضرير فى عالمه المظلم البائس ، وماكان يصادفه من مشاكل خاصة لا يدركها أو يتصورها إلا من يعانيها ، وحتى القلة الذين مروا بمثل هذه التجربة القاسية لم يستطيعوا أن يعبروا عنها بمثل قلم الدكتور طه حسين فى صدق وصراحة وبساطة لا يسع

القارىء أمامها إلا أن ينحنى احتراماً لهذه الشخصية الجبارة.

أما جان جاك روسو ، فأروع ماهزنى فى اعترافاته المطولة التى تبلغ ١١٠٥ صفحة ، فهى صراحته المطلقة ، التى لاتضاهيها أية ترجمة ذاتية فى التاريخ ، وهو يقول فى مقدمة كتابه .

« لقد رويت فى كتابى هذا الطيب والخبيث على السواء، وقد صورت نفسى على حقيقتها ، فى ضعفها وزرايتها ، وفى صلاحها وحصافتها وسموها ، تبعا للحال التى كنت عليها . وبهذا أكون قد كشفت عن أعمق أغوار نفسى » .

حقاً لم يجامل روسو نفسه، ولم يخف عيوبه أوحسناته . واعترف أنه كان بوهيمياً يقدم على المغامرة وليس معه مايكفى طعام يومه . وقد أفاض فى وصف مغامراته وفضح كل عشيقاته .

ولا يسع القارىء لاعترافات جان جاك روسو إلا أن يصدق كل كلمة جاءت فيها . وهذا سر نجاح اعترافاته . ولكنى بعد أن وصلت إلى نهاية كتابه مبهور الأنفاس ، فوجئت بأنه أوصى بألا تنشر هذه الإعترافات إلا بعد وفاته ، وهذا ماساعده على الصراحة المطلقة ، لأنه ما كان يجرؤ على مواجهة الجماهير بعد أن عرى نفسه أمامهم بهذه الصورة البشعة ، ومهما كانت شخصية جان جاك روسو ، فلست هنا بصدد

تقييم أعماله أو أخلاقه ، لكنه قدم لنا قطعة رائعة من أدب الترجمة الذاتية .

وأعترف بأنى لن أصل فى كتابى هذا إلى مستوى شجاعة روسو ، لكنى سأحاول أن أكون صريحاً بقدر ماتسمح به التقاليد فى مجتمعنا الشرقى . وسأحاول أيضا أن أتحرر من المجاملة لنفسى ولأقرب الناس إلى نفسى بحكم الوراثة أو بحكم الصلات الروحية والإنسانية والعاطفية ، أو من ربطتنى بهم صلات العمل المادية ، أو التلمذة ، أو الزمالة الأدبية . لكنى أعلم مقدماً أنى سأتهم بالعقوق أحياناً . أو السلاطة ، أو الغرور . ولكن فى سبيل الحقيقة المطلقة سأتحمل هذه التهم الظالمة مادام ضميرى راضياً .

الواقع أن كلا من الكتب التى ذكرتها له طابعه ومميزاته . ولست هنا فى مجال التمييز والمقارنة بينها ، لكن المهم أنى خرجت منها متأثراً بمبدأين رئيسيين ، هما — فى رأيى — عمودا الارتكاز لأية ترجمة ذاتية .

المبدأ الأول : هو التركيز على شخصية الكاتب ، وتحليل مشاعرها ، ودوافعها وتجاربها وخبراتها وانطباعاتها ، والأحداث الهامة التى صادفت الكاتب وأثرت فيه ، ولا بأس من أن يتناول شخصيات فرعية لصيقة به ، وكان لها أثر فعال فى حياته ، وقد يستطرد الكاتب فى تفاصيل فرعية ، مسلية

أو طريفة ، ولكن عليه أن يعود بسرعة إلى الخط الرئيسى وهو . . . ذاته ، التى هى محور الكتاب .

والمبدأ الثانى : هو الصراحة المطلقة، فلا يخجل الكاتب من ذكر عيوبه وعقده النفسية ، وأخطائه ، وفشله ، ولا يجد حرجاً من سرد حسناته ونجاحه ومواهبه . وأن يحاول صاحب الترجمة الذاتية أن يقف خارج نفسه ، وينظر إلى أعماقه نظرة محايدة ، ويحللها بعقلية خبير ، بصفته أعرف الناس بذاته . ثم يسجلها بقلم جرىء ، لا يحابى ولا يجامل .

ورغم أنى اخترت لهذا الكتاب عنوان « ربع قرن فى القيود » وأعنى بها الفترة الحرجة من حياتى ، التى خضت فيها صراعاً غير مألوف مع القيود الجسدية والنفسية . فإن هناك عوامل أخرى فى طفولتى وصباى وشبابى المبكر ، كان لها أساس واضح فى إعداد شخصيتى للوضع الجديد الذى تحول عنده مجرى حياتى . كذلك هناك شخصيات عاشت فى حياتى قبل القيود ، كأبى وأمى وأساتذتى الأوائل ممن تركوا فى فى شخصيتى بصمات واضحة ، سواء كان تأثيرهم إيجابياً أو سلبياً . كأن أعجب ببعض جوانب من تصرفاتهم، فأعتنقها، أو أنفر منها فأتجنبها . كذلك رأيت ألا أغفل عنصر البيئة المنزلية والمدرسية والثقافية قبل القيود .

لهذا رأيت أن أمهد لفترة القيود ، بصورة واضحة

عن طفولتى وصباى، أبين فيها هذه العوامل والمؤثرات الفعالة، التى كانت بمثابة الجذور العميقة فى شجرة حياتى . وهى بلاشك تحمل مسئولية خطيرة فى كيان هذه الشجرة، بما فيها من أغصان جافة أو معوجة ، أو ثمار ناضجة وثمار معطوبة ، وأخرى لم تنضج بعد .

أخى القارىء :

لكل كاتب أسلوب خاص فى سرد سيرته الشخصية ، فالدكتور طه حسين صاغها فى قالب قصة، وكان يرمز فيها لنفسه بكلمة الفتى أو الصبى أو الشيخ . ولعله لجأ إلى هذه الطريقة حتى لا يتحرج وهو العملاق الكبير ، من اللهجة المستضعفة وهو يتكلم عن بؤسه وعجزه فى بداية حياته . ولعله لجأ إلى هـــذا الأسلوب حتى يتفادى كلمة « أنا » وما فيها من أنانية وغرور .

أما الأستاذ أحمد أمين فقد صاغ حياته فى قالب مذكرات يكتبها لنفسه ، بل وضمنها بعض مذكرات قديمة كان قد سجلها فى حينها يوما بيوم . ثم أراد أن يحلل شخصيته وطباعه فى آخر الكتاب ، فتحرج أيضا من كلمة « أنا » فنقل إلى الكتاب مقالاً قديماً كان قد كتبه فى وصف صديق، واعترف بأنه استملى وصف هذا الصديق من نفسه ، وأنه كان يعنى به شخصه .

أما الأستاذ توفيق الحكيم ، فقد اتبع أسلوبين مختلفين فى كتابيه « سجن العمر » و « زهرة العمر » . أما الأول ، وهو الذى يحكى فيه عن طفولته بل ما قبل طفولته، أى عن جدته وأمه وأبيه . فقد صاغه بالأسلوب الروائى ، حسب التسلسل الزمنى، إلى أن وقف به عندما نال ليسانس الحقوق وسافر إلى فرنسا ، ثم عاد إلى وطنه .

أما « زهرة العمر » فهو عبارة عن مجموعة كبيرة من الرسائل. وجّهها الأستاذ توفيق الحكيم إلى صديقه الفرنسى « مسيو أندريه » وكانت باللغة الفرنسية بالطبع ، ثم ترجمها الحكيم إلى العربية كما هى دون تحوير أو تبديل . وهذه الرسائل يتحدث فيها عن فترة من شبابه عندما كان فى باريس وبعد أن التحق بسلك القضاء فى مصر ، وقبل أن يتفرغ الأدب .

ومن المصريين الذين أعجبت بصراحتهم فى تحليل مشاعرهم، الدكتورة نوال السعداوى، وقد اتخذت أيضا القالب الروائى فى سرد قصة حياتها ، لكن شرقيتها وأنوثتها غلبتاها فى نهاية الكتاب ، فغيرت — متعمدة — بعض الحقائق المعروفة فى حياتها ، ولعلها أرادت بذلك أن تتنصل من الاعتراف بأنها كانت تتحدث عن نفسها .

أما الأستاذ عباس العقاد. فقد جاءت الـ « أنا » على غلاف

كتابه . والواقع أن عنوان الكتاب ليس من اختياره ، فقد أصدره الأستاذ طاهر الطناحي بعد وفاته ، وجمع فيه أربعين مقالا للعقاد ، نشرت له إبان حياته ، وتحدث فيها عن طباعه وبلدته ووالديه وفلسفاته فى الدين والحب والحياة الخ . وهى بصيغة المتكلم، وليست خاضعة للتسلسل التاريخى. وبرغم أنها صيغت فى أسلوب صحفى سهل، فإنها تتسم بالعمق والتحليل الدقيق الرائع لهذه النفس الخيرة الرقيقة رغم قناع القسوة المزيف الذى يراه الناس من خلفه .

هذه نماذج من الأساليب المختلفة فى الصياغة ، وقفت أمامها مفكراً ، أيها أقرب للوصول إلى قلب القارىء ؟ ولم أتردد كثيراً ، فقد اخترت — بطريقة هندسية — أقصر الطرق بين نقطتين ، وهو الخط المستقيم .وهكذا قررت أن أخاطبك يا أخى القارىء بأسلوب مباشر موجه إليك شخصياً . سوف أهمس فى أذنك بمكنون ذاتى وأطلعك على كوامن نفسى ، وأحكى لك قصة حياتى حسب التسلسل التاريخى .وقد أستشهد بك فى موقف ما . وقد أترك لك الحكم فى قضية لم أصل فيها إلى حل حاسم . وقد أستأذنك فى إطراء نفسى فى نقطة معينة ، وأحاول أن أقنعك بحقى فى هذا مادمت قد صارحتك بعيوبى . ولكن أرجو أن تغفر لى كلمة « أنا » إذا أفلتت كثيراً من قلمى، بحكم اتباعى لصيغة المتكلم ، ومع هذا فإنى

أعتقد — بروحى المتفائلة — أنك يا أخى القارىء لن تضيق بكلمة « أنا » ، فالمفروض — وبنفس التفاؤل — أنك ما كبدت نفسك عناء قراءة هذا الكتاب إلا من أجلى . . . « أنا » وحتى تعرف من . . أنا .

اللهم قنى شر نفسى ، واحمنى من الزلل والغرور ، ووفقنى فى تسجيل رحلة حياتى فى حدود ما رسمته لها من مبادىء ، ولا تجعل قلمى يحيد عنها . . كثيراً .

صبحى الجيار

الطبعة الأولى ١٩٦٨

* * *

مولـــدى

عندما خرجت إلى هذا العالم ، كانت أسرتى تنتظر وصولى فى لهفة وشوق ، فقد كنت أول صبى فى الجيل الرابع من أسرة الجيار . ويبدو أن أسرتى كانت تؤمن بتحديد النسل فى عصر يمارس سياسة الأرانب ، حتى أنها لم تنجب خلال ثلاثة أجيال غير أربعة ذكور فقط .

عندما بدأت أبحث فى تاريخ الأسرة عساى أن أكتشف بطلاً عظيماً أو عالماً قديراً فى أسلافى ، لم أستطع أن أصل بمعلوماتى إلا إلى الجد الرابع ، حيث انقطع منى الخيط بعده . وذلك لأن جدى الرابع هذا ولد يتيماً ، فقد رحل أبوه عن الدنيا قبل أن يخرج هو إليها، فنشأ وحيداً يتيماً فقيراً . وتوفرت أمه على تربيته، فشب عصامياً طموحاً ، حتى أصبح من أكبر تجار حى مصر القديمة. وكان هذا الحى نشطاً بالتجارة فى ذلك العصر ، لأنه يشمل الفسطاط القديمة ، وساحل أثر النبى ، حيث المراكب الشراعية تفرغ حمولتها الآتية من الصعيد . وفى هذا الحى عاشت أسرتى على

مرّ الأجيال . وفيه ولدت ، وما زلت أعيش حتى الآن، حتى بعد أن تخلف عن ركب الحضارة ، وأصبح من الأحياء الشعبية البسيطة. ولست أدرى، هل هذا وفاء منى للمكان الذى نشأت فيه ، أم أن الظروف المعيقة لحركتى ونشاطى هى التى أبقتنى فى دائرة صغيرة ، حتى بعد أن رحل عنها أخى وأبناء عمى بحكم وظائفهم .

ولم ينجب جدى الرابع سوى أنثيين وذكر واحد ، هو جدى الثالث الذى لم يعن أبوه بتعليمه كما يجب ، وسرعان ماجذبه بريق التجارة والمكسب ، فانضم إلى أبيه فى تجارته ، وكان وقتها ينتج الجبس والجير فى « قمائن » بحى الجيارة التابع لقسم مصر القديمة . والقمائن هذه موجودة إلى الآن وهى عبارة عن أفران ضخمة مستديرة يحرق فيها الحجر الجيرى فينتج عنه الجبس والجير . وكانت هذه هى الطريقة البدائية المتبعة قبل إنشاء المصانع الحديثة . ولما كان جدى الأكبر يتاجر فى الجير ، فقد أطلق عليه اسم « الجيار » ، وصارت هذه الصفة لقباً لأسرتنا ، حتى بعد أن تخلى الجيل الرابع عن الجير وكل مايمت لمواد البناء بصلة .

ولم يتبع جدى الثالث سياسة تحديد النسل ، فأنجب خمس بنات وذكرين فقط، هما عمى وأبى . وهكذا اقتصرت الأجيال الثلاثة على أربعة رجال . وكانوا جميعا يقيمون فى بيت الأسرة مع نساء العائلة بالطبع . . الأرامل منهن والعوانس ، والمتمردات على بيت الزوجية حتى يعدن إلى أزواجهن .

وسرعان ما انفصل عمى عن بيت الأسرة ، فقد سافر إلى أمريكا طلباً للعلم ، حيث درس الصيدلة . وعاد من أمريكا ليتقلب فى المناصب الحكومية متنقلا من بلد إلى آخر . أما والدى فقد اختصر طريق العلم ، وسار على نهج أبيه وجده ، واندمج معهما فى تجارة الجير والجبس ، فأصبح بذلك امتداداً طبيعياً لشجرة العائلة ، وبالتالى تزوج فى سن مبكرة وأنجب اثنتين ، واحدة بعد الأخرى . وازداد القلق واللهفة فى بيت الأسرة . . وتبلورت آمالهم فى انجاب ولد يفتتح الجيل الرابع من أسرة الجيار .

وفى ٢٧ فبراير سنة ١٩٢٧ خرجت إلى الدنيا لأحقق أمل الأسرة . فاستقبلونى بترحاب عظيم ، وتكتلت الجهود لرعايتى ، واتخذت الإجراءات المشددة لحمايتى من الأمراض والأخطار ، فكانت لا تتم رضاعتى إلا تحت الناموسية ، وكانت فى ذلك العصر على شكل خيمة كبيرة مكعبة الشكل . قاعدتها سطح السرير ذى الأعمدة العالية . وكان يسكن أحد الطوابق فى بيت الأسرة طالب طب مجتهد ، تطوع بإعطاء التعليمات الطبية الدقيقة ، الكفيلة بحماية الوليد المدلل . وقد أصبح هذا الطالب فيما بعد الدكتور سيد عفت أستاذ الأمراض الباطنية بكلية طب قصر العينى . ولأول مرة تسمع نساء الأسرة الأميات بنظام الرضاعة فى مواعيد ثابتة . وكثيراً ما كانت تحتدم المناوشات بينهن وبين والدتى التى

نالت قسطاً من التعليم الفرنسى ، وكانت تصر على اتباع تعليمات طالب الطب النجيب .

ورغم هذا الحرص الشديد ، فقد كانت طفولتى سلسلة طويلة من الأمراض المتعاقبة تحفظها أمى عن ظهر قلب ، وكثيراً ما تسردها أمامى فى بعض المواقف حين تحب أن تذكرنى بها فى مجال استعراض جهودها الجبارة فى سبيل تربيتى ، هذا فضلا عن التسعة الأشهر الخالدة التى تعير بها كل أم أبناءها عند أى بادرة تمرد أو عصيان .

أول مشكلة :

فى اللحظة التى خرجت فيها إلى الحياة واجهتنى أول مشكلة . ولو أنى لم أشعر بها حينذاك . فقد صرخت المولدة فى رعب عندما رأت المولود أزرق الوجه ، يكاد يختنق ، وألقت أمى بنظرة متلهفة إلى الوافد الجديد لتستطلع الخبر ، فوجدت المولدة تفك عن رقبتى شيئاً كالثعبان الرفيع . فصرخت مستنجدة بوالدى الذى كان يذرع البهو فى قلق ولهفة . فما لبث أن اقتحم الغرفة مندفعاً ، ليرى بنظرة سريعة أن ولى العهد يختنق قبل أن يتنسم هواء الدنيا ، وراح هو أيضاً يتعجل المولدة فى هلع كى تنقذ أمل العائلة من هذا الثعبان الطويل . . الذى اتضح أنه الحبل السرى وقد التف بطريقة ما حول رقبتى ، وكأنه نذير من السماء بأن هذا

الصبي سيواجه فى حياته سلسلة من المآزق والقيود . كان الحبل السرى أولى حلقاتها .

سرعان ما أنفك القيد عن رقبتى ، وانقشعت الزرقة الداكنة عن بشرتى ، وانطلقت الزغاريد فى بيت الأسرة ، ولم يخطر ببال أحدهم حينذاك أن هذا الوليد الصغير سيملأ مآقيهم يوماً بالدموع.

بعد مولدى بستة أشهر أنجب عمى ابنه الأول ، وبعده خرج أخى الوحيد «مكرم» إلى الوجود . ثم رد عليه عمى بابنه الثانى . ولكن أبى لم يشأ أن يستمر فى هذه اللعبة !.. ثم أحرز عمى هدفه الثالث وانتهت المباراة بثلاثة أولاد لصالح عمى واثنين لوالدى . وهكذا أصبحت أسرة الجيار ثمانية ، بعد أن توفى جدى الأكبر عن واحد وتسعين عاماً ، ثم توفى والدى سنة ١٩٥٨ عن واحد وستين سنة ، فأصبحت الأسرة تضم ستة رجال فقط يحملون لقب الجيار ، وعدت أحتل مركز ولى العهد ، أو الرجل الثانى بعد عمى من حيث السن. وفى نفس العام الذى توفى فيه أبى أسرع اثنان من أبناء عمى بتعويض العجز العددى ، فأنجبا ولدين ، وهكذا اختل الميزان بين فرعى الأسرة ولم يعد متكافئاً ، فعائلة عمى عددها ستة ، وفيها الجد والأبناء والحفيدان . أما الفرع الآخر فلا يضم غير فردين من جيل واحد ، هما أخى وأنا .

ولكننا زاهدين فى كسب المباراة ، فأخى يعمل كطبيب فى الريف حيث يجرى سباق الأرانب ، وحيث يرى عزرائيل

يحصدهم بمنجل الفقر والجهل ، فاشمأزت نفسه من جثث الأطفال التي تتساقط أمامه عندما يأخذونهم إليه في الرمق الأخير .

وأخي متزوج منذ أكثر من تسع سنوات ، وما زال إلى الآن من أنصار تحديد النسل ، أو منعه ، وإذا لم يعدل عن قراره هذا يوما ما فسوف يذبل أحد فرعي الأسرة الرئيسيين ، وهو فرع أبي ، لأني أيضا مصمم على ألا يكون لي أبناء إلى الأبد ! ليس فقط لأني من أشد المتحمسين لتحديد النسل ، بل لأن هناك شبه احتمال أن يرث أحد أبنائي شيئاً من مرضي . لأسباب سأتناولها فيما بعد .

ولست أشعر بأدنى مرارة لانقراض عائلتي على هذا النحو ، فإني لست ممن يحرصون على تخليد ذكراهم بعد موتهم عن طريق الأبناء والأحفاد . فمن يضمن لي ألا يخرج من بينهم من يسيء إلى سمعة الأسرة ، ويقلق عظامي في مرقدها الأخير ؟ وفي رأيي أن عمل المرء هو الذي يمجده في دنياه ويخلده في آخرته . أما الأبناء فضربة حظ قد تصيب وقد تخيب . وأنا لست ممن يعتمدون على الحظ لأنه لم يكن يوما حليفي . إنما علمتني الحياة أن أشق وأكافح ، وأبذل جهداً مضاعفاً حتى أصعد درجة في سلم النجاح . فإنه لزاماً عليّ أن أحارب دائماً في جبهتين ، كفاح الحياة الذي يبذله أي إنسان عادي ، ثم كفاح ضد القيود حتى أعوض العجز الجسدي .

أبى :

قبل أن أستعرض أحداث طفولتى التى كان لها بلا شك أكبر الأثر فى رسم شخصيتى ومستقبلى ، أرى أن أتناول بالتحليل أهم شخصيتين فى حياتى ، واللذين يشكلان أبرز عناصر البيئةالتى نشأت فيها . . وأقصد بهما أبى وأمى . .

إن الحديث عن الوالدين أمر شائك حساس ، فإذا امتدحتهما اتهمنى الناس بالتفاخر ، وإذا قدحتهما وصمونى بالعقوق والجحود . لكنى هنا أرصد الحقائق مجردة.قد أخفى بعضها لاعتبارات ذكرتها من قبل ، لكنى لن أعبث بالصورة الحقيقية للبيئة التى نشأت فيها ، والجو الذى أحاط بى ، حتى أعطيك — يا أخى القارىء — رؤية متكاملة واضحة للظروف التى دفعتنى إلى الأمام ، أو عوقت طريق تقدمى ، سواء كان الدفع والإعاقة بطريق مباشر ، أو عن إيحاء أو تقليد ، أو عن إثارة لنفورى مما يدفعنى لتجنب مبعث النفور .

وبما أن الوالدين هما أكثر الناس التصاقاً بى طوال حياتى ، فقد كانا عاملين فعّالين فى تحديد شخصيتى ومستقبلى ، وإن كانا أحياناً يتفقان فى صفات معينة ، وأحياناً يتعارضان على طرفى نقيض . ولنبدأ بالوالد ، فقد انتهت حياته منذ سنوات قليلة ، ولن أجد كثيراً من الحرج فى تحليل شخصيته وتصرفاته بصراحة ووضوح .

أنجبنى أبى وعمره ثلاثين عاما.. ويوم بالضبط . ومن عجائب

الصدف ، ان جدى كان عمره ثلاثين عاماً أيضاً ... يوم أنجب والدى ! . ومع ذلك كانت صفاتنا وظروفنا وطباعنا . . وحتى حظوظنا مختلفة إلى حد بعيد ، مما يتنافى مع ما يدعيه الفلكيون من تشابه مواليد البرج الواحد . وأقصد بالفلكيين هؤلاء الذين يملأون الصحف بنبوءاتهم المختلفة حيث يحكمون على بضعة ملايين بظروف موحدة ، فيبكونهم جميعاً ، أو يزوجونهم جميعاً ، أو يبعثون إليهم بخطابات سارة فى وقت واحد ! .

أعود إلى والدى ، فأقول إنه كان عاطفياً ، متطرفاً فى عصبيته ، حتى يكاد الدم ينبثق من وجهه المحتقن أثناء ثورته ، وكان شديد الخجل ، مفرطاً فى الاعـــتزاز بكرامته لدرجة التفريط فى حقوقه ، وبالتالى كان ينعكس هذا التهاون على ميزانية الأسرة مما كان يثير النزاع بينه وبين والدتى أحياناً . ذلك عندما كان يخجل من مقابلة أصحاب شركات المقاولات حتى تسند إليه إحدى العمليات المعمارية كمقاول من الباطن . إلى أن اتخذ له شريكاً من رؤساء العمال كنا ننطق إسمه مسبوقاً بلقب «معلم» . ورغم أن هذا الشريك كان أمياً ، فقد قام بدور فعّال فى حياة أبى ، لأنه كان يغطى الخجل الشديد الذى كان يعانى منه والدى ، وكان يطرق أبواب العمل فى جرأة ودأب ، ويمهد الطريق أمام والدى الذى كان يتولى فيما بعد الاتفاقات والعقود والمحاسبة ، والمقايسات والمناقصات . وهنا كانت تظهر كفاءة والدى وذكاؤه الحاد.

وأمانته الكاملة فى تنفيذ المواصفات المنصوص عليها فى العقد . وهكذا شق طريقه بسمعته النظيفة التى قلما كانت تتوفر فى هذه الفئة التى أثرى منها الكثيرون بالغش الذى تيسره طبيعة العمل .

وأذكر أنى عندما كنت فى المرحلة الابتدائية أن والدى كان يقوم مع شريكه بتنفيذ أكثر من تسع أو عشر عمارات يدور عليها «بموتوسيكل» صغير ، وأحيانا كان يعود إلينا محملاً بأكياس كبيرة من القماش السميك مليئة بالنقود الفضية ، وسرعان ما يخفيها فى مكان أمين حتى مساء السبت من كل أسبوع ، حين يصرف منها أجور العمال .

وكنت أتأمل هذه الأكياس المكتظة بالمال فى كثير من الفخر والاعتزاز بأبى الذى كان يبدو لى كبطل من أساطير ألف ليلة ، وأسرع نحوه محاولا أن أحمل عنه الكيسين . فإذا بالكيس يجذبنى معه إلى الأرض بين ضحكات والدى الذى يحذرنى من التحدث عن هذه الأكياس الفضية أمام زملائى فى المدرسة . ثم يهتف بصوت تسمعه والدتى وأختى :

ــ هذه ليست فلوسنا يا بنى . . إنها أجور العمال ...

وفعلا تعود الأكياس فارغة يوم السبت بعد صرف أجور العمال . وأصدق قوله كما تصدقه والدتى وأختى ؛ فتهبط أطماعنا وطلباتنا التى أثارها منظر الأكياس المتخمة . وقد علمت فيما بعد سر ضياع النقود كلها على العمال . حتى لا يبقى لنا منها شىء . . ذلك أن والدى كان يصرف من رصيده فى البنك بما يوازى أجور العمال فقط !.

والعجيب أنى لا أدرى حتى الآن . . هل كان والدى حينذاك بخيلاً فعلاً ، أم أنه كان حريصاً إزاء إسراف والدتى ؟ المهم أنى كنت أشهد كثيراً من المناقشات الحامية حول هذا الموضوع . وكنت أنحاز فيها إلى جانب والدتى ، لأن والدى إذا أرخى قبضته كان الخير يعم علينا جميعاً . وكثيراً ما كانت أمى تصدّرنى دون أخوتى فى مثل هذه الطلبات المادية لحظوتى عنده . حيث أبدأ بطلب « بيجاما » أو قميص أو بدلة العيد ، أو ألحّ له عن الحذاء الذى بدأ نعله يتآكل . فإذا ما اقتنع بطلبى تتوالى بقية الطلبات مسبوقة بكلمة « إشمعنى » ، وتكبر المسألة ، ويطول كشف الحساب فيرضخ أحياناً للطلبات المعقولة ، وأحياناً تتبخر أحلامنا أمام إرادته الديكتاتورية .

وأذكر بهذه المناسبة أنى فى سن العاشرة تقريباً كنت مصاباً بمرض جلدى ، وأراد أبى أن يرسلنى إلى حمامات عين الصيرة . ولما كانت المواصلات إليها حينذاك صعبة ، فقد انتهز فرصة زيارة عائلة صديقه للمقابر المجاورة لعين الصيرة ، وأرسلنى معهم . وجلست بين الزوج وزوجته على الكرسى الخلفى بالسيارة ، فسمعت حديثاً يدور بينهما فى شبه احتداد حول مسائل مالية ، وأدركت أنها كاحدى المنازعات التى تجرى فى كل البيوت الزوجية . لكنى — عندما أنصت إلى الحديث — أدهشنى أن أجد مضمونه عكس ماظننت ، فقد كان الزوج يدس فى يدها بعض المال عنوة

بينما هى ترفض فى إصرار وتقول فى حماس :

— وماذا سأفعل بالفلوس .. ؟ كل شىء موجود والحمد لله ...

ذهلت لذلك المنطق ، وتمنيت أن يتنافس أبى وأمى على العطاء والإيثار بدلا من تجاذبهما بين الشح والإسراف . وتساءلت بعقلى الطفل حينذاك ، ترى من المسئول عن هذه السياسة الأنانية؟ وأجابتنى مصلحتى الشخصية بأن أبى هو الجانى . فإن بخله كان يعنى إختصار مطالبى ، بينما إسراف والدتى يعنى مزيداً من الخير . ولم أكن أتصور أن هذا العملاق حامل الأكياس المملوءة بالفضة يعجز عن ملاحقة شهوة والدتى فى الصرف والتبذير . أما الآن وأنا أتأمل هذه المشكلة بعقليتى المحايدة ، فلا أستطيع أن أجزم فيها برأى ، فهى كمشكلة البيضة والدجاجة . . أيهما وجد أولا ؟ كذلك مشكلة والدّى .. أيهما بدأ بالخطأ ؟ هل أمسك أبى يده حتى يحد من إسراف أمى ؟ أم أن أمى كانت تكثر من الإلحاح أمام اليد المغلولة ؟ . . .

المهم أنى خرجت من هذا التحدى بسياسة أطبقها اليوم فى بيتى ، وساعدتنى فى تطبيقها سكرتيرتى « نعمات » التى أترك لها مهمة إدارة ميزانية البيت . سياسة أساسها الثقة المتبادلة . فأنا أمنحها أكثر مما تطلب ليقينى أنها لن تصرف قرشاً فى غير موضعه . وهى لا تطلب المزيد لتأكدها من أنى أدفع أقصى ما فى وسعى . وإذ بجوار سيارة « عين الصيرة » منذ ثلاثين عاما يتردد من آن لآخر فى بيتى السعيد.

وانقلبت الأوضاع فأصبحت هى تعاتبنى على الاسراف وأنا الذى ألومها على التقتير .

الواقع أنى كنت الورقة الرابحة فى يد والدتى فى مثل هذه المسائل المالية ، أو حتى فى النزهات العادية أو فى الذهاب إلى السينما أو التصييف عند خالى فى الاسكندرية . كل هذا الترفيه لم يكن يقنع والدى الذى لم يدخل السينما إلا مرة واحدة طوال حياته ، وتحت ظروف اضطرارية . ولا أذكر أنه قصد يوماً أحد المصايف ، حتى الراديو — إذ أنه توفى قبل ظهور التليفزيون فى مصر — حتى الراديو كان يكرهه ، ولا يسمع منه غير نشرة الأخبار وأم كلثوم ، وبسببه كرهت أنا وأخوتى ووالدتى صوت أم كلثوم ، فقد كان يوم حفلتها الشهرية يفرض الأحكام العرفية فى البيت ، فيحرم علينا الكلام أو الحركة أثناء غنائها ، ثم يتربع على الكنبة ويسبل جفنيه فى انسجام شديد ، بينما يجثم الصمت والسكون الكئيب على البيت كله ، فتضيق به صدورنا الصغيرة . ويزيد من بغضنا لأم كلثوم أن والدى كان يكره تماماً إن يسمع أحداً سواها ممن نحبهم . وكنت شغوفاً جداً بصوت وموسيقى عبد الوهاب وفريد الأطرش والكحلاوى . وكثيراً ما حرمنى منهم لمجرد أن أصواتهم تعكر مزاجه .

ومسألة المزاج هذه كانت من أبرز عيوبه التى ضايقتنى حتى يوم مماته . ولم تنحصر فى الغناء والموسيقى فقط ، بل كان يحب

أن يفرض رأيه الخاص فى كل شيء ويتهمنا بالغباء والجهل وعدم التذوق إذا خالفناه فى رأيه . وعبثاً حاولت أن أقنعه بأن لكل جيل ميوله ورغباته الخاصة ، لكنه لم يكن يؤمن بهذه القاعدة البديهية .

لذلك كنا نضطر — إخوتى وأنا — أن نلجأ إلى الأسلحة السلبية فى الدفاع عن مطربينا المحبوبين ، فكرهنا أم كلثوم تلقائياً لأن والدى لم يكن يقبل تهكمنا على صوتها ولو لم نكن نؤمن حقيقة بمضمون التهكم .

وهكذا ظللت سنوات طويلة أتحسر — بعقلى — على كنز ثمين يغترف منه العرب جميعاً .. بلا مقابل ؛ وأنا لا أنفعل به وجدانياً ، وإن كان عقلى يدرك مدى قوة هذا الصوت وشفافيته ونقائه . وأتحسر كثيراً لأنى محروم من هذا النبع الصافى الذى كان كفيلا باسعادى ، أنا الذى أعشق الموسيقى والنغم والأصوات التى لا تتطاول إلى حنجرة أم كلثوم .

وقد بذلت جهوداً صادقة على مر السنين حتى أتخلص من هذه العقدة دون جدوى . حاولت أن أسمعها وسط مجموعة من السميعة . حتى أنفعل معهم ، وحاولت أن أسمعها وحدى فى سكون ، وحاولت أن أحفظ كلمات الأغنية حتى أتتبع معانيها ، وحاولت أن أسمعها والنور مطفأ حتى يساعدنى على التركيز . وتذكرت أن والدى أحياناً كان يشرب بعض الخمر ليلة أم كلثوم حتى يتم له الانسجام

« والصهللة » . فأقدمت على هذه المحاولة رغم كرهى الطبيعى للخمر ، فلم أجن إلا الصداع وحموضة فى المعدة من تأثير الخمر التى لم أعتد تناولها .

وأخيراً .. وبعد وفاة والدى بسنوات خمس ، حدثت المعجزة ، وانحلت العقدة ، وبدأت أهضم الصوت الساحر ، بل أستعذبه ، وذلك عندما شاءت الظروف أن يمتزج بشىء تهتز له أعماقى طرباً .. أى بموسيقى عبد الوهاب . ثم أصبحت أتذوقه حتى بغير موسيقى عبد الوهاب .

إننا أحياناً نحب شيئاً كنا نكرهه ، إذا ما اقترن بشىء نحبه .. شكراً للموسيقار عبد الوهاب الذى أعاد إلىّ الكنز ، وليسامح الله أبى الذى سلبه منى سنوات طويلة .

بصمات إيجابية :

يبدو أنى أطلت فى هذا الموضوع كثيراً ، ولكنى أردت بذلك أن أوضح تلك البصمات التى تركها والدى فى نفسيتى منذ كنت صغيراً . وإن كان هذا التأثير سلبياً ، فهناك بصمات إيجابية كثيرة ادين له بفضلها . . ومنها الإيمان بالعلم . وكان تعلق أبى بالعلم نتيجة لبصمة سلبية تركها جدى فى حياته ، عندما أهمل تعليمه رغم ثرائه ، فخرج أبى إلى الحياة وهو لا يحمل من المؤهلات الدراسية سوى لقب « ساقط ابتدائية » . ومن هنا اتجه إلى العمل الحر كمقاول معمارى . بينما أتم أخوه الوحيد تعليمه فى أمريكا . وعندما

سألت جدى فيما بعد ، لماذا أهمل تعليم والدى بينما اهتم بتعليم عمى ، قال فى بساطة : « عمك أراد أن يتعلم فصرفت عليه ، أما أبوك فكان يحب اللعب ، ورفض الذهاب إلى المدرسة بعد رسوبه فى الابتدائية ، فتركته على هواه » . هكذا قال جدى دون ندم أو تأنيب لضميره ، وكأنما كان مفروضاً على ابنه أن يرسم مصيره بنفسه وهو فى الرابعة عشرة من عمره .

أما الذى صحا ضميره وأنبه بشدة فهو أبى ، الذى لم ينكر رواية جدى . وتبلور جرح أبى إلى هدف واحد كبير هو أن يتعلم أبناؤه إلى أقصى درجة ممكنة . وكان هذا الهدف واضحاً فى كل تصرفاته وسلوكه معنا . أقصد أنا وأخى ، لأنه بالنسبة لأختىّ الإثنتين ، اكتفى بتعليمهما إلى مرحلة الإبتدائية الفرنسية بمدارس الراهبات، ثم حالت التقاليد الرجعية دون إتمام تعليمهما . وكان اهتمام أبى بتعليمنا يتخذ أشكالا عجيبة صارمة ، فهو يختار أحسن المدارس الأميرية ويسارع إلى دفع المصروفات المدرسية ، ويتلاشى حرصه أمام طلبات الدراسة من كتب إضافية إلى أدوات مدرسية من أفخر الأنواع ، وأذكر أنى كنت وأخى نحمل الأقلام الحبر الممتازة دائماً أيام الكتابة بالريشة القديمة ، حتى فى فترات الأزمات المالية التى اعترضت حياة الأسرة لم يكن أبى يتوانى عن تلبية أى طلب يمت للدراسة بصلة . وكان يشجعنا بالمنح المالية عند نجاحنا ، ومن أحسن أفكاره فى التشجيع الدراسى أنه — طوال فترة

التعليم الابتدائى والثانوى — كان يحدد تسعيرة ثابتة لكل درجة ، فكان يدفع لكل منا قرش صاغ عن درجة عشرة من عشرة ، أو تسعة ونصف من عشرة ، وقرش تعريفة عن التسعة من عشرة ، ثم لم يكن يبخل بالتأنيب والزجر إذا هبطت الدرجة إلى مستوى غير مشرف . وكنت بدورى أقوم بواجبى وأحقق أمله فى تعليمى ، فلم يكن ترتيبى يزيد على الثالث طوال فترة تعليمى الابتدائى ، إلا مرّة واحدة جاء ترتيبى الرابع ، فأهانني كثيراً ،وأخذ يعاملنى بجفاء ملحوظ وخشونة متعمدة لم أعتدها منه فى هذه الفترة من مرحلة حياتى .

وحدث فى تلك الفترة أن ارتكبت هفوة بسيطة ، وهى أنى لم أغسل أسنانى ، فعنفنى بشدة وصاح فى غضب : « أنت فاكر نفسك زى زمان ؟ » وأحسست بشحنة من العتاب بين ألفاظ التأنيب ، وكان درساً لا أنساه .

وفى بداية المرحلة الثانوية بدأت بترتيب الثالث . وقبل ظهور نتيجة الفترة الثانيـــة عرفت أن ترتيبى « الخامس » لأول مرة فى حياتى . وكانت صدمة قاسية غير متوقعة . وكنت معتاداً على تجميع درجات الفصل حيث أستطيع التنبؤ بترتيبى قبل أن يعرفه مدرس الفصل . وكنت متوقعاً ألا يقل ترتيبى عن الثالث كالعادة . وبالبحث اتضح لى أن هناك طالبين حاصلين على نفس مجموع الثالث ، فكان ترتيبهما الثالث والثالث مكرر . أى أن درجاتى

كانت فى مستوى الرابع ، واعتبرونى الخامس نظراً لوجود ثالث مكرر . وذهبت إلى المدرس المنوط به إنجاز الشهادات ، الأستاذ محمود سامى حافظ الذى كان مدرس الفصل فى اللغة الإنجليزية . وصارحته بمشكلتى وأفهمته أنى لا أستطيع مواجهة أبى بمثل هذه الشهادة . وطلبت منه أن يعدل لى الترتيب بخط يده ، لكنه أفهمنى برفق أن هذا مخالف للقانون ، ثم أبدى استعداده لإعطائى ورقة منفصلة بخط يده ينقذنى فيها من وصمة الخامس هذه ، أما الرابع فلها سابقة فى المدرسة الإبتدائية كما ذكرت ، وسيكون وقعها على نفس والدى أهون من الخامس . وفعلا كتب لى ورقة بهذا المعنى ما زلت أحتفظ بها حتى الآن فى ملف شهاداتى المدرسية تمشياً مع هوايتى فى الاحتفاظ بكل ورقة أسعدنى مضمونها يوماً ما ، سواء كانت رسالة أو شهادة أو قصاصة من صحيفة أو مجلة أو صورة فوتوغرافية .

ومن الصفات الحميدة التى أخذتها عن والدى ، العطف على الضعيف ، فقد كان رحمه الله — فى غاية الرحمة والشفقة على فئة الخدم . ولا أذكر أنه أهان إحدى الفتيات اللاتى التحقن بخدمة بيتنا طوال حياتى . بل كان يتساهل كثيراً معهن ، حتى أمام أخطائهن كان يتسامح فى صبر عجيب ، لم نحظ به نحن أبناؤه أو زوجته . وكانت عصبيته المفرطة وثوراته الطاغية تهدأ فجأة إذا ما دخلت الشغالة طرفاً فى المغضوب عليهم . وكثيراً ما كان يؤنب

والدتى على قسوتها مع هذه الفئة ، أو إهمالها لطعامهم أو اعتدائها عليهم بالضرب أحياناً ، ويردد جملته المشهورة إذا ما حاولت أمى تبرير تصرفها ، فيقول :

— مهما حدث .. لا تضربى ولا تهينى أحداً ، والتى لا تعجبك أتركيها تروح لحالها . . .

وكان عطفه هذا يتجلى أيضاً مع الباعة ، فيتساهل معهم فى الثمن ، وكثيراً ما كنت أراه يخرج من حجرته على صوت مساومة أمى مع الباعة المتجولين على باب الشقة ، فيفض النقاش فى لحظة بترجيح كفة البائع ، وهنا يختلط دعاء البائع ، مع همهمات السخط من والدتى التى تظن أن أبى خذلها ، فيحاول أن يطيب خاطرها بكلمته المأثورة « الحسنة المخفية فى البيع والشراء » لكن والدتى لم تكن تقتنع بهذا المنطق الرحيم وتعتبر أن البائع سرقها !

لم يكن والدى متديناً ، بمعنى أنه لا يصلى ولا يصوم ولا يذهب إلى بيوت الله . ولكن تصرفاته كانت أنبل كثيراً من هؤلاء الذين يحرصون على مظاهر التدين ، ثم يعيثون فى الأرض فساداً . وكان والدى يمقت هذه الفئة ، ويتندر عليهم ، وأحياناً يتصادف أن أكون بجواره فى نافذة حجرته المطلة على ميدان فم الخليج ، ثم ينطلق آذان الصلاة فجأة ، فيهرع الناس إلى جامع سيدى الأنصارى المقام فى الميدان ، فيضرب أبى كفاً بكف وهو يشير إليهم قائلا : « هذا البقال فلان . . أكبر حرامى . . وهذا الذى يمسك المسبحة

فى يده أكبر ضلالى . . وهذا معروف أنه تاجر مخدرات . . وهذا رامى أولاده فى الشارع ومتزوج على أم عياله» إلى آخر هذه النماذج التى كان يعرفها بحكم مولده ومعيشته فى هذه المنطقة . وكان يطلق على هؤلاء مثلا مأثوراً معناه «يصلى الفرض ويفسد فى الأرض» . ومن الأقوال التى كان يرددها فى هذا المجال «الدين المعاملة» وكان هذا مبدأه وشعاره ، يطبقه بصدق وإخلاص . ولم أره يوماً طامعاً فى مال غيره ولا متكالباً على المادة ، ولا يشتهى أكلة معينة إلا نادراً . وكان فى هذا صورة طبق الأصل من جدى وجد والدى ، كما كنت أسمع من عجائز العائلة ، وما كنت أراه بنفسى ، فقد عاصرت جدى لفترة طويلة خاصة فى آخر سنوات حياته ، حيث غمرنى بجميل لن أنساه ماحييت ، وسأتكلم عنه فى حينه .

ومن المتناقضات فى تصرفات أبى ، أنه رغم تقديسه للعلم بالنسبة لأبنائه وللآخرين ، فلم يحاول أن يلحق بقطار العلم فى أية مرحلة من حياته . ولا أذكر أنه اقتنى كتاباً واحداً طوال حياتى معه ، بل كان يحارب بشدة أى كتاب أقرأه خارج المقررات المدرسية ، ولم يكن يطيق أن يرانى أقرأ حتى رواية أو مجلة ، فكنت أشترك مع أخى وإحـــدى أخواتى فى شراء المجلات والروايات حتى لا ترهق ميزانيتنا ، ونقرأها فى الخفاء . كذلك عمى الذى درس الصيدلة فى أمريكا لم يكن مؤمناً بالتثقيف الذاتى .

وجدى أيضاً لم يقرأ كتاباً طوال حياته . لكنهم جميعاً كانوا يدمنون قراءة الجريدة الصباحية من الغلاف إلى الغلاف ، بما فى ذلك الإعلانات المفيدة وغير المفيدة ! ولعل شغفهم بالصحف يرجع إلى تحزبهم السياسى ، مع غريزة حب الاستطلاع المتأصلة فى النفس البشرية ، أما الثقافة غير المدرسية ، فلم تكن بذات قيمة فى نظرهم . وكنت أول من شذ عن هذه القاعدة فى عائلتنا ، فاعتمدت فى تكوين شخصيتى على التثقيف الذاتى واقتنيت مكتبة منوعة سيجىء الحديث عنها فيما بعد .

كان والدى يحب النوابغ من أصدقائى ، ويرحب بهم ، بينما لا يهتم بالعاديين منهم ، حتى ولو كانت لهم مكانة خاصة عندى ، ولا يتورع عن السخرية منهم واحراجى أمامهم . وأذكر من زملائى النوابغ الذين كان يحبهم أبى اثنين فى المرحلة الابتدائية هما محمود حلمى البسطامى ، وعبد المنعم حسين حافظ ، وهما اللذان كانا يحتفظان بالمركزين الأول والثانى فى ترتيب الفصل حيث أكون أنا الثالث ، ونادراً ما كنت أتقدم على أحدهما وأحظى بمركزه . ورغم أنهما كانا ينافسانى على أغلى ما يعتز به أبى . . أى العلم . فمع هذا لم يكن يحس نحوهما بشىء من الحقد أو الغيرة ، بل كان يشجعنى على مصادقتهما ومصاحبتهما ، خاصة وقد كانا على خلق عظيم . ولم يكن أبى يصرح لى أو لأخى بأن نزور أو نُزار خوفاً علينا من مخالطة إخوان السوء ، أما هذان الزميلان فكان يرحب

بهما دائماً فى بيتنا ويحبهما كأبنائه .

وبعد هذا بسنوات طويلة . . وفى سنة ١٩٥٣ بالذات . تعرفت على طالب فى كلية الحقوق إسمه أحمد فتحى سرور ، عن طريق مجلة روايات الأسبوع التى كنت أعمل بها سكرتيراً للتحرير. وكان يهوى الأدب وينشر قصصه فى المجلة عن طريقى . وكان هذا الصديق — الذى أصبح الآن الدكتور أحمد فتحى سرور مدرس القانون الجنائى بكلية الحقوق — كان هذا الصديق من أقرب الناس إلى قلب أبى ، وكان يفرح كثيراً بزيارته لى ، ويتتبع خطوات نجاحه بفخر الأب وحنانه ، ويضرب به المثل لكل خائب أو كسول .

وبقدر ما كان أبى يحب المتفوقين ويفخر بهم ، فقد كانت لى حظوة كبيرة عنده كما أسلفت طوال فترة دراستى . وكان على صلة وثيقة بمدرسى فصلى فى جميع المراحل . ويتردد على المدرسة كثيراً ليعرف رأى أساتذتى فى مجهودى الدراسى . ويرجع إلى والدتى منشرحاً ، وعلى فمه ابتسامة رضا واسعة ، ويردد معها قول صقر أفندى مدرس اللغة العربية : « أبشر بهذا الغلام » . وكنت أسمع حكايات المدرسين عنى بشىء من الدهشة والاعتزاز ، فقد كانوا يحللون شخصيتى وتصرفاتى بأوصاف أعتقد أن فيها كثيراً من المبالغة ، فلم أكن أشعر أنى أؤدى أكثر من واجبى ، وأتصرف بطبيعتى الطموح المقدرة للمسئولية . ويبدو أن هذا

الطراز من الطلبة لم يكن متوفراً ، بحيث يبدو من يؤدى مجرد واجبه كأنه قام بمعجزة .

ولكن .. هل دامت لى هذه الأبوة الحانية ؟

كلا .. للأسف .

فقد انقلب هذا الأب الحنون العطوف إلى ديكتاتور مستبد يمعن فى إذلالى ، ولا تغرب شمس دون أن يتحدانى ، ويستغل ضعفى ، ويهين كبريائى ، ويسفه آرائى . حتى أصبحت الحياة معه جحيماً لا يطاق . ومما ضاعف من تعاستى أنى لم أكن حتى أستطيع الهروب منه .. بعد أن وضعنى القدر فى القيود .. تحت رحمته .

ولكن كيف حدث التحول الرهيب ؟ ! ...

لندع الأحداث تتكلم عن نفسها .. حسب تسلسلها التاريخى .. حتى لا نسبق الزمن .

أمى :

أما الحديث عن أمى فهو أكثر إحراجاً من حديثى عن أبى . خاصة إذا توخيت الحقيقة المجردة التى عاهدت نفسى أن التزمها فى هذا الكتاب ، ومع ذلك فلست أجزم أنى أصبت عين الحقيقة والواقع ، لكنها على أية حال وجهة نظر شخصية ، تنبع من أحاسيسى وانفعالاتى ، التى قد تؤثر فيها عوامل خارجة عن إرادتى ، وليغفر لى ربى إذا ماتجاوزت الحقائق عن غير قصد .

إن شخصية أمى تختلف اختلافاً بيّناعن أبى. فهوعصبى ثائر ، وهى هادئة باردة الأعصاب . أبى هياب متردد ، وهى جريئة مندفعة . أبى حنون شفوق ، وهى قاسية لاتهزها آلام الغير ، ولا تتعاطف مع المحتاجين إلى الحنان والمساعدة. لاترحم الضعيف إذا تسلطت عليه ، وتتصرف غالباً وفق مصلحتها الخاصة دون مراعاة للعدالة الإنسانية . لكنها إذا فقدت سلطتها سرعان ماتستكين وتستسلم فى بساطة وخضوع دون حقد أو غيظ . . بعكس والدى الذى لايستسلم للهزيمة ، بل يزداد شراسة وهياجاً ولو كلفته المعركة حياته ، وإذا اضطر للاستسلام فعلى مضض وغيظ مكبوت .

أما فى درجة الذكاء ، فإن والدى يتفوق عليها كثيراً ، وإن كانت هى تتمتع ببراعة ملحوظة فى الأعمال اليدوية المتكررة التى لاتحتاج إلى ابتكار وخلق ، وفى هذا يتجلى نشاطها فى غير ملل أو كلل .

لكن أمى تمتاز عن أبى فى بعض الصفات ، فهى أكثر منه مرحاً وتفاؤلا ، وتتكيف بالبيئة التى تتواجد فيها ، بعكس أبى الذى كان يميل إلى الكآبة والإنطواء والتشاؤم. ولعل هذا يرجع إلى فرط حساسيته ، وإحساسه بالمسئولية الثقيلة على كاهله ، أما والدتى فهى لا تحمل هماً ، ولا تعمل حساباً للغد ، لاتحزن ولا تعكر الأحداث صفوها ، بل تبذل كل اهتمامها فى تحقيق

رغباتها ؛ وأسوأ ما يضايقنى من والدتى أنها لا تؤمن بالتضحية من أجل الغير .

وتتسابق على سن قلمى حوادث وذكريات مريرة لكنها مؤلمة وثقيلة على نفسى ، كلها تدور فى فلك القسوة وحب الذات ، وسأضرب عنها صفحاً ، متجاوزاً التفاصيل الكثيرة المتكررة ، التى قد يصل بعضها إلى حد من التفاهة لا تستحق الذكر ، ونفس هذه التفاهة هى التى تثير الألم والضيق إذا ماصدرت عن أم .

والعجيب أن هذه الأم الجامدة العواطف ، كانت — فى حياة أبى — زوجة ممتازة ، مخلصة ، متفانية ، صابرة ، مطيعة ، تدلل أبى وتتحمل عصبيته ، وترضخ لديكتاتوريته . وهى البادئة دائماً بالصلح والاعتذار ، حتى ولو كانت مظلومة ، وكان والدى أحياناً يهينها بألفاظ جارحة ، فلاترد له شتائمه . بل تربت عليه مستعطفة وتناجيه بألفاظ عاطفية مثل « ياحبيبى .. ياقمر .. ياباشا » حتى بعد الغاء الألقاب ، فقد كانت ألقابها عاطفية لا تخضع للقانون . ولا تتورع عن تقبيله أمامنا . وكان والدى خجولاً ، فيدفعها عنه فى صمت أحياناً ، وفى نفور أحياناً أخرى . ولم أشهده طيلة حياتى يقبلها أو يداعبها ، أو يدخل عليها بهدية فى أية مناسبة ، حتى كلمات المجاملة لم تكن تسمعها منه إطلاقاً ، رغم أنها كانت تغدق عليه الكثير من هذه التحيات والتمنيات . فإذا أكل قالت : « بالهناء والشفاء ياحبيبى » ، وإذا شرب قالت: « هنيئاً ياقمر » ، وإذا خرج

من الحمام قالت : « نعيماً يا باشا» وهكذا كانت تمنحه من حبها أ كثر مما يطمع فيه أى زوج . فإذا عاد من عمله كان الطعام معداً على المائدة فى ثوان . وإذا نام هيأت له منتهى الهدوء ، بأن تكتم أنفاسنا نحن الأطفال ، وترغمنا على النوم ظهراً ، حتى ينعم « الباشا » بنوم مريح . وأحياناً تنام هى معنا ظهراً حتى تضمن عدم تسللنا من الأسرّة . وكنت أتطلع إلى جسدها الضخم وهى ترقد بجوارى ، فكأنى أنام عند سفح الجبل ، ويزيد من رهبتها ذلك السلاح الذى تشهره فى يدها ، وهى نائمة فى انتظار أية حركة أو بادرة تسلل ، وذلك السلاح إما أن يكون عصا أو مسطرة أو «فردة شبشب» ! ! والسلاح الأخير كان يضاعف من إحساسى بالإهانة إذا ما استعملته ضدى ، ولو أنها اكتفت بكف يدها الغليظة لكانت أقسى إيلاماً . . لكنها أكرم .

وكان والدى أيضاً يحبها ، لكنه كان يخجل من إبداء عاطفته ، حتى لأبنائه ، ولا أذكر أن الحماس أخرجه يوماً عن خجله ، فأقبل علينا يقبلنا سواء فى نجاح أو سفر أو مرض .. لكن أعماله وتصرفاته كانت تنطق بالعطف والحنان خاصة أيام طفولتنا . وكان حبه لوالدتى يتجلى فى ابتسامته الخجلى عندما تدلله . . وأحياناً تبدو فى شتائمه المرحة التى تأخذها هى ببساطة على سبيل المداعبة . كذلك كنت أحس تعلقه بها فى سؤاله عنها ، وقلقه عليها إذا تأخرت خارج البيت دقائق عن الموعد الحازم الذى حدده لها .

وفى لهفته عليها إذا مرضت .

وكانت والدتى تخصه بأطيب مافوق المائدة من طعام ، لكنه يرفض بشدة أن يمتاز عنا ، وكان يصر على أن يكون نصيبه مساوياً لكل واحد منا من حيث الكم والكيف . وفى مثل هذه التصرفات البسيطة يتجلى حنانه وإيثاره .

والواقع أن والدتى ضعيفة جداً أمام الطعام الدسم ، وتتفنن فى إعداده ، حتى إذا اضطرب هضمها لاترحم نفسها فتبتلع الأدوية المهضمة بكميات كبيرة حتى لاتحرم نفسها من الأكل الدسم . وقد كنت أندفع إلى نصحها كى ترحم معدتها ، لكنها ظنت أنى أضن عليها بما تشتهى ، فعاهدت نفسى أن أحتفظ بنصائحى لنفسى .

والعجيب أنى دون أبنائها وأحفادها جميعاً قد ورثت عنها صفاتها الشكلية .. نفس الملامح . . الفم الصغير ، والأنف ذا المعطسين الواسعين ، والعينين السوداوين المستديرتين الغائرتين ، والحاجبين الخفيفين المستقيمين ، وشكل الجبين ولون الشعر القاتم ودرجة نعومته . ولولا أنى أتبع قيوداً خاصة فى طعامى لاكتسبت نفس القوام البدين . ولم أرث أنا وأخوتى عيون أبى الزرقاء وبشرته الناصعة المشوبة بالحمرة ؛ وذلك حسب نظرية « مندل » فى الوراثة التى أثبتت أن العيون السوداء صفة سائدة والزرقاء صفة متنحية .

والأعجب أنى لم أرث فقط صفات الشكل الخارجى ، لكنى

اكتشفت ، فيما بعد أنى ورثت نفس أمراضها وسأتكلم عنها في حينها .

أما فى الصفات المعنوية ، فنحن على طرفى نقيض تقريباً ، لأن مكونات الشخصية لا تورث ، بل تكتسب من البيئة والثقافة والأحداث التى تمر بالإنسان ، ورغم أنى لا أتفق مع والدتى فى كثير من الآراء، إلا أنى أحسدها على شخصيتها ، وأعتقد أنه لم يكن يضايقنى أن أرث شخصيتها أيضا بكل مقوماتها . فهى على أية حال راضية تماماً عن تصرفاتها . تنعم بهدوء واستسلام ، لا تحزن ، ولا تقلق ، ولا تشارك الناس وجدانهم ، ولا يثقل الندم ضميرها . إنها سعيدة جداً إذ تكرس معظم اهتمامها وجهودها لإنسانة واحدة . . لا تراها إلا فى المرآة . . !

والواقع أنى أحياناً أرثى لها ، وألتمس لها بعض العذر لأنها نشأت محرومة من الحنان طوال حياتها ، فقد ماتت أمها بعد ولادتها بأيام ، فلم ترضع الحب فى طفولتها ، ولم تهدهدها ذراعان حانيتان . ولم تشعرها زوجة أبيها بالتضحية والإيثار . وكان أبوها تاجراً سورياً نزح إلى الاسكندرية ، وراح يكدح طوال النهار ، ولا يعود إلى بيته إلا فى ساعة تكون فيها الطفلة نائمة وحدها . . حتى أخوها الوحيد كان يعيش فى مدرسة داخلية .

ولما بلغت السادسة عشرة تقدم لها أبى ، وانتزعها من عائلتها الصغيرة . وأتى بها إلى بيت الأسرة فى القاهرة ، فذاقت الأمرين

على أيدى عمّاتى اللاتى كن أكبر منها سناً ، فأخضعنها لسيطرتهن ، وضاعت إرادتها فى ذلك النظام القَبَلى الذى تعقد فيه السلطة للأكبر سناً . ولما كانت هى أصغرهن، فقد كان طبيعياً أن تتعرض وهى الفتاة الغريبة الصغيرة لصنوف شتى من السيطرة، ولم تكن تتنسم نفحات الحنان إلا من جدى الأكبر الذى كان يعطف عليها . ولكن سرعان ما فقدت هذا النبع الحانى قبل مولدى ، أى دون أن تهب له أول صبى فى الجيل الرابع من أحفاده . ولم يبق لها من مصادر الحنان غير زوجها الخجول ، الذى لم يجاملها بكلمة طوال حياته . ثم مات أبوها وأخوها ولم يتعد كل منهما الخامسة والأربعين . . وبهذا أصبحت هى الفرع الوحيد فى شجرة عائلتها الذى تدب فيه الحياة على سطح الأرض .

وإذا أخذنا بالمثل القائل : « إن فاقد الشيء لا يمنحه » فإننا قد نلتمس لها العذر فى جمود عواطفها وفتور حنانها . وإن كان هذا المثل صحيحاً ، فإن عكسه صحيح أيضاً ، فقد صادفت نماذج كثيرة حرموا من السعادة أو الحنان أو الصحة وذاقوا مرارة الحرمان ، وكان هذا دافعاً لنفوسهم الخيرة لكى تسعى بكل طاقاتها لتجنيب إخوانهم فى الإنسانية مثلما قاسوا. وهكذا النفس البشرية قد تعطى النقيضين ، وهى مدفوعة بمؤثر واحد .

وإذا كان جمود العاطفة يجعلنا نفتقد الحنان ، فإن له مزايا لا تنكر . فهو يمنح صاحبه قوة غير عادية فى المواقف الصعبة. أذكر

أن أخى أصيب بخراج كبير فى ساقه وهو بعد طفل فى حدود العاشرة، وأجريت له عملية جراحية كبيرة. وكان الطبيب يزوره يومياً فى البيت لمباشرة الغيار على الجرح. وكانت عملية الغيار تلك مؤلمة للغاية، خاصة بالنسبة لطفل صغير، فقد كان الجرح عميقاً، وبه قطع كبيرة من صفائح المطاط المموجة لمنع الجرح من الإلتئام حتى يطمئن الطبيب إلى نظافته تماماً.

استمرت هذه العملية أكثر من شهرين، وكان والدى يهرب منها إلى سطح المنزل، لأنه لا يستطيع أن يسمع أنّات إبنه المتوجع. أما والدتى فكانت تجلس كالصخرة الراسخة. وتمسك بأخى فى قوة حتى ينتهى الطبيب من عملية الغيار، وأذكر أن أخى كان طفلاً رقيقاً مهذباً للغاية. فإنه بدلاً من أن يوزع صراخه وسخطه على من حوله أثناء الغيار، كان يبكى فى أنين مكبوت يفتت القلب، ويدعو للطبيب — بقدر ما تسعفه مخيلة الطفل — أن يحفظ الله أمه وأخوته.

وكان الطبيب، وهو الجراح الإنسان الدكتور عباس حلمى، أستاذ الجراحة بالقصر العينى حينذاك، يتأثر أشد التأثر من هذا الطفل العجيب، ويبذل جهد طاقته كى يجنبه قدر ما يستطيع من الآلم. ولا شك أن وجود أمى بجانب أخى فى تلك الفترة العصيبة كان يشعره بالطمأنينة. ولو أنها كانت مرهفة الحس كأبى، لافتقد أخى إحساسه بالطمأنينة والحماية.

ومن ميزات أمي أنها كانت تستطيع أن تتحمل مسئولية أولادها وبيتها وتضطلع بأعبائه في يسر ونشاط . وهي التي كانت تشترى كل احتياجات الأسرة من ملابس إلى مأكولات إلى مفروشات، ولا أذكر الأثاث. لأن أبي كان يعارض بشدة في تغيير أو تجديد أثاث البيت، ولا أنسى يوم غيرت أمي السرير النيكل المحلى بالفوانيس والمرايا .. واشترت بدلا منه سريراً خشبياً عريضاً من طراز جديد . يومها قامت ثورة في البيت ، ورفض أبي أن ينام على السرير الجديد، ونام على البساط في غرفة الإستقبال عدة أيام ، حتى استطعنا أن نقنعه بميزة السرير الخشبي ، والعجيب أنه لم يكن رافضاً الفكرة منذ البداية ، لأنها لم تكن تجرؤ على مثل هـــذا التصرف دون إذنه بالطبع .

ولا أذكر أن أبي اشترى لنا يوماً قميصاً أو حذاء ، بل أن والدتي كانت تشترى له أحياناً بعض قمصانه وجواربه . وكان تفكير والدي رجعياً لا يستجيب للتطور . أما والدتي فهي تتمشى معنا دون تعنت . ولم أستطع أن أغير أي شيء حتى في حجرتي الخاصة إلا بعد وفاة والدي . فانفجرت رغبات السنين المكبوتة . وفي ظرف أعوام قليلة كنت قد غيرت كل قطعة من أثاث المنزل القديم ، حتى المطبخ .

وكانت والدتي تتفاعل مع أمزجتنا حتى في وسائل التسلية التي لا تخرج عن الراديو أو النزهة على النيل وفوق كوبرى الملك الصالح

وكوبرى عباس ، ومسرح رمسيس الذى كان يقدم روا ياته على مسرح الليدو الصيفى ، وكنا نذهب إليه سيراً على الأقدام ، مستمتعين بنسائم النيل الباردة ، ثم انقلب مسرح الليدو نفسه فيما بعد إلى سينما صيفية ، ولما كان هو الملهى الوحيد القريب من بيتنا . فقد كانت أمى تصحبنا — إخوتى وأنا — إلى هناك .

ولم تكن أمزجتنا تتنافر، فهى تعجب بأفلام شيرلى تمبل الطفلة، ونحن نغرم بمآسى يوسف وهبى الفاجعة . وفى الشتاء كانت تصحبنا إلى إحدى دارين للسينما فى وسط البلد ، وهما سينما الكوزمو أو سينما ستوديو مصر المقابلة لها .

* * *

وفى طفولتى المبكرة كانت أمى تحكى لنا حكايات عجيبة عن الشاطر حسن وست الحسن والجمال ، « وسكة السلامة وسكة الندامة ، وسكة اللى يروح ما يرجعشى » . . وحكايات أخرى ، وجدت فيما بعد أن لها جذوراً فى قصص ألف ليلة . وكانت أمى تعى هذه الحكايات عن زوجة أبيها وتحكيها لنا على حلقات بطريقة مشوقة . ولعل ما كانت أمى ترويه لنا هو أول ما طرق سمعى من الأدب القصصى ، الذى أصبح فيما بعد هوايتى ، ثم مهنتى التى احترفها .

وأصبحت الآن أقرأ لوالدتى بعض إنتاجى ، فتستحسن معظمه

وتنتقد بعضه بطريقة ساذجة، كأن تعترض على الخاتمة التى لم أذكر فيها أن البطل تزوج البطلة، وخلّفوا صبيان وبنات !

وعلى أى حال فهى فى هذا أفضل بكثير من والدى ، لأنها على الأقل تستسيغ إنتاجى ، ولا تبخل علىّ بكلمات الإعجاب والتشجيع ، بعكس والدى — رحمه الله — الذى كان يتعفف عن مجرد الإطلاع على أعمالى الأدبية او الفنية .

طفولتي

كانت بداية حياتي سعيدة حقاً ، بصرف النظر عن سلسلة الأمراض التي اعترضت طفولتي وصباي ، ويقولون أني لم أكن غلاماً شقياً ، بل كانت تغلب عليّ صفة السذاجة .

حادث نصب :

وأذكر حادثاً وقع لي ذات صباح وأنا ذاهب إلى المدرسة الابتدائية ، وكان عمري لم يتجاوز السادسة . ولكني أذكر الحادث بتفاصيله . كانت تمشي بجانبي إبنة عمتي وهي تكبرني بعامين . وإذ بامرأة ريفية تعترض طريقنا قبل باب المدرسة بحوالي خمسين متراً . وكانت ترتدي ثياباً سوداء طويلة . إقتربت مني المرأة وهمست في خوف :

— هل سمعتم عن اللص الذي يقف هناك عند باب المدرسة ويجرّد الأطفال من نقودهم .. ؟

فهتفت في خوف وأنا أتلمس القرش التعريفة في جيبي :

— كلا .. لم نسمع عنه ...

والتفتُ إلى أبنة عمتي أستنجد بمشورتها فى هذا المأزق . فبدا أنها لا تهتم بالموضوع ، وخمنت أنها مفلسة ، وإذا بالنجدة تأتيني من المرأة الريفية التي قالت فى حنان واهتمام :

— إذا كان معكم نقود أعطوها لى وأنا ألفها لكم فى مناديلكم حتى لا يراها اللص اللعين ...

وعدت التفت إلى ابنة عمتي ، فوجدتها تقول :

— ليست معي نقود ....

وأدركت سبب برودها ، وشعرت بالقلق على التعريفة الذى بجيبي .. خمسة مليمات كاملة هي مصروفى اليومى . وبكل حرص وحذر أعطيت المرأة كل ثروتى مع منديلي . وما لبثت أن أعادت إلىّ المنديل معقوداً على القرش . وقبل أن أشكرها انطلقت تجرى حتى تلحق ببقية الأطفال ذوى « المرايل » والحقائب الصغيرة ، حتى تؤدى لهم خدماتها الإنسانية وتحذرهم من اللص ! .

ولعجبي ، سمعت صلصلة النقود وهى تهتز فى جيبها العميق ، فالتفت إلى إبنة عمتي وسألتها فى دهشة :

— لماذا لم تربط هذه المرأة نقودها فى منديل حتى تخفيها عن اللص .. ؟ ! .

فحدجتني إبنة عمتي باستخفاف وقالت :

— وهل صدقتها يا عبيط ؟ .. لقد سرقت قرشك ...

فأسرعت أخرج المنديل من جيبي وأتحسس القرش فيه ،

فأدركت لأول مرة أن القرش سميك عن المعتاد! وبأصابع ملهوجة فككت المنديل، وإذ بي أجد القرش وقد تحول إلى زلطة رقيقة. فأحسست بغصة فى حلق، وانفجرت باكياً. والتفت إلى الوراء فرأيت المرأة ذات الرداء الأسود مازالت تجرى على مرمى البصر. ولا أدرى أية شجاعة فاجأتنى يومها، فقد جريت وراءها فى عناد وإصرار، وبكائى يتخذ لحناً مرتعشاً مع اهتزازات جسدى أثناء الجرى.. لكنها اختفت فى إحدى الحارات، ثم ابتلعتها الأرض، وعندما عدت إلى ابنة عمتى، كنت ما زلت أبكى بحرقة، فرثت لحالى واقتسمت معى قرشها الذى أنكرته عن اللصة اللعينة.

ترك هذا الحادث أثراً عميقاً فى نفسى، حتى أنى مازلت أذكره بتفاصيله. وما زالت مخيلتى تختزن صورتها وهى تجرى أمامى وصوت النقود ينبعث عالياً من جيبها العميق.

وقد يكون لهذا الحادث وغيره مما هز طفولتى، أثر كبير فى حرصى التقليدى الذى لازمنى حتى الآن، ولكن هذا الحذر لم يمنعنى من الوقوع فى حبائل النصابين أحياناً. لكنها على أية حال مرات قليلة ليست فى صميم عملى الذى أحذر فيه لدرجة الشك. ولكن المحتال كان يأتينى أحياناً من نافذة الإنسانية، فيستدر عطفى المادى، رغم معارضة بعض المتشككين حولى. ثم اكتشف بعد حين أنه كان يختلق أكذوبة كبيرة، لكنى لا أندم كثيراً رغم شماتة المحذرين، فإنى افترض حينذاك أنه ما لجأ إلى الكذب

والخديعة إلا لحاجته الملحة ، وعجزه عن اتباع الطريق المستقيم .

قد يكون فى هذا المنطق شىء من السذاجة أيضاً ، لكنه يرضينى نفسياً ، ويوفر علىّ الغم والندم .

الجلاد الصغير :

ولم تكن بساطتى فى طفولتى لتؤثر على مستواى العقلى لحسن الحظ . فقد كنت متفوقاً فى دراستى ، بدرجة تلفت أنظار المدرسين. وأذكر أنى عندما كنت فى السنة الأولى الابتدائية فى تلك المدرسة الأهلية التى نشلت على بابها. أذكر أن مدرّسة الحساب استدعتنى إلى السنة الثانية لأصحح خطأ لأحد تلاميذها حتى تخجله أمام زملائه عندما يصحح له معلوماته تلميذ السنة الأولى . وعندما نطقت بالإجابة الصحيحة ابتهجت المدرسة ، وأرادت أن تمعن فى إذلال التلميذ المسكين ، فصاحت تأمرنى بأن أصفعه صفعة قوية . وصدمتنى المفاجأة ، ووقفت مبهوتاً وأنا أتطلع إلى التلميذ الخائب الطويل وهو يحدجنى بنظرات كلها حقد وتحذير . وإذ بالمدرّسة تلوح بعصاها فى وجهى مهددة بأن تضربنى إذا لم أنفذ أمرها ، وصممت أن تكون الصفعة قوية ، حتى تشفى غليلها من تلميذها البليد . ولم يكن هناك بد من القيـــام بدور الجلاد ، فشببت على أطراف أصابعى ، وطوحت يدى بصفعة مترددة على صدغه ، وفى نفسى تعتمل مشاعر محتدمة ، بين إشفاق على المضروب ، وخوفى من المدّرسة وخوفى من انتقامه فى فناء المدرسة ، حيث لم يكن لى

حول ولا قوة . فقد كنت هزيلا مسالماً ، حتى فى صباى وشبابى المبكر لا أذكر أنى سعيت إلى معركة ، أو انضممت إلى إحدى الجماعات التى تحترف «الفتونة» ومعاكسة المدرسين ، والقفز فوق أسوار المدرسة . وكنت أتفادى التحرش بهؤلاء « البلطجية » الصغار لأنى كنت غالباً ما أخسر المعركة . وكان ذلك يحز فى نفسى كثيراً ، ويشعرنى بفيض من الحسرة والمهانة .

لذلك بادرت إلى التلميذ المصفوع اعتذر له عن سوء حظى الذى اختارنى أداة لإيذائه وإهانته . وعلمت منه أنها تضطهده لأنه يرفض أن تعطيه دروساً خصوصية رغم ضعفه فى الحساب .

لعب الطفولة :

وعندما نجحت آخر العام ، وانتقلت إلى السنة الثانية الابتدائية كان ترتيبى الأول . ففرحت عائلتى بتفوقى ، ومنحنى خالى ساعة فخمة ، أذكر أن ثمنها كان يومها مائة قرش وعشرة . وكانت أول ساعة تلتف فى رشاقة حول معصمى . وظللت أحافظ عليها ، حتى أهديتها لأحد أبناء أختى وأنا فى الثلاثين من عمرى فخرّبها فى شهور قليلة .

أما والدى فلم يكن يؤمن بالهدايا . وكل ما كان يكافئنى به هو أن يسمح لى بأن أقتحم حصالتى ، وأشترى اللعبة التى أريدها من نقودى المدخرة . وأذكر أنى اشتريت مع الساعة آلة تصوير

مكعبة الشكل ، كان ثمنها أربعين قرشا ، وكان الفيلم ثمنه خمسة قروش . وهذه « الكاميرا » ما زلت احتفظ بها سليمة وفى حالة جيدة حتى الآن . حتى بعد أن توقف استيراد الأفلام الخاصة بها منذ سنوات لتقادم هذا الطراز الأثرى . ولهذه الكاميرا فضل كبير فى تسجيل مراحل حياتى فى عشرات الصور النابضة بالحياة ، فإن لها — رغم ثمنها الزهيد — عدسة رائقة قلما يوجد مثلها الآن . وقد أدخلت عليها أخيراً بعض التعديلات بحيث أصبحت تتقبل أى فيلم ، وتخرج أربعة أحجام مختلفة من الصور .

كانت هذه عادتى دائماً مع لعبى التى اقتنيتها فى طفولتى وصباى . وأذكر منها لعبة لطيفة ذات كرات معدنية يقذفها رفاص يحركه الطفل ، فتدور الكرات اللامعة داخل إطار خشبى مغطى بلوح من الزجاج . إقتنيت هذه اللعبة فى سنة ١٩٣٨ عندما انتقلت إلى السنة الثالثة الابتدائية . وظللت محتفظاً بها سليمة ، حتى أهديتها إلى أبناء أختى الكبرى منذ سنوات . ومن الطريف أنى احتجت يوما إلى لوح زجاجى لأضع خلفه إحدى رسومى ، وكنت أريد اهداءها إلى صديق . ولم أكن أملك ثمن لوح الزجاج ، أو لعله كان باهظ الثمن بالنسبة لميزانيتى حينذاك ، فاستعرت اللوح الزجاجى من هذه اللعبة ، ثم أعدته إليها بعد سنوات عندما تيسر لى المال نسبياً .

ومن اللعب التى اقتنيتها عند نجاحى فى الشهادة الإبتدائية ،

بندقية رش، كان ثمنها خمسة وستين قرشاً، وبعد ما استمتعت بها سنوات طويلة بعتها بعد أن لازمت الفراش، بجنيه كامل، فقد كانت الأسعار آخذة فى الإرتفاع بشكل مطرد.

المدارس الاميرية:

وعندما لمس والدى تفوقى المرموق فى النجاح بالمدرسة الأهلية، دفعه الطموح أن يدفع بى إلى المدارس الأميرية، ذات المستوى الأعلى، مضحياً بالمصروفات المدرسية التى كانت تتجاوز الستة الجنيهات سنوياً. ولم يكن هذا مبلغاً يستهان به فى محيط أسرتنا فى ذلك العهد. وفعلا قدم لى طلباً للالتحاق بمدرسة العقادين الإبتدائية بمصر القديمة.

وكان من المنتظر أن أجتاز امتحان القبول بالسنة الثانية بامتياز، كما اجتزته فى المدرسة الأهلية، وكنت فيه الأول على فصلى. لكن النتيجة كانت مخيبة لآمالنا. فقد جاءت ورقة الإمتحان أمامى مشحونة بالألغاز التى لم أدرسها فى المدرسة الأهلية. وكان أن رسبت بجدارة فى امتحان القبول. واضطررت أن أعيد السنة الأولى بمدرسة العقادين. وكان هذا أول وآخر امتحان أذوق فيه مرارة السقوط.

أمنية صباى:

وعدنى أبى بهدية ثمينة إذا نجحت وجاء ترتيبى الأول كما كنت فى المدرسة الأهلية. وكانت آمالى يومها تنحصر فى اقتناء دراجة،

ووافق أبى على هذه الهدية ، فبذلت جهداً كبيراً لأحقق أمنيتى الكبرى . ولكن كان معى فى السنة الأولى طالب عنيد يحتل الأولوية دائما فى امتحانات الفترات الثلاث ، وجاء ترتيبى بعده الثانى ، ثم الثالث ثم الثانى . وكدت أيأس من الدرّاجة. وفى امتحان النقل آخر العام فوجئت أن الشهادة خالية من الترتيب . ولكن كان مجموعى ٢٣٧٫٥ من ٢٦٠ أى حوالى ٩١٪ (وأنا أنقل هذه الأرقام من الشهادات نفسها التى احتفظ بها كلها فى صندوق الذكريات الذى سأتكلم عنه فيما بعد) .

أسقط فى يدى ، وتراءت لى الأمنية الضخمة تتبخر بين يدىّ ، وأشفق أبى من اكتئابى ، فوعدنى بزيارة ناظر المدرسة والاطلاع على جدول الناجحين ، ليحسم الأمر . وكم كانت فرحتى عندما جاءنى بالخبر السعيد ، بأن زميلى العنيد قـــد تقهقر مفسحاً لى مقعد الأولوية .

وبدأت أنتظر الدراجة بصبر ملول ، ولهفة متزايدة . كنت أسرع بفتح باب الشقة كلما دق الجرس، وكلى أمل فى أن أجد أبى على الباب ومعه الدراجة . لكنه كان دائماً يخيب ظنى ، ويؤجلنى للغد ، وأصدقه ويخذلنى مئات المرات . وظلت الدراجة حلم حياتى حتى بعد أن لازمت الفراش فى سن الرابعة عشر . وكنت مؤمناً دائماً بأنى سأشفى لأركب الدراجة ، وكنت فى بداية المرض أمشى بصعوبة شديدة لكنى كنت أجازف بركوب الدراجة « المؤجرة

بالطبع ، ولى فى هذا المجال مغامرة سيأتى ذكرها فيما بعد .

وحتى بعد أن أدخرت ثمن الدراجة من مصروفى الخاص . رفض أبى أن يسمح لى بشرائها ، بحجة أن فيها خطراً على حياتى ، ولعله كان يعتقد هذا فعلا ، ولعله كان يستكثر أن أدفع مدخراتى كلها فى شيء لا يحبه هو شخصياً . ولكنه على أى حال . . ضيع علىّ أمنية صباى وشبابى ، هذه الأمنية التى ظلت جذوتها مشتعلة فى أعماق سنوات طويلة ، حتى بعد أن تخطيت السن التى تسمح لى بركوب الدراجة . ولا أدرى سر تعلقى بهذه الأمنية الغالية . إنها ليست أهم من أشياء كثيرة حرمت منها ، واستطعت أن أنساها أو أعوضها بسهولة . يبدو أن إحساسى بخيبة الأمل فى طفولتى يوم خذلنى أبى ولم يبر بوعده ، قد جعلنى أتمسك بهذا الحق الذى حصلت عليه بمجهودى المضاعف وحصولى على الأولية .

ومن العجيب أنى طوال حياتى المدرسية ، بعد تلك الخدعة ، لم أحصل على الأولوية إطلاقاً ، وإن ظللت أحوم حولها . رغم أن أبى كان دائماً ينتظر بلهفة أن أتبوأ المركز الأول ، حتى أنه لم يكن يفرح لنجاحى على أنه شيء مفروغ منه . ولا أعنى بالطبع أنى كنت أتعمد خذلان أبى كما خذلنى . . فقد كنت دائماً طموحاً إلى القمة ، لكنى لم اتبوأها بعد ذلك . . لا أدرى لماذا . . ! هل هى مجرد مصادفة ؟

والعجيب أن أبى سمح لأخى الأصغر فيما بعد باقتناء دراجة ،

لكنى لم أكن وقتها فى حالة تسمح لى باستعمالها . . فقد كنت قد استسلمت للسرير نهائياً . ولعلى لا أبالغ إذا قلت أن لهفتى على اقتناء الدراجة لم تخمد إلا منذ عام واحد عندما اشتريت دراجة فخمة واحتفظت بها فى مسكنى . . !! حقاً أنى ان أركبها ولو كنت سليماً معافى ، لكنى استمتع كثيراً عندما يركبها أحد أولاد أخواتى ، وهم خمسة فتيان فى عمر الزهور أكبرهم فى العشرين وأصغرهم فى الرابعة عشرة من عمره . وكلهم مع أمهاتهم يسكنون فى نفس العمارة التى أسكنها .

من عقد طفولتى :

كنت فى صباى أنزعج جداً من الظلام ، وأشعر برعب قاتل إذا ما تواجدت مضطراً فى مكان معتم . وكانت هناك عدة عوامل سببت لى عقدة الخوف من الظلام ، أذكر منها كتاب القراءة الرشيدة الذى كانت به قصة عن كلب أمين استطاع أن ينبه صاحبه إلى لص خطير مختبىء تحت السرير ، ومع القصة صورة متقنة للص وهو يبرز برأسه من تحت السرير والكلب ينبح أمامه . وملامح اللص تبدو بشعة متقلصة وبيده سكين ضخمة . هذه الصورة التى مازالت عالقة بمخيلتى حتى الآن كانت ترعبنى فى صغرى أشد الرعب، ولا أستطيع أن أنام على السرير قبل أن أبحث تحته . وأحياناً أخجل من إبداء خوفى أمام أخوتى ، فأقف متردداً على عتبة الباب،

ثم أجرى بسرعة وأقفز إلى السرير فى حركة رشيقة مرعوبة قبل أن يجذبنى اللص من قدمى ..!

وحكاية أخرى سمعتها من والدتى عن ست الحسن والجمال التى حبسها أبوها السلطان خلف سبعة أبواب حديدية ، خوفاً عليها من الغول. لكن الغول سحر نفسه ذبابة، ونفذ من الأبواب السبعة، ثم انتفض أمامها فعاد غولا بشعاً. لولا أن الشاطر حسن أنقذها فى آخر لحظة من الغول .. ؟ ولكن من يضمن لى مثل هذا الشاطر حسن حتى ينقذنى أنا من الغول الذى يجسمه لى الظلام فى أبشع صورة؟!

وحكاية ثالثة أذكرها جيداً روتها لى عمتى رحمها الله ، عن بائع الموز الذى كان يصحب معه زميله ، وعندما دخلت السيدة لتحضر له ثمن الموز ، غافلها وانزوى داخل الدولاب فى حجرة نومها. وعندما عادت السيدة لتدفع للبائع ثمن الموز ، لم تجد غير زميله ، الذى أخبرها بأن البائع سبقه على السلم. وفى هدوء الليل خرج البائع من الدولاب وذبح السيدة واستولى على مجوهراتها.

تركت هذه الحادثة أثراً عميقاً فى نفسى ، خاصة بعد ما أكدت عمتى أنها حدثت فعلا. وكم من الليالى قضيتها مسهداً وأنا أرقب ضلفتى الدولاب فى رعب ، متوقعاً ، بروز اللص بسكينه الحادة بين لحظة وأخرى. ويزداد هلعى مع المؤثرات الصوتية التى تصدر عن قعقعة خشب الأثاث عندما يتمدد شتاء وينكمش صيفاً. ولم

أكن درست هذه الظاهرة بعد . ولم أكن أتصور أن يحدث الجماد صوتاً إلا بيد إنسان . . أو غول .. !

كان والدى يسخر منى أحياناً ، وحاول أن يقنعنى بتفاهة مخاوف ، وبأن اللصوص لا يقتحمون البيوت . لكننى لم أكن أقتنع بكلامه ، لأنه هو شخصياً لم يكن ينام إلا خلف باب مغلق بالمزلاج . وتحت رأسه مسدس صغير محشو بست رصاصات . وتحت الحشية سكين مرهف ذو حدين كان لا يستعمله إلا فى ذبح الطيور . ولما كنت أسأله لماذا كل هذه التحصينات العسكرية مادام اللصوص لا يقتحمون البيوت ، كان يتعلل بأنه يخشى على أموال الناس ، يعنى بذلك الأكياس الكبيرة المليئة بالعملة الفضية التى سبق أن ذكرتها . ولم أكن أتصور فى طفولتى أنى سأتخلص من عقدة الخوف من الظلام . لكنها ما لبثت أن انجلت تلقائياً عندما اقتنعت فى شبابى المبكر بأن اللص ليست له مصلحة فى إيذائى . وعندما درست علم الأرواح كان يحلو لى أن أجلس فى الظلام الدامس عسى أن تظهر لى روح أنشد الشفاء على يديها . أما الآن فإنى لا أطيق النوم إلا فى مكان معتم .

ومن معالم الخوف عند أبى وحرصه الشديد على احاطتنا بجو من الرقابة الصارمة ، أنه ضحى بسكنه المجانى فى بيت الأسرة ، ولأول مرة فى حياته وحياتنا نتخذ مسكناً بالأجر قريباً من مدرسة العقادين . وكان أبى يقف فى النافذة يرقبنى أنا وأخى الأصغر خطوة

بخطوة حتى ندخل باب المدرسة ، ثم ينتظرنا فى موعد الانصراف حتى نصل إلى البيت . والويل لنا إذا تلكأنا فى الخروج .

والدى يطردنى :

وأذكر أننا — أخى وأنا واثنان من أصدقائنا — اتفقنا على لعب كرة القدم فى مدخل المنزل الذى نسكنه ، وكان عبارة عن ممر طويل عريض تظلله تكعيبة عنب . وبالطبع كان هذا الممر مكشوفاً لوالدى الذى يقف فى نافذة المراقبة . وتعمد يومها ألا يطلب منا أن نصعد إلى الشقة ، حتى يرى إلى أى مدى نتحمل المسئولية ، ونقدر الواجب . وظننا نحن أن سكوته يعنى الموافقة على استمرارنا فى اللعب . وعندما غابت الشمس وبدت الرؤية متعذرة ، أوقفنا المباراة وصعدنا — أخى وأنا — إلى شقتنا . وهناك كانت تنتظرنا مفاجأة غير سارة ، واجهناها لأول وآخر مرة فى حياتنا . فقد رفض والدى أن يفتح لنا باب الشقة ! وظننا أنه يداعبنا أو يتصنع إرهابنا حتى لا ننسى أنفسنا ونتمادى فى اللعب . لكنه للأسف كان جاداً كل الجد . . وأصر على أن نبيت على السلم !

ازداد الظلام ، وبدا الجو رهيباً كئيباً . وبدأت الأشباح تبرز لى من بئر السلم الذى كان ينتهى إلى بدروم مهجور تسكنه الخفافيش ، التى كثيراً ما كانت تخرج إلى فراغ السلم عندما يسوده

الظلام .. وتشجعت فضغطت الجرس . وردت والدتى من الداخل، وكانت فى تلك الليلة القاسية تقوم بدور حمامة السلام . فطلبت منها أن تضىء نور السلم حتى نقوم باستذكار واجباتنا المدرسية ، وكانت حيلة ناجحة ، فبعد مشاورة قصيرة سمح والدى بإضاءة النور لأنه كان يقدس الواجبات الدراسية ويضعها فوق كل شىء .

وفعلا جلس كل منا على درجة من السلم ، ووضع كل منا حقيبته على ركبتيه ، وأنجزنا واجباتنا التحريرية كيفما اتفق ، أما الدروس التى تحتاج إلى حفظ واستيعاب فقد أبت عقولنا المضطربة أن تستجيب لها .

ثم جاء موعد العشاء . لكننا لم نجرؤ على المطالبة به ، خشية أن يكون مدرجاً ضمن برنامج العقاب . فسكتنا على مضض إنقاذاً لكرامتنا . وجلسنا نتدبر مشكلة نومنا على السلم . وقد خيل لنا أن أبى جاد فى تنفيذ وعيده للنهاية . وفجأة انفتح الباب وأخرجوا لنا شطائر محشوة بالجبن ، وهى الأكلة التى كنت أحتج عليها فى بجاحة لو كنت محتفظاً بمركزى داخل الشقة ، أما فى وضعنا ذاك فقد تقبلنا الشطائر مرغمين ، وأكلناها بشراهة بعد أن عضنا الجوع . وسألت أختى الكبرى التى قدمت لنا الطعام عن الجو بالداخل فكانت إجابتها غير مشجعة .. وعاد الباب يغلق من جديد .

ومن حسن الحظ أننا كنا نسكن فى آخر دور من ذلك المنزل المكون من ثلاثة طوابق ، فلم يرنا أحد فى ذاك الوضع المخزى .

وعندما اقتربت الساعة من العاشرة ، وقد بدأنا نفقد الأمل فعلا في حل المشكلة . إذ بباب الشقة يفتح فى سكون ، وتخرج منه والدتى ، وتهمس فى خوف :

— أبوكم نام . . ادخلوا بهدوء إلى حجرتكم حتى لا يشعر بكم . .

تنفسنا الصعداء ، وانتهت الأزمة على خير ، شاكرين للوالدة حنانها ومجازفتها بتكسير الأوامر الديكتاتورية . ولكننى علمت فيما بعد أنها لم تكن متحدية لأوامر الوالد ، بل كانت تقوم بدورها فى تلك التمثيلية الصغيرة البارعة التى قام بها أبى بدور النائم ، حتى لا يبدو أمامنا متراجعاً متخاذلا . وفى الصباح أقنعتنا حمامة السلام بأن نعتذر للوالد ونقبل يده .

كان تقبيل اليد هذا مهمة صعبة تشعرنى بالذل والمهانة رغم أنى كنت أحب والدى ، ولم يكن قاسياً علىّ بالقول أو الضرب فى هذه السن . وكانت أقصى عقوباته لا تزيد عن معركة كلامية تنتهى بطردى من حجرته ، وتصنع الغضب ، ثم تنتهى الأزمة بأن يدفع والدتى لإقناعى بالإعتذار له وتقبيل يده . وكنت أتمنع قليلا ، ثم تجذبنى من يدى ، فأقوم بهذه المهمة الصعبة وعيونى تدمع فى صمت . وأحياناً كنت ألمح دموع التأثر فى عيون أبى .

إننى حتى الآن أنفر جداً من هذه العادة الذميمة المهينة ، وأرفض بشدة أن تحدث أمامى . وعندما ألمح بوادر الخنوع على شخص يصافحنى ، أسارع بجذب يدى قبل أن يقبلها . والعجيب

أن بعض البسطاء يميلون إلى تقبيل يدى استجلاباً للبركة ! لإعتقادهم الساذج بأنى إنسان خال من الذنوب التى غسلها الإيمان والصبر والألم !! وفى مقدمة هؤلاء القوم البسطاء امرأة تدعى « سيدة » احترفت غسل الملابس منذ أكثر من خمسين عاما ، وكانت تغسل لأسرتى قبل أن أخرج إلى عالم الوجود،ورغم أنها أكثر منى صبراً وكفاحاً وإيماناً ، إلا أنها تصر على نيل البركة بتقبيل يدى ، وبما أنها إمرأة ضعيفة هدتها السنون والمحن ، فإنى أستطيع مقاومتها بعضلاتى المتواضعة ، وأسارع بسحب يدى قبل أن تنحنى عليها ، لكنها بسنواتها الثمانين كثيراً ما تتشبث بيدى وتطبع عليها قبلاتها الودود ، ثم ترفع ذراعيها ضارعة إلى الله أن يهبنى الشفاء .

المدرسة الابتدائية

من صور صباى التى لا يمحوها الزمن . هذه الينابيع العملاقة التى أرضعتنى العلم فى مقتبل عمرى . أعنى بهم هؤلاء المدرسين الذين أكن لهم كل تبجيل واحترام . وما زلت أحتفظ لهم فى قلبى بكل حب وامتنان . ويخيل لى أن المدرس الابتدائى أيام طفولتى كان يختلف اختلافاً جوهرياً فى مظهره ومخبره عن مدرسى المرحلة الابتدائية فى الوقت الحاضر . ولعل المسألة نسبية بحت ، فالعملاق بالنسبة لطفولتى ، قد يبدو عادياً بالنسبة لى فى الوقت الحاضر . ولكنى إذا قارنت الصور المختزنة فى ذهنى بما يرويه هذا الجيل ، فإنى أجد فروقاً جوهرية ، من المؤكد أن بعضها يرجع لظروف قهرية وبعضها بحكم التطور الطبيعى الذى يمر به الجيل الحالى .

كان الفصل الدراسى قديماً لا يزيد عن خمسة وعشرين تلميذاً على أكثر تقدير . وكان المدرس يسيطر عليهم ويحكمهم بسهولة ، بل ويفرض عليهم جبروته الغاشم أحياناً . ويخيل لى حينما استعرض هيئة التدريس بمدرسة العقادين فيما بين سنة ١٩٣٦ و ١٩٤٠ أن

أصغرهم سناً لم يكن يقل عن ثلاثين عاماً ، بينما نرى اليوم مدرسين فى حدود العشرين أو أقل ، فإذا عهد لأحدهم بالتدريس لخمسين أو أكثر من سلالة الأرانب ، فإنه قطعاً لن يسيطر عليهم كما يجب ، ورغم الجهود الثورية الجبارة التى تبذلها الدولة فى بناء دور العلم ، فإن طوفان الأرانب سرعان ما يملأ مقاعدها ويطلب المزيد . ولن تحل هذه الأزمة ، مالم يتوقف هذا السباق الخطير بين الأطفال ومقاعد الدراسة ، وكأنهم فى مباراة للعبة الكراسى الموسيقية المعروفة . وخير الأسرة أن تنجب اثنين على مستوى علمى رفيع ، من أن تثقل على الوطن بقطيع من الجهلة وأنصاف المتعلمين ، فيبتلعون أمجادنا ومشروعاتنا الثورية ، كجيش من الجراد يلتهم خيرات البلاد .

كان المدرس قديماً يعرف تلاميذه واحداً واحداً بالإسم ، ويعرف نقط الضعف فيـــه ، ومواطن قوته . وكنت مرموقاً ومعروفاً لدى المدرسين ، لأنى كنت طوال حياتى المدرسية أجلس فى الصف الأول ، وكثيراً ما يكون مقعدى أمام مكتب المدرس مباشرة ، كذلك كنت متفوقاً فى دروسى معتمداً فى ذلك على الإصغاء التام لشرح المدرس ، وتركيز ذهنى فيما يقول ، وكان هذا يوفر علىّ بعضاً من ساعات المذاكرة فى البيت . كذلك كنت احترم المدرس بناء على أوامر مشددة من والدى . كل هذا جعلنى من القلائل البارزين فى الفصل . أما فى فناء المدرسة فكنت تلميذاً عادياً أو

أقل من العادى . لم أكن أبرز فى لعبة معينة ، وإن كنت أشارك طبعاً فى لعب « البلى » و « الاستغماية » التى كانوا يسمونها « صيد الحمام » وكذلك لعبة « الوزير والطرة » ، ولم أكن أجيد الضرب بالطرة «وهى منديل كبير مفتول كالسوط» ، لذلك كان رئيس كل من الفريقين المتنافسين لا يختارنى إلا عندما لا يجد لاعباً ماهراً يكمل به فريقه . كذلك كان الحال فى لعبة صيد الحمام ، فقد كنت لا أجيد الجرى لثقل جسمى الذى كان يميل إلى البدانة . أما اللعبة الوحيدة التى كنت أجيدها فهى «الدبور» ، ذلك الخروط الخشبى الذى ينتهى بمسمار رفيع . وكنا نلف على الدبور خيطاً سميـــكاً طويلاً يسمى « القيطان » ثم نلقيه على الأرض بحركات خاصة تجعله يدور فى طنين مرتفع تطرب له أذن الصبى ، ثم يلتقطه اللاعب من الأرض على كفه ويعود فيلقيه على الأرض أكثر من مرة دون أن يتوقف عن الدوران . لكن لعبة الدبور هذه فردية لم تكن تعوض خذلانى فى الألعاب الجماعية ، ذلك الخذلان الذى كان يشعرنى بالنقص ويحز فى نفسى .

وكان يزيد من إحساسى بالضعف أنى لم أكن أميل للعراك ولا أجيده مما جعلنى فريسة سهلة لكل مشاغب شرير ، وما أبشع الشر فى نفوس الصغار ، إنهم دائماً فى كل زمان ومكان ، يتكتلون حول القوى المفترى ، ويتلذذون بمهاجمة المسالم الضعيف .

كل هذه العوامل القاسية كانت تنال من نفسى الحساسة وتضغط

على أعصابى ، وتدفعنى إلى التفانى فى دراستى ، وبهذا فقط كنت أستعيد كرامتى فى حجرة الدراسة ، وأثبت تفوقى على من خذلونى فى فناء المدرسة .

ولا أذكر أن مدرساً أهاننى أو اعتدى علىّ بالضرب إلا فى النادر القليل ، حتى أنى أستطيع الآن أن أحصى عدد هذه المرات ، وأذكر كيف حدثت ، لأنى كنت شديد الحرص على عدم التحرش بالمدرسين ، حتى لا أتعرض لأية إهانة تنتقص من مكانتى فى المدرسة أو تهدر كرامتى الحساسة .

الديكتاتور الرهيب :

كان يحكم مدرسة العقادين الابتدائية مدرس ضخم الجسم ، رهيب الطلعة ، ذو شخصية جبارة مسيطرة ، اسمه « شاهين أفندى » ولقب أفندى هذا كان يلتصق بكل مدرس عند النطق باسمه . أما عندما يخاطبه التلاميذ ، فهم ينادونه بلقب « بك » ، كانت هذه هى القاعدة أيام صباى . أما لقب « أستاذ » فلم يعرف إلا بعد ثورة يوليه التى حررت الجميع من لقب « بك » المترفع ، ولقب « أفندى » التركى . واستعملت الكلمة المناسبة فى المكان المناسب .

كان شاهين أفندى يقوم بدور المشرف على المدرسة كلها ، بجانب تدريسه مبادىء العلوم وفلاحة البساتين . وكان لا يتورع عن البطش بأى تلميذ ، بكل قسوة وعنف عند أقل خطأ . فيضربه

بخيزرانته الرفيعة أو بسن المسطرة ، على كفيه بالتتابع السريع ، وويل للتلميذ المسكين إذا تباطأ فى مد يده الملتهبة ، فإنه ينزل على رأسه بضرباته العنيفة ، بعد أن يطيح بطربوشه إلى الأرض فى أول ضربة . أما الخطأ الجسيم فعقوبته المنتظرة ، أن يأمر التلميذ بخلع حذائه ، ويأمر الفراش بمد ساقيه ، ثم ينهال عليهما فى غير رحمة ولا شفقة ، ودون أن ينطق بكلمة أو يختلج له رمش ، ثم ينصرف بهدوء وكأنه كان يشرب كوباً من الماء البارد فى يوم قائظ الحر .

وما زال يعلق بذهنى منظر مثير ، كان يحدث كل صباح ، وكأنه كان يحدث بالأمس القريب . كان من عادتى أن أذهب إلى المدرسة قبل موعد الجرس بوقت طويل ، حتى أستطيع أن أمارس حريتى فى اللعب قبل أن يحضر شاهين أفندى . وبينما فناء المدرسة يضج بمرح الصغار وصخبهم إذ به يغرق فجأة فى صمت عميق . فمن كان يجرى يتسمر فى مكانه وهو يكتم أنفاسه اللاهثة ، والذى يضحك يكتم ضحكته ، والجالس يقفز واقفاً فى مكانه . . وتتجه مئات العيون الصغيرة الخاشعة نحو مدخل المدرسة ، حيث يتقدم شاهين أفندى بهيئته الرهيبة الضخمة ووجهه الأسمر الصارم ، وعصاه التى يتوكأ عليها من قبيل العظمة لا الضعف . وإذا ما اخترق الممشى الطويل واقترب من حجرته الخاصة التى تطل على منتصف الفناء ، راح يرفع يده محيياً فى عظمة ، فترتفع مئات الأيدى الصغيرة المتشنجة على الجباه ،

ولا أدرى لماذا كنت أربط حينذاك بينه وبين يوسف وهبي فى رواياته المرعبة التى كنت أشاهدها مع أسرتى لفرقة رمسيس فى مسرح الليدو بالجيزة .

والويل كل الويل للتلميذ التعس الذى يكون مندمجاً فى اللعب ولا ينتبه إلى قدوم شاهين أفندى ، فتلمحه عين الصقر من بعيد ، ويشير إليه بطرف أصبعه ، فترتفع الأيدى المرتعشة إلى الصدور اللاهثة ، ويتمتم أصحابها فى هلع : « أنا يابيه ؟ . . أنا يابيه ؟ » . وتنتفض أصبع شاهين أفندى محددة الضحية التعسة التى تخرج من بين الصفوف فى استسلام الفأر أمام قط مفترس. وبإشارة أخرى من شاهين أفندى – دون أن يتوقف عن السير أو عن تحية الأسرى ، يتوجه التلميذ إلى باب حجرة شاهين أفندى ، فى انتظار العقوبة الصارمة . وبعد طوابير الصباح ودخول التلاميذ إلى فصولهم ، يتجه شاهين أفندى إلى حجرته ، حيث يكون قد تجمع عند بابها عدد غير قليل من المذنبين . هذا تأخر عن موعد الجرس ، وذاك أثبت التفتيش الصباحى أن أظافره طويلة ، وآخر كان يهمس لزميله أثناء الطابور . . إلى آخر هذه المخالفات التى تعرقل النظام فى نظر شاهين أفندى ، فيستل عصاه ويلهب بها أكف التلاميذ .

وحرصاً على منتهى النظام ، كان شاهين أفندى يعين بعض طلبة السنة الرابعة المرموقين كقادة للطوابير على سنوات الدراسة الأخرى . وكان من نصيبى الفصل الثانى من السنة الثالثة . وقائد الطابور

تبدأ مسئوليته عند انطلاق جرس الطابور صباحاً ومساء . وعليه ان يرتب طابوره حسب الطول ، ويمنع أى همس أو مخالفة أو حركة . وأحياناً يفتش على أظافر وأحذية الطابور . ثم يصحبه فى الصباح إلى حجرة الدراسة فى خطوة منتظمة ، وفى المساء يصحبه إلى بوابة المدرسة . ونظير هذه المسئولية الضخمة أمام شاهين أفندى كان يمنح قائد الطابور سلطة مطلقة فى أن يأمر أى تلميذ بالإنتظار عند باب شاهين أفندى. وكانت أوامر قائد الطابور تنفذ فوراً لأنها تستمد سلطتها من ديكتاتور المدرسة شخصياً . وويل للتلميذ العنيد إذا سوّلت له نفسه أن يعصى قائد الطابور ، فيكفى أن يخطو القائد خطوتين فى اتجاه حجرة شاهين أفندى حتى يرضخ التلميذ المذنب ويتجه ذليلا إلى حجرة الديكتاتور متفادياً مضاعفة العقوبة . ويعلم الله أنى لم أكن أستغل هذه السلطة استغلالا جائراً ، لكننى كنت ألوّح بها فقط للإرهاب والتحذير ، حتى أحفظ النظام ، ولا أقع أنا تحت طائلة العقاب .

وبالطبع — كأى تلميذ — كنت أخشى شاهين أفندى وأتجنبه حتى أنجو بجلدى من بطشه وجبروته . لكنه والحق يقال لم يكن يظلم أو يفترى ، فقط كان مفرطاً فى حزمه، قاسياً فى عقابه . كذلك كان مخلصاً فى عمله ، متفانياً فيه . وبفضله حصلت المدرسة على عدة كؤوس منها كأس ضخم كان يتصدر الصور المدرسية أمام حضرة الناظر مأمون بك إدريس ، ذلك الرجل الطيب الهادىء المسالم ،

الذى ترك السلطة الكاملة لشاهين أفندى فى إدارة المدرسة .

لم أصطدم بشاهين أفندى طوال السنوات الأربع سوى مرتين ، وكانت العقوبة هينة جداً ، لم تزد عن ضربتين من عصاه ، وفى المرتين كان ينفذ العقوبة محرجاً أمام التلاميذ . وقد كانت هاتان الهفوتان مجال تعليقات مرحة من والدى حتى بعد أن تركت المدرسة .

أول عقوبة بدنية :

المرة الأولى رواها شاهين أفندى لوالدى بنفسه فى إحدى زياراته للمدرسة . وكان والدى يعتز بروايتها أمام الناس . فقد تشاجرت يوماً مع أحد التلاميذ ، وضربته لأنه اعتدى على بقول بذىء ، وإذ به ينطلق كالصاروخ إلى باب شاهين أفندى شاكياً . ويكمل شاهين أفندى القصة لوالدى فيقول : « إستدعيت إبنك وأنا أعرف أنه ولد هادىء، لكنى كنت مضطراً إلى تحقيق شكوى التلميذ الآخر تدعيماً للنظام والحق ، وسألت إبنك السؤال التقليدى « هل ضربت زميلك ؟ » وكنت أتوقع منه الرد بالنفى لأنى لم أتعود منه المشاكسة ، أو على الأقل خوفاً من العقاب كما هى العادة مع معظم التلاميذ . وإذ بى أفاجأ بابنك يعترف بأنه ضرب زميله لأنه تحرش به . وهنا لم يسعنى إلا أن أضرب الإثنين . وأقسم لك ياسيد عزيز « وهذا اسم والدى » أنى كنت أتمنى أن يكذب ابنك حتى أعفيه من العقاب ، فأنا أرجح أنه مااعتدى على زميله إلا مضطراً . »

يبدو أن هذه الحادثة العفوية ، وترديد أبى لها بإعجاب ، قد حفزنى إلى التمسك بالصدق حتى الآن ، خاصة وأن حساسيتى المرهفة وخجلى الطبيعى المتأصل الموروث عن الوالد ، كل هذه العوامل جعلتنى لا أحتمل مواجهة أحد متلبساً بالكذب . زد على ذلك إقتناعى بعد تجارب الحياة بأن الصدق رأس مال لا يفنى ، تقابله ثقة الناس ، وهى كنز بلا حدود ، فالصادق يسعى الناس إلى معاملته لأنه مضمون الوفاء بالوعد. والصادق لا يجد مشقة فى إقناع من حوله بموقفه السليم ، متفادياً نظرات الشك القائلة التى تحيط بالكذوب حتى ولو صدق. والصادق يؤتمن على السر ، وهو صديق مريح لأنه كتاب مفتوح ليس فيه غموض أو تعقيد .

إننى وإن كنت أقبل أصدقائى على علاتهم ، فإنى أتجنب الكذوب ، فمن يخفى الحقيقة هو فى الواقع يسرقها ، والذى يسرق الحقيقة من السهل عليه أن يسرق أى شىء ، وهذا أسوأ أنواع البشر .

نعود إلى الهفوة الثانية التى استحققت عليها إيذاء شاهين أفندى . والحق أنى كنت الملوم فى هذه المرة أيضاً . كنت يومها فى السنة الرابعة ، وكان شاهين أفندى يدرس لنا مبادىء العلوم والصحة وفلاحة البساتين . وكان قد عقد لنا امتحاناً فى مادته ، وصحح الأوراق . ووضعنا أيدينا على قلوبنا خوفاً من النتيجة ، فإنه لم يكن يقتنع برصـــد الدرجات فى الشهادة ، كما يفعل كل المدرسين ، لكنه كان يحول حصته إلى ميدان لتنفيذ العقوبات .

وفى ذلك اليوم المشهود ، كتمنا أنفاسنا فى انتظار النتيجة ، ودخل شاهين أفندى بهيئته الرهيبة إلى حجرة الدراسة ، ولمحنا خيزرانته بين الأوراق فتوجسنا شراً . وراح يوزع الأوراق فى هدوء وهو يجرش أسنانه .

كانت درجتى سبعة ونصف من عشرة . وظل الصمت مخيماً على رؤوسنا ، وإذا بشاهين أفندى يقول فى حزم وهو يهز خيزرانته فى الهواء :

— من تقل درجته عن خمسة .. يخلع حذاءه .. ويرفع قدميه على القمطر أمامه !...

ترددت همهمات خافتة وسط السكون العميق ، لكن كلمة واحدة أعادت الصمت إلى الشفاه عندما صاح فى حزم : «بسرعة» . وفى لحظات بدأ المشهد الرهيب الذى يعتصر قلبى كلما تذكرته ، فقد أخذ الضحايا المساكين يستسلمون للضربات الحادة فى نحيب مكتوم ، فإن أى صوت أو تردد أو توسل كان معناه مضاعفة العقوبة . وارتفع صوت رفيع ذليل: « هل نخلع الجوارب يا بك ، فقال شاهين أفندى باقتضاب : « لا يهم » ورغم هذا التساهل الكريم فقد فضل بعض التلاميذ الفقراء ، أن يتلقوا الضربات على جلودهم مباشرة لأنهم خجلوا من أن يحتفظوا بجواربهم الممزقة.

وعاد شاهين أفندى إلى السبورة وهو يلهث بعد أن جلد حوالى نصف الفصل . ولعل هذه النتيجة السيئة هى التى أثارته

ودفعته إلى استعمال « المد » على القدمين ، ولم يكن يلجأ إليه بهذه الطريقة الجماعية إلا عند الضرورة .

وعاد شاهين أفندى يقول فى هدوء : « الحاصلون على ست درجات يقفون» . فوقف بعض التلاميذ مبهوتين ، وكانوا قد ظنوا أنهم نجوا من العقاب . ودار شاهين أفندى يوزع عليهم ما تيسر . ولكن على أكفهم . ثم نادى على الحاصلين على سبع درجات ، واتحف كلاً منهم بضربتين فقط . وهنا سقط قلبى تحت القمطر ، وتوقعت أن ينادى على الفئة التالية التى أنتمى إليها . لكنه اكتفى بذلك ، ووضع الخيزرانة على مكتبه ، وارتفع صوته بين النشيج المكتوم : « العلوم التى أدرّسها لكم يجب أن تحفظ عن ظهر قلب .. مفهوم ؟ » . وفى صوت واحد هتف الفصل كله فى نبرات مرتعشة : « مفهوم يابك » .

الواقع أنه كان متمكناً من علمه ، أميناً فى شرحه ، لذلك كان يتوقع أحسن النتائج .. وقد كان له ما أراد . لكنه فوجىء بهذه النتيجة السيئة ففقد صوابه .. وقام بحملته الإرهابيه .

جلس شاهين أفندى يشرح الدرس الجديد ، وكان عن بعض الأمراض والأعضاء التى تصيبها من الجسد ، وراح يلقى بعض الأسئلة ليختبر معلومات التلاميذ فى هذا الموضوع قبل أن يشرح الدرس . ولم يكن التلاميذ ملزمين بالإجابة لأنها معلومات

لم ندرسها بعد . ولكن من يرفع أصبعه متطوعاً بالرد ، يكون مسئولا عن الإجابة الصحيحة .

سأل بعض الأسئلة التى لا أذكرها الآن ، وتلقى إجاباتها بين كلمة تشجيع وضربة جزاء ، وجلست أنا خائفاً من التصدى للرد ، لكنى فى نفس الوقت كنت أشعر بنظراته اللائمة التى يوجهها إلىّ بين حين وآخر ، للدرجة الضعيفة التى حصلت عليها والتى خيبت ظنه فى كفاءتى . وأدركت أنى أستطيع استرداد مكانتى بسرعة إذا ما تصديت لأحد هذه الأسئلة الصعبة . وجاء سؤال خيل لى أنه سهل ، فقد كان يسأل عن مرض السل ، وماذا يصيب من أعضاء الجسم ، وأسرعت برفع أصبعى طالبا الإجابة ، فحدجنى بنظرة قلقة وسألنى :

ــ هلا تعرف الإجابة فعلا ؟

قلت متردداً ، لشكه فى معلوماتى :

ــ نعم أعرفها . . .

ــ متأكد ؟

وفى هذه اللحظة فقط أدركت أنى غير متأكد ، وندمت على تسرعى فى رفع أصبعى ، وعز علىّ أن أتراجع ، فيلذعنى بأحد تعبيراته الساخرة . فاتكلت على الله وقلت بلهجة واثقة لا تنم عن ترددى :

ــ نعم . . متأكد . .

ـــ إذن . . ماذا يصيب السل من أعضاء الجسم ؟

قلت متلعثماً :

ـــ المعدة . .

فقام يجرش أسنانه ، وقد وجد متنفساً يرد به على تقصيرى فى امتحان الفترة . والتهبت كفى بضربتين من خيزرانته ، وهكذا دفعت ثمن تهورى . وعندما عاد يجلس إلى مكتبه ، قال بهدوء :

ـــ الحقيقة أن السل قد يصيب المعدة أو أجزاء أخرى من الجسم كالعظام مثلا . . ولكنه يفضل الرئتين عن سائر الجسم . . وهذه هى الإجابة المطلوبة والمفروض أن تعرفوها . . .

الواقع أن إجابتى كانت عشواء ، ولم يكن علمى قد وصل إلى مثل هذه التفاصيل . ولم أشعر بأنه ظلمنى ، فالمساواة فى الظلم عدل .

* * *

بعد تخرجى من مدرسة العقادين بسنوات طويلة ، تصادف أن قابل والدى شاهين افنـدى فى الطريق مصادفة ، وكانت قصة مرضى قد نشرتها الصحف وعرفها شاهين افندى ، وأبدى تأثره الشديد لمأساة تلميذه النجيب ، فدعاه والدى لزيارتى ، ورحب هو بالفكرة ، ولكنه عاد فأ بدى تردده ، خشية ألا يحتمل رؤيتى فى هذا الوضع المقيد ، بعد ما كنت مثال الفتى المعافى الذى يفيض حيوية وصحة .

كانت صورة خجلى المفرط وانطوائى ما زالت عالقة بذهنه ،

فتصورنى هزيلا مستسلماً لمعنوياتى المحطمة . وهذه الفكرة كثيراً ما تخطر لأناس لم يلتقوا بى وجهاً لوجه ، لكنهم إذا ما تغلبوا على ترددهم واجتازوا عتبة غرفتى ، لا يخرجون منها إلا وقد ازدادوا تفاؤلا وإيماناً بأن الحياة أجمل مما كانوا يتخيلونها .

كم كنت أود أن أقابل شاهين افندى ، بعد أن نَمَت شخصيتى وتخليت عن كثير من عقد الطفولة والصبا ، وفى مقدمتها الخجل والانطواء ، وبعد أن تحررت من سلطانه وجبروته . كم كنت أود أن ألقاه وأنا فى هذه السن بعد أن خبرت الحياة وتعاملت مع الناس من مختلف الطبقات والثقافات . فأتحدث معه حديثاً متحرراً نتبادل فيه النقاش ووجهات النظر ، ولا أكون فيه مجرد مستمع سلبى . أريد أن أناديه بإسمه . . يا أستاذ شاهين . . دون لقب أفندى أو بك ، لا عن انتقاص من قدره لا سمح الله ، فلقب أستاذ أشرف وأفضل من الأفندى والبك ، لكنى فقط أريد أن أتخلص من هذا الشبح الرهيب الذى يجثم على عقلى الباطن ، وكثيراً ما يبزغ فى أحلامى فأقوم من نومى لاهثاً مفزوعاً . وقد يبدو هذا عجيباً لأنى كما ذكرت لم أتعرض لبطش شاهين افندى طوال سنوات أربع سوى لحظات طفيفة ، ولكن هذا لا ينفى أنى عشت هذه الفترة الطويلة وسيفه مسلط على رقبتى ، فبذلت جهداً مضاعفاً مضنياً لأتفادى الوقوع فى أية هفوة تعرضنى لعقاب من لا يرحم . كذلك تأثرى وحساسيتى المفرطة أمام مشاهد التعذيب ، وكبتى

لهذه المشاعر التي زلزلت كياني . . كل هذه العوامل وغيرها مما لا أذكره . . ولا أستطيع تفسيره ، تكاتفت في رسم هذه الصورة الرهيبة التي تطفو على سطح عقلي الباطن أثناء نومي .

أحلام مفزعة :

ليس شاهين افندى هو وحده الذى يقلق منامى ، فإننى أعانى كثيراً من تلك الأحلام المفزعة ، والكوابيس التى تملأ ساعات نومى بالرعب ، ولا أفيق منها إلا إذا أيقظنى أحد . وأحياناً تستيقظ أمى فى حجرتها البعيدة عندما يتسرب إلى سمعها أنينى واستغاثتى المكتومة أثناء الكابوس ، فتبدو اسامعها كأنها صادرة عن مخنوق يلفظ أنفاسه الأخيرة . وهذه الكوابيس تفاجئنى بمعدل مرّة أو مرتين كل شهر ، وهى نسبة مرتفعة بلا شك إذا علمنا أن بعض الناس لم يعرف الكابوس طوال حياته ، بل إنى أعرف أناساً لا يحلمون مطلقاً . . أو على الأصح لا يتذكرون أحلامهم . وفيما عدا الكوابيس فإن نومى كثيراً ما يكون مليئاً بالأحلام المرعبة والصراع والمعارك التى أنتصر فيها أحياناً وأخذل فيها أحياناً أخرى ، فأقوم من نومى لاهث الأنفاس مكتئب المزاج . وأحياناً يزيد انفعالى فيترك فى جسدى تأثيراً فسيولوجياً ، فيرتفع ضغط الدم فى عروقى ، وقد أصحو على صداع شديد يطرق رأسى بعنف .

والمعروف علمياً أن الأحلام عموما عبارة عن أحداث مخزونة أو مكبوتة فى اللاشعور تنتهز غفوة العقل الواعى فتخرج ملغوزة غامضة أو صريحة واضحة . وقد تكون هذه الأحداث مترسبة منذ الطفولة ، أو حدثت قبل النوم مباشرة . والعجيب أن أحلامى معظمها تجسم طفولتى ، أقابل فيها أشخاصاً قدامى ، وأطرق فيها أماكن كنت أعيش فيها خلال طفولتى وصباى . مما يؤكد أن الأحداث والمعارك المرعبة لها صلة وثيقة بطفولتى ، وليست نتيجة صراع حديث . ويؤيد هذه الفكرة أنى لا أرى نفسى راقداً خلال أحلامى الكثيرة . رغم أن فترة ملازمتى الفراش تزيد عن ضعف الفترة التى قضيتها بساقين تتحركان . وإذا رأيت نفسى راقداً فى أحلامى فغالباً ما تحدث معجزة ولو ساذجة أقوم بعدها واقفاً على قدمىّ . وهذا الحلم يتكرر كثيراً ، وهو من قبيل تحقيق الرغبة الذى يسميه علماء النفس Wish fulfillment أو كما يقول المثل الدارج « الجوعان يحلم بسوق العيش » .

أما الكابوس ، فهو لا يحدث إلا فى أعمق درجات النوم ، وأنا بطبيعتى أو بالوراثة ، كما لاحظت فى معظم أفراد أسرتى ، سرعان ما يدهمنى النعاس إذا ما حان موعد نومى سواء فى الليل أو فى منتصف النهار . ولعلى اكتسبت عادة النوم بالنهار منذ أن كانت والدتى ترغمنا على ذلك فى طفولتنا .

وقد يكون ذلك النوم الاضطرارى أحد أسباب كرهى للنوم

ونفوري منه ، ولو أني قد تعودت عليه فعلا وأصبح جزءاً من حياتي . إنني الآن أقاوم النوم وأعتبر أن النائم نصف ميت ، لأنه عاطل عن الإنتاج . وكثيراً ما أتناول الحبوب المنبهة لأقاوم النوم وهذا الموت الجزئي . لكني لا ألجأ إلى هذه الطريقة إلا عندما أكون متخماً بالعمل ، وفي حاجة إلى ساعات أكثر لانجاز متطلبات عملي . ولولا خوفي من مضاعفات هذه الحبوب وأضرارها لداومت على تعاطيها حتى أظل يقظاً لأطول وقت ممكن .

ومن النادر جداً أن أصاب بالأرق ، رغم أني لا أبذل مجهوداً عضلياً يستوجب هذا النوم العميق . وإن كان الإرهاق الذهني كفيلاً بارخاء جفوني بحيث أبذل مجهوداً شاقاً في مقاومة النوم . وقد يكون وضعي الأفقي الدائم وأنا راقد على الفراش ، موحياً بالنعاس . لذلك إذا داهمني النوم أثناء استغراقي في القراءة أو الكتابة ، فإني ألجأ أحياناً إلى تحريك مفاصلي المعتلة فينتج عنها ألم شديد يعيد إليّ يقظتي .. إلى حين .

لكن هذا النوم لا يخلو من أحلام وردية أحياناً ، أقوم منها منتعشاً طروباً ، والنوم أيضاً يذيب غضبي ، ويغسل همومي ومتاعبي . ومن طبيعتي أني إذا شعرت بالضيق أو الغضب سرعان ما يدهمني النوم ، كذلك آكل كثيراً . بعكس معظم الناس فهم يأرقون وتتشنج حلوقهم فلا يبتلعون شيئاً . وقد حرت كثيراً في تفسير هذه الظاهرة ، وبالمقارنة أمكنني أن أستنتج بعض الخصائص لكل من النوعين ،

فالإنسان المتفائل – مثلى – يلجأ تلقائياً إلى التعويض، لأنه لا يستسلم للفشل ، ويحاول أن يعوض أحزانه بالأكل والنوم وهما نوعان من المتعة والراحة . كذلك المتفائل يكون هادىء الأعصاب نسبياً، وبذلك يكون أقل توتراً ساعة الغضب. أما الشخص المتشائم العصبي – مثل أبى – فإنه ينتفض فى تشنج، وتتوتر أعصابه بدرجة تخرجه عن وعيه ، وهذا يحدث فى جسده تغييرات فسيولوجية ترهق أعصابه وتطرد عنه النوم ، وتعطل شهيته .

وإذا كان هدوء أعصابى ييسر لى النوم ، فإن النوم بالتالى يهدهد أعصابى ويزيدها استرخاء ، وهكذا أصبحت أشتهى الأرق حتى يتيح لى أكبر متعة أثناء القراءة فى هدأة الليل وسكونه .

والنوم يحل بعض مشاكلى، التى أظل مندمجاً فيها قبل أن يدهمنى النعاس . وليست مشاكلى دائماً ضارة أو متعبة ، فقد تكون مشكلتى منحصرة فى عقدة قصة جديدة تشغل تفكيرى، وقد تكون مشروعاً جديداً أخطط له فى ذهنى قبل الإقبال على تنفيذه ، وقد تكون مشكلة صديق انفعلت بموقفه العصيب . فإذا ماغلبنى النوم بعد تركيز عميق فيما أفكر. أظل أحياناً أقلب الموضوع فى أحلامى، وأحياناً أصحو فى اليوم التالى وفى رأسى حل للمشكلة ، أو على الأقل تتفتح أمامى ثغرات أوسع للخروج من المأزق الذى كان معقداً بالأمس.

أذكر ذات ليلة أنى كنت أتحدث تليفونياً مع إحدى الصديقات، وتعرض الحديث لأحد شوارع جادن سيتى ، الذى كانت تسكن فيه،

فراحت تصفه فى كثير من التفاصيل. ووجدت صورة هذا الشارع تقفز إلى مخيلتى فى وضوح لأنى كنت أمر به يومياً طيلة ثلاث سنوات فى طريقى إلى مدرسة الإبراهيمية الثانوية . ووجدت نفسى أسألها عن إسم هذا الشارع ، لكنها رفضت بطريقة متشككة ضايقتنى ، ولم أشأ أن ألح فى معرفة اسم الشارع حتى لا أؤكد وهمها ، كما أن الإسم فى حد ذاته لم يكن يعنينى ، لكنى بعد انتهاء الحديث ظللت أفكر مغيظاً فى إسم الشارع الذى مررت به وقرأت لافتته مئات المرات ، ولو أنه كان قد مضى أكثر من خمسة عشر عاماً منذ أن مررت به لآخر مرة . وظللت أعتصر ذهنى حتى أستجمع صورة اللافتة ، فلم أستطع أبداً أن أصل إلى إسم الشارع . ودهمنى النوم، ورأيت فى منامى أنى أسير فى هذه المنطقة ، ورأيت اللافتة وقرأت عليها إسم الشارع . وأحسست — فى منامى — بفرحة الإنتصار، وظللت أردد الإسم حتى لا أنساه . . واستيقظت فى الصباح والإسم مازال فى رأسى . وعندما حدثتنى صديقتى ، فاجأتها باسم الشارع ، فأذهلتها المفاجأة لأنها تعرف أنى لا أغادر منزلى، وظنت أنى بعثت من يتجسس عليها .

هذه صورة من المعلومات التى استحضرها من عقلى الباطن أثناء النوم . وهى ليست غريبة أو معجزة . فعلم النفس يؤكد أن كل ما يمر بالإنسان يظل مختزناً فى اللاشعور ، ومن الممكن استخراجه بعدة طرق فى مقدمتها الأحلام والتنويم المغناطيسى .

وفى كلا الحالتين يكون العقل الواعى مخدراً ، فتتسلل المعلومات من العقل الباطن دون رقيب . وأحياناً تكون ملغوزة غامضة وأحياناً تكون واضحة سهلة مثل الحلم الذى طفا فيه اسم الشارع على سطح مخزن المعلومات ، واستبان للرؤية .

ولما كان الكابوس كما أسلفت يحدث فى درجات النوم العميقة، فإننى عندما أصحو منه ، أظل أقاوم النوم بمنتهى العناء ، وكأنى واقع تحت تأثير مخدر قوى . ولما كانت هذه الحالة التى بين النوم واليقظة هى أنسب اللحظات لإدخال المعلومات والأوامر إلى العقل الباطن عن طريق الإيحاء ، فقد خطر لى أن أمارس الإيحاء الذاتى فى مثل هذه الظروف المهيأة ، فأظل أردد لنفسى الإيحاء المطلوب بطريقة علمية سليمة . وسرعان ما تبتلعنى الغيبوبة ، بعد أن يتسلل الإيحاء المطلوب إلى مخزن اللاشعور ، فى ظروف نفسية مهيأة ، قلما يتاح للمرء أن يوفرها لنفسه متعمداً .

وهكذا يحلو لى أحيانا أن أستغل نقط ضعفى لأخلق منها شيئاً مفيداً ، كما سيتضح فيما بعد .

والعجيب أن يقظتى ليس فيها هذا الصراع والكآبة والغضب والحقد والعناد . حتى فى أحلك أيام حياتى — التى سيجىء ذكرها فيما بعد — لم أكن أنفعل إلى هذه الدرجة العنيفة المدمرة التى تشعرنى بأنى إنسان آخر يختلف كل الإختلاف عن شخصيتى الحقيقية . وإذا صح تعليلى لهذه الظاهرة ، فإنى أرجعها إلى فرط

حساسيتى وخجلى فى مرحلة طفولتى وصباى ، مما كان يوقعنى فى مآزق نفسية تأبى كبريائى أن تستسلم لها أو تقبلها فى يسر وسهولة ، او تعترف بالهزيمة أمامها ولو كانت تافهة ، وبالتالى كانت تكبت فى أعماق اللاشعور .

عقدة الذبح .

ومن عقد الطفولة المترسبة فى أغوار نفسى ولا أستطيع التغلب عليها ، منظر الذبح . فإنى حتى الآن لا أحتمل إطلاقاً أن أرى دجاجة أو عصفوراً يذبح ، فضلا عن الأرنب إذا صرخ أثناء الذبح ، أو البطة عندما تظل شاخصة إلى ذابحها فترة طويلة والدم ينزف من عنقها المقطوع . وليس منظر الدم هو ما يقشعر له جسدى ، فإنى أحتمل رؤية الدم ببساطة إذا نزف من جرح ، وكثيراً ما تطلعت إلى المحقن الكبير ، عندما كان الطبيب يستنزف فيه كمية كبيرة من دماء وريدى بقصد التحاليل الطبية المختلفة . ولكن ما يزعجنى فعلا هو عملية الذبح بقطع الرقبة ، أما القتل بمسدس ، فلا ينال منى إلا كما يحدث لأى إنسان عادى .

ورغم بحثى واستقصائى فى ماضى حياتى ، لم أعثر على سبب أكيد لهذه العقدة . تذكرت أنى شاهدت ذبح خروف فى أحد الأعياد فى طفولتى المبكرة ، وكان الخروف المسكين يرقد فى استسلام منتظراً ازهاق روحه ، واستبشعت ذلك المنظر المؤلم ،

حتى أنى ليلتها عانيت من حلم مزعج فظيع رأيت فيه نفسى راقداً وسط مجموعة من الناس، لعلهم كانوا أهلى . لا أذكر تماماً . . ثم جاء جماعة من الأشرار يحزون رقابنا بمنشار طويل مما يستعمله النجارون . وأذكر تماماً أنى فى الليلة التالية خشيت أن أنام حتى لا أتعرض لتلك العصابة ذات المناشير . وعبثاً حاول والدى أن يقنعانى بالنوم ، فقد ركبنى العناد والرعب ، وظللت أقاوم النوم حتى غلبنى ، ولم أعد أرى هذا الحلم البشع منذ أكثر من ثلاثة وثلاثين عاماً . لكننى لم أنس تفاصيله حتى الآن . وتتجدد صورته كلما تصادف ورأيت شيئاً يذكرنى بعملية الذبح .

كذلك تذكرت التحقيق الصحفى الذى قرأته فى مجلة آخر ساعة منذ سنوات طويلة ، وكان يشرح بالصور طريقة حكم الإعدام باليمن فى عهد الأئمة المتألهين . وكانت الصور تبين المحكوم عليه بالإعدام وهو يسير بين جلاديه وعلى وجهه ضحكة بلهاء . ثم صورة أخرى فى ساحة الإعدام، وكانت عبارة عن أرض فضاء بها جذوع أشجار جافة ، وأمام إحداها ركع المذنب ووضع رأسه فى استسلام بين فرعين يشكلان زاوية رأسها إلى أسفل . وفى صورة ثالثة يبدو الجلاد الأسود العملاق وهو يهوى بسلاح كالبلطة على عنق المذنب فيفصلها تماما . . وفى آخر صورة رأس المذنب معلقة على عصا طويلة !!

وذكرتني هذه الصورة البشعة بتلك المناظر الرهيبة التي كنت أراها في كتب أخواتي البنات عن تاريخ فرنسا ، وكنت طفلا حينذاك بينما كانت اختاي تدرسان في إحدى مدارس الراهبات الفرنسية . وكان يدفعني الفضول إلى تصفح تلك الكتب المليئة بصور القلاع والحصون والرؤوس ذات اللحى التي تتدلى من الحصون معلقة من شعورها في الحبال !!

لا أدري كيف كانوا يسمحون الأطفال بمثل هذه الكتب ؟ كذلك كتاب القراءة الرشيدة الذي ذكرته من قبل والذي حاول فيه مؤلفه الساذج أن يثبت لي وفاء الكلب فأرعبني ببشاعة اللص ذي السكين الرهيب . ولعل حساسيتي المفرطة هي التي جسمت لي تلك البشاعة التي قد يجد فيها غيري شيئاً من التسلية .

ورغم إدراكي لهذه المؤثرات والدوافع التي صادفتها في طفولتي فمازلت أعاني من هذه العقدة ، ومعنى هذا أن هناك أسباباً أخرى لم أتذكرها بعد ، لأن علماء النفس يؤكدون أن العقدة تزول بمجرد أن يتذكر صاحبها أسبابها ، ولكنها لحسن الحظ من العقد التي يمكن تلافيها بسهولة وتأثري بها وقتي لا يلبث أن يزول . وهي لا تجعلني أخاف من العمليات الجراحية مثلا سواء التي أجريت لي كما سيجيء فيما بعد ، أو التي تجري لغيري ، بل إني من هواة مشاهدة البرنامج التلفزيوني المفيد ، الذي يسمى « حياتك بين أيديهم » وهو برنامج علمي يعرض العمليات الجراحية الكبرى، التي يجريها

كبار الجراحين المصريين ، وأحرص أشد الحرص على ألا تفوتني منه حلقة ، استجابة لنهمي إلى المعرفة أياً كانت مادتها . . حلقة واحدة فقط أزعجتني في بدايتها ، وهي عملية استئصال الغدة الدرقية ، وفيها حز الجراح رقبة المريض كأنه يذبحه !

عقدة الضرب :

ومن عقد طفولتي أيضاً التي مازالت تلازمني ، وتطحن أعصابي بشدة ، عقدة الضرب . . رغم أني لم أتعرض للضرب في طفولتي إلا في النادر القليل جداً ، سواء في البيت أو المدرسة . وكانت عصا شاهين أفندي أقصى ما تعرضت له من إيذاء . وفي محيط الأسرة لم يحدث أن ضربني جدي أو عمي أو خالي ، فإن والدي لم يكن يسمح لأحد قط بأن يعتدي على أبنائه . ووالدي نفسه لم يضربني سوى مرة واحدة فقط طول حياتي . أما والدتي فكانت تلجأ أحياناً إلى التفاهم بكفها الغليظة تلهب بها ظهور أيدينا ، أو تقعدها بدانتها عن اللحاق بنا ، فتقذفنا بأي شيء في متناول يدها . لكنها لم تكن تتمادى إلى أكثر من ذلك ، لأنها كانت تخشى أبي الذي لم يكن يؤمن بجدوى العقوبات البدنية كأسلوب في التربية . بعكس عمي الذي كان يقسو في ضرب أبنائه بطريقة يقشعر منها بدني . كان إذا رسب أحدهم يربطه بالحبل ، وينهال عليه بخيزرانة

طويلة ، وقد تكوم ابنه عند قدميه مقيداً مسترحماً ، فلا يرحمه .

أذكر يوماً دخلت فيه زوجة عمى منزلنا وهى تلهث باكية ، مستنجدة بأبى كى يسرع لإنقاذ ابنها من بطش أبيه . وعرفنا منها أن عمى استعان بالبواب على تقييد ابنه لأنه لم يستطع أن يقيده وحده . وراح يضربه بعصاه القاسية حتى ألهب جلده ، ثم دفعه بقدمه ليوزع ضرباته على الجانب الآخر . وعندما حاولت زوجته أن تحد من بطشه طردها من البيت ، فجاءت تستنجد بأبى ، وكنا نسكن قريباً منهم . وأسرع أبى يخرج مع الأم الحنون ، التى كانت تخطو على قلبها ، حتى تنقذ فلذتها من قسوة أبيه .

هكذا نشأت وسط تلك الصور القاسية فى محيط الأسرة والمدرسة ، ولم أصطل بنارها ، وشببت أنفر من الضرب والعقوبات البدنية أشد النفور ، وقد يصيبنى شىء من الغثيان إذا رأيت أو سمعت طفلاً يصرخ تحت سياط التعذيب . وأحياناً تترامى إلى سمعى استغاثات طفل من الجيران أو شغالة تخدم عندهم فتغمرنى موجة من الكآبة والكدر .

ومنذ سنوات قليلة كان المرحوم زوج أختى يلجأ من حين لآخر إلى الضرب العنيف كوسيلة للتفاهم مع أولاده ، وهم يسكنون فى الطابق الذى يعلو مسكنى . وكان صوت الصفعة يترامى إلىّ واضحاً مع بكاء الصغار ونشيجهم المكتوم ، فأحس بأنى أنهار إلى حضيض التعاسة ، وأظل فترة طويلة أعانى من الكآبة والضيق .

إنى لا أؤمن إطلاقاً بالضرب كوسيلة للتربية والتهذيب ، مهما كان السبب ، ولست أبالغ بعواطفى إذا رفضت العقوبة البدنية رفضاً باتاً بلا استثناء . ولست أستبشع فيها معاناة الألم ، فإن الألم المجرد فى حد ذاته والصبر على احتماله يصقل الشخصية ويحفز على مواصلة الكفاح مهما صادف الإنسان من صعوبات ، ويربى فى النفس الصلابة وعدم الخنوع أو الخضوع للمتاعب . أما الضرب كعقاب ، ففيه إهدار للكرامة والإنسانية ، وفيه إذلال وقهر وافتراء من شخص قوى على طفل ضعيف لا يقوى على رد الإهانة .

وتحضرنى فى هذا المجال قصة طريفة حدثت لأخى الأصغر عندما كان فى حدود الخامسة عشرة من عمره ، إذ عاد ذات مساء من جولة له على النيل ، وكانت نزهتنا المفضلة أن نعبر كوبرى الملك الصالح ، ثم كوبرى عباس الذى على امتداده ونستريح فى منتزه هناك ، حيث نتناول الذرة المشوى أو الجيلاتى أو المياه الغازية ، ونكر راجعين إلى بيتنا بجوار كوبرى الملك الصالح .

وفى ذلك المساء كان أخى يتنزه بمفرده بعد أن أقعدنى المرض عن مزاملته . ولما عاد من جولته كانت تبدو على هندامه مظاهر معركة واضحة . وطار صواب أبى وسأله عن السبب ، فأجاب أخى بأنها مشاحنة عادية أدت إلى تماسك بالأيدى ، مع بعض الطلبة الذين يتسكعون على كورنيش النيل ، وكان وقتها يحد جزءاً من جزيرة الروضة من الناحية الغربية فقط ، كذلك الجزء المقابل

له فى الجيزة . ورأيت وجه أبى يحتقن بالغضب ، وأمسك به من كتفه وسأله فى حدة :

— وهل ضربتهم كما ضربوك ؟

فأكد له أخى أنه نال حقه منهم . فلم يقتنع والدى رغم الثقة التى عودنا عليها . كان همه كله منحصراً فى التأكد من أن أخى لم يستسلم للاعتداء عليه . ولم يكن يهتم بآثار الضرب الواضحة على إبنه ، بل نهر والدتى عندما أبدت إشفاقها على جرح ابنها وصاح وهو يربت على كتف أخى :

— إنه رجل . . ولا يأبه بمثل هذا الجرح الصغير . . وليس عيباً أن يتلقى الرجل بضع ضربات أثناء معركة يهزم فيها غريمه المعتدى.

وراح يذرع المكان فى غيظ مكبوت ، ثم التفت إلى أخى وقال:

— إسمع يامكرم . . أصدق أنك ضربتهم فعلا . . ولكن لن تبرد نارى حتى أراك بعينى وأنت تضربهم . عندك مانع ؟

فهتف أخى بحماس : « كلا بالطبع » . . .

وعاد والدى يقول :

— غداً سأذهب معك إلى حيث يتسكع هؤلاء الطلبة . . وسوف أنتظرك فى مكان لايرانى فيه أحد . . . وأرقبك من بعيد وأنت تضربهم . . .

وقد كان . . وأذكر أن أخى يومها أظهر بسالة نادرة ، فقد كان ، وما زال جسمه قوياً ، وقد أبرزت الرياضة العنيفة عضلاته

منذ صغره ، وضاعف من قوته وحماسه يومها ، إحساسه بأن والده يرقبه من بعيد ، فعز عليه أن يخذله أو يخيب ظنه .

لم يكن والدى شريراً يحرص على العراك والإنتقام . فلم أره طوال حياتى يضرب أحداً من أبنائه أو الشغالين أو العمال الذين يعملون عنده بصفته مقاولاً معمارياً ، رغم أنه قاسى كثيراً فى طفولته من عصا جدى الذى كان يؤمن بالعقوبات البدنية كوسيلة فعالة فى تربية أبنائه . . !

لقد نشأت أكره الضرب مثل والدى تماماً ، وإن كان الدافع المؤثر فى حياتى على عكس الدافع فى حياة أبى ، لكن النتيجة واحدة . لقد عانى والدى من إهانة الضرب ، فشب ينفر منه ، ونمت نفسى على العزة والإباء ، فأحسست بواجبى الملح فى ألا أعتدى على كرامة إنسان . وليس هناك تناقض بين هاتين الظاهرتين فى نظر علماء النفس ، فإن المؤثر الواحد ، قد يدفع نفسيتين بشريتين إلى طرفى نقيض . . والمعروف أن عقدة مركب النقص مثلا قد تصيب شخصين متطابقين فى الظروف فيستسلم لها أحدهما وينطوى على نفسه ، بينما يلجأ الآخر إلى التعويض فيبرز ويتفوق . وكما أن المؤثر الواحد قد يدفع إلى نتيجتين متناقضتين ، فإن المؤثرين المختلفين قد يدفعان إلى نتيجة واحدة كما أسلفنا .

أسلوبى فى التربية :

وقد يستنكر البعض مبدأى فى تجنب العقوبات البدنية فى تربية أبنائهم ، ويتساءلون : كيف يرهبون أبناءهم ، ويفرضون عليهم الطاعة الواجبة ؟ وفى رأيي أن العلاقة بين الآباء والأبناء يجب أن تكون مبنية على التفاهم والعدل المطلق ، والجزاء والعقاب المادى والمعنوى ، أقصد بالمادى هو مكافأته أو حرمانه من بعض المميزات المادية الكمالية ، وليست الضرورية ، فليس من العدل أو الإنسانية فى شىء أن أحرم إبنى من الطعام مثلا ، أو من مصروفه اليومى ، لأن هذه ضروريات إذا حرم منها يشعر بالمهانة والقهر ، لكن العقاب يكون بحرمانه من لعبة أو رداء إضافى جديد ، أو من نزهة أو سينما أو تليفزيون مثلا .

العقوبة البدنية الوحيدة :

لقد كان أبى كما قلت يتجنب إهانتنا بالضرب طوال حياته ، لكنه فقد أعصابه مرة واحدة ، وضربنى بعصا من الخيزران علقة ساخنة ، كانت الأولى والأخيرة فى حياتى . والواقع أنه كان محقاً فى عقابى حينذاك ، وأنا معترف بأنى أخطأت ، لكنه خطأ لا يوازى مثل تلك العقوبة الرهيبة ، التى لم أكن معتاداً عليها ، لكنه كان ينظر إلى الأمر من زاوية أخرى .. فقد تغيبت عن البيت

حوالى نصف ساعة دون إذن ، وهذه فى عرفه مخالفة خطيرة للدستور الذى استنه لنا ، وهذا ما جعله يخرج هو أيضاً لأول مرة عن طبيعته الرحيمة ، وينقلب إلى أب قاس ينتقم للحظات القلق التى قضاها فى البحث عنى أثناء غيابى .

ومن العجيب أن سبب هذه « العاقبة » كان شغفى العظيم بالدراجات التى كانت تستحوذ على تفكيرى وتشدنى إليها كأنها حديد ممغنط يجذب إبرة عديمة المقاومة . وكانت دراجة لطيف افندى ، محصل شركة سنجر تذيب مقاومتى عندما يحضر صاحبها لتحصيل قسط ماكينة الخياطة ، التى اشترتها والدتى نظير أقساط شهرية لا يزيد الواحد منها على خمسين قرشا . وكان لطيف افندى يترك دراجته فى مدخل البيت — وهو ممشى طويل كما أسلفت — ويصعد لتحصيل القسط . وفى لمح البرق أكون قد قفزت درجات السلم ، حيث أنعم بالدراجة لحظات قصيرة قبل أن ينتزعها صاحبها منى ، ويتركنى فى حسرتى أحسده على تلك الرفاهية! ولم أكن أدرك وقتها - وكنت لم أبلغ العاشرة — أن صاحبها المسكين كان يشقى بها فى شوارع القاهرة .

فى ذلك اليوم المشئوم ، كنت العب الكرة فى مدخل البيت ، حينما حضر « لطيف افندى » بدراجته الفارهة ! وتجرأت فطلبت منه أن يسمح لى بركوبها « لفة » خارج البيت ، فرفض خوفاً علىّ من أخطار الطريق أو خوفاً على وسيلة انتقاله التى كانت عهدة من شركة

سنجر . ولما ألححت وعدنى بأن يمنحنى تلك « اللفة » بعد نزوله من فوق حتى يكون بجانبى ويجنبنى الأخطار .

صدقت كلمته . لكنه — سامحه الله — خيب ظنى ، وابتلع وعده، فآلمنى هذا الفصل السخيف ، وركبنى العناد، وصممت أن يبر بوعده الذى اعتبرته حقاً لى بموجب اتفاق صريح بين رجلين دون أى ضغط أو إرغام . وتشبثت بمؤخر الدراجة فى عناد واصرار ، وكان العناد ضمن عيوب طفولتى . . لكنه كرجل فى مثل حجمى عدة مرات ، استطاع فى سهولة ويسر أن يسحب دراجته إلى الشارع ، وبالطبع سحبنى معها . ولم يأبه لتهديدى بأن « أخرب الدنيا » ، وذلك تعبير أخذته عن والدى الذى كان يردده كثيراً ، ولو أنى لم أكن أعرف بالضبط كيف أنفذ ذلك التهديد .

وبكل برود قفز لطيف افندى إلى دراجته،وراح يبدل ساقيه منطلقاً بها إلى الأمام . وكلما زادت سرعة الدراجة ، أسرعت خطواتى تلحق بها ، ويداى ما زالتا قابضتين على مؤخرها فى استماتة وعناد ، حتى قطعنا مسافة تزيد على المائة متر فى اتجاه كوبرى الملك الصالح القريب من بيتنا ، وبدأ يهدىء سرعته وهو يصعد النصف الأول من الكوبرى متجهاً إلى الجيزة . وكبرت المسألة فى دماغى ، وعز على أن أتراجع بعد هذا العناء كله . ودون أن أجد وقتاً للتفكير ، أسرعت استغل فرصة تهدئة السرعة ، وقفزت على المقعد خلفه ، وقد خيل لى أنى سأرغمه على الأقل أن

يعود بى إلى البيت خوفاً من تأنيب أبى ، لكنه استمر فى بروده دون أى تردد . وما كدنا نصل إلى كوبرى عباس حتى أدركت أن المسألة خرجت من يدى ولا أستطيع أن أعود إلى البيت ماشياً مقهوراً ، وأحسست بحقد شديد على هذا الرجل الذى حنث بوعده ، وورطنى فى هذه الأزمة . وصممت على الانتقام منه . . لكن كيف ؟ . . لم أكن أعرف .

وبينما الهواء البارد يلفحنى على كوبرى عباس ، تجسمت لى بشاعة جريمتى وخروجى من البيت دون إذن ، وتوقعت زوبعة تستقبلنى عند عودتى ، لكن تشاؤمى لم يصل إلى توقع الضرب . . ومن أبى بالذات . ثم راودتنى نوبة من التفاؤل ظننت فيها أنى قد أستطيع أن أعود إلى البيت قبل أن يكتشفوا غيابى عنه . ولكن كيف أعود . . وبسرعة ؟

وفجأة ومض فى ذهنى الجواب ، عندما وصلنا إلى مقر شركة سنجر فى أحد الشوارع المتفرعة من ميدان الجيزة ، وقد بدأ لطيف افندى يرأف بحالى بعد أن رأى امتقاع وجهى . فطمأننى برفق إلى أنه سيعود بى إلى بيتى بمجرد أن يسلم حصيلة يومه إلى خزانة الشركة . وترك الدراجة فى حراستى ، وابتلعه المبنى .

ودون أى تردد ، دفعنى الحقد المكبوت إلى الانتقام ، فأسرعت أقفز إلى الدراجة ، وأعملت فيها ساقى بجنون ، مدفوعاً بعدة أحاسيس . أولاها أن أعود إلى البيت قبل أن يكتشف أبى غيابى ،

وثانيها أن أبتعد عن باب الشركة قبل أن يخرج لطيف افندى ، ويحنث فى وعده مرة أخرى فلا يعيدنى إلى البيت .

كان فى إمكانى أن أصل إلى البيت فى دقائق فأنقذ الموقف أو بعضه، لولا أنى فوجئت برجال الشرطة يمنعون المرور فوق كوبرى عباس ، لأنه كان مفتوحاً لمرور المراكب الشراعية . ووقفت مذهولا أمام تلك المفاجأة السخيفة . وبدأت المشكلة تتجسم أمامى وتبدت لى بشاعة الجرم الذى ارتكبته . ألا تعد هذه سرقة ؟ فأخدر ضميرى بأن أحاول إقناعه بأنى لم أسرق الدراجة بقصد الاستيلاء عليها ، لأن لطيف افندى يعرف جيداً مكان دراجته ، وسيحصل عليها بعد أقل من ساعة يقضيها فى غيظ وقلق .. وهى نفس المدة التى قاسيت فيها بسببه .. والبادى أظلم . لكن هذا التبرير لم يرح ضميرى أبداً .. وفكرت فى أن أعود إلى مركز الشركة وأعيد الدراجة إلى صاحبها ، لكننى خشيت بطشه ، وفضلت أن أسلمها له وأنا فى حماية أبى .

أخيراً انسحبت السلسلة الحديدية ، ورأيت الكوبرى الطويل أمامى كما لم أره من قبل .. خالياً كطريق مهجور كئيب ، وسمعت أبواق السيارات خلفى تتعجل تحركى . فالتفت لأرى قافلة من العربات والسيارات التى حجزها المرور ، وكلها تتحرك نحوى كجيش يستعد للهجوم . وخشيت أن أركب الدراجة من فوق الكرسى المرتفع جداً بالنسبة لقامتى ، حتى لا أسقط تحت عجلات هذا الجيش

الزاحف . وأسرعت أقود الدراجة من تحت « الكادر » ، وهى طريقة غير مريحة ، لكنها تجعلنى قريباً من الأرض فأستطيع أن أتفادى الخطر الذى يطاردنى .

وأخيراً وصلت إلى البيت لاهث الأنفاس . مرعوباً ، مثقل الضمير ، فوجدت أبى بوجهه المحتقن يرتجف من الغضب ، وعيناه الزرقاوان تكادان تخرجان من محجريهما والعصا تهتز فى يده . . وكان درساً قاسياً لا أنساه . . !

عود الى مدرسة العقادين

أعود إلى جو مدرسة العقادين الابتدائية التى قضيت فيها أربع سنوات متواصلة وأحاول أن استعرض مناظرها الراسخة فى ذهنى كأنى لم أتركها إلا بالأمس . كل شبر فيها عزيز على نفسى ، مبانيها العتيقة الفخمة ذات الطابق الواحد ، والتى تؤكد أنها كانت قصراً لأحد الإقطاعيين ، تحده جنوباً حديقة واسعة يانعة ، ومن الشرق الفناء الكبير الذى يبدو أنه اقتطع من الحديقة التى كانت تحف بالقصر من ثلاث جهات ، تنبىء عن ذلك تلك النافورة الرشيقة على الجانب الآخر من الفناء الرملى . أما الواجهة الغربية فكان يحتضنها النيل ، ولا يفصله عن المبنى سوى شاطىء رفيع تنبت فيه الأعشاب المائية التى تنتهى ذؤاباتها بزهرة بيضاء طويلة على هيئة ذيل القط ، إذا ما لفحتها نسمة قوية انفصلت عنها قطع بيضاء

صغيرة كشعيرات من القطن المندوف ، تظل سابحة فى الجو لفرط خفتها ، وتدخل الفصول الغربية الواقعة على النيل ، وكلما اقتربت أحداها من فم تلميذ نفخها بهدوء فتعلو فى جو الفصل ، ثم تتهادى بجوار تلميذ آخر فينفخها أيضاً فى غفلة من المدرس ، وتظل هائمة فى الفصل يتلقفها التلاميذ كالكرة ، فتشغلهم أحياناً عن الدرس ، وتوقظهم أحياناً من الخمول .

وما زلت أذكر شجرة الجميز العجوز الضخمة التى كنت أدور حولها كل يوم حتى كدت أحفظ نتوءاتها . إنها مازالت حتى اليوم رابضة فى مكانها حتى بعد أن عبر كورنيش النيل فوق المدرسة فأزال مبانيها العتيقة التى كانت تقف فى طريق هذا الشريان الحيوى للمواصلات . وأنشأت حكومة الثورة مدرسة ضخمة بدلا منها على الجانب الآخر من شارع الكورنيش . ومن العجيب أن شجرة الجميز تقع أمام الشارع الذى أسكن فيه الآن ، لكننى لا أراها ، وإن ظلت صورتها محفورة فى ذهنى .

أساتذتى الأوائل :

وإذا تركت الجماد والنبات ، وتصفحت بذاكرتى تلك الوجوه المحببة التى عاشرتها وتأثرت بها فى تلك الفترة ، أجد فى مقدمتها ذلك الوجه النحيل الباسم ذا الشعر الأشعث والعيون اللامعة . . صقر أفندى . . مدرس اللغة العربية ، وصاحب الفضل الأول على

قلبي الذى أعيش اليوم من إنتاجه . كان عبقرياً بوهيمياً لا يهتم كثيراً بمظهره ، بل كان الطلبة يتغامزون أحياناً عندما يلمحون طرف بنطلون البيجامة ، يداعب حذاءه من تحت سراويل البذلة، فيخمن بعضهم أنه نسى أن يخلعه ويؤكد بعضهم أنه تعمد إبقاءه تحت سراويل البذلة طلبا لمزيد من الدفء . لكنه رغم هذا المظهر المبعثر كان فناناً أديباً ، يخلص لمهنته ويبذل فيها أكثر مما يتطلبه منه الواجب الروتيني . ففى حصة الإملاء لا يستعين بنماذج من كتاب المطالعة كما يفعل غيره ، بل كان يملى علينا قطعاً أدبية دسمة من تأليفه . وكان يوصينا بحفظها واستظهارها ، حتى نختزن فى رؤوسنا الجوفاء حينذاك رصيداً من الألفاظ والتعبيرات البليغة. وكان يرتجل هذه القطع الأدبية . وقد يسرح قليلا قبل أن ينطق الجملة . وأحياناً يخطر له تعبير جميل ، فيجمع ساقيه تحته متخذاً وضع القرفصاء على الكرسى ، ويهتف فى مرح :

— اسمع يا ولد يا حزمبل هذا التعبير . . سوف يعجبك . . .

ثم يتدفق مترنماً بأعذب الألفاظ والتركيبات . ولقب « حزمبل » هذا (بضم الحاء والزاى والباء وسكون الميم واللام) كان ينعتنى به صقر أفندى . ولم أكن أعرف إلا أنه اسم أحد فقهاء اللغة العربية ، لكنى لا أعلم عن تاريخه شيئاً ، وأحياناً كان يستخفه الفرح بموضوع إنشاء أكتبه ، فيعلق عليه قائلا :

— ما هذا ياشيخ حمزه فتح الله . . ؟ !

وكنت أظن أنه يهزأ بى ، لكن والدى أفهمنى حينذاك أن الشيخ حمزه فتح الله هذا كان مفتشاً عريقاً فى اللغة العربية ، أيام أن كان والدى تلميذاً . وكان الشيخ حمزه فتح الله والعهدة على والدى — يلبس عمامة ضخمة ويزور المدارس ممتطياً حماره ، ولم يكن هذا غريباً فى عهده .

رحم الله صقر افندى — حياً أو ميتاً — فقد كان أول من جعلنى أتذوق اللفظ الرقيق والأسلوب السلس ، وكانت قطعه الرائعة أول ما تفتحت عليه أذنى فى الأدب العربى . وكانت تعبيراته الموسيقية أول ما أرهف قلبى ومنحه الثقة فى أن يخط كلمات يقرأها الناس . فى الواقع أن القطع العشرين التى حفظتها له لم أعد أذكر منها شيئاً كثيراً . . حتى أسلوبه لم يعد يناسب عصرنا ، فقد كان يلتزم فيه السجع والجناس ، ولكن أدبه وتعاليمه كانت بمثابة الأساس المتين الذى بنيت عليه الطوابق الحديثة فيما بعد .

* * *

ويلذ لى أن استرجع من بين صور الماضى وجه حسنى أفندى البدين الأبيض بسترته المفتوحة دائماً ، وصدرته التى تدور مع كرشه الكروى ، الذى يصطدم بدرج مكتبه وهو جالس إليه ، فيضطر إلى سحب بطنه البارز إذا ما أراد أن يفتح الدرج . وفى غفلة من عيون التلاميذ المنهمكين فى الكتابة ، يخرج علبة «النشوق» من جيب صدرته ويضعها بسرعة فى الدرج ، ثم يفتحها فى هدوء

ويغمس فيها اصبعيه ، ويخرج ذرات من النشوق بين إبهامه والسبابة ، ثم يستنشقه وهو مسبل جفنيه فى تلذذ واندماج . والعجيب أنه لم يكن يعطس أو يتأثر بذلك المسحوق الحريف . فقد كان مدمناً عليه . لكنه عندما يخرج منديله ليفرغ محتويات أنفه كنت أتقزز من البقع الداكنة التى تلوث المنديل .

وأذكر أن والدى اشترى ذات مرة كمية من أجود أنواع النشوق ، الذى وصفوه له كعلاج للصداع المزمن القاتل الذى عانى منه قرابة ثلاثين عاما . وكأى مريض مزمن لم ير بأساً من التجربة ، لكن النتيجة كانت عكسية ، إذ أن العطس فجر الآلام فى رأسه بصورة أبشع . وخطر له أن يهدى كمية النشوق لحسنى أفندى ، فوضعها فى أنبوبة اسبرين ، وطلب منى أن أعطيها له فى السر بعيداً عن أعين التلاميذ ، حتى لا أحرجه . ومنعنى خجلى فى أول الأمر من أن أقوم بهذه المهمة ، لكن والدى شجعنى مؤكداً أنه سيرحب بتلك الهدية القيمة . وانتهزت فرصة اندماج زملائى فى الكتابة ، وناولته الأنبوبة فى حركة سريعة ، وكنت اجلس فى المقعد الأول الملاصق لمكتبه . وهمست فى حياء :

— والدى كلفنى بأن أوصل هذه الهدية البسيطة لحضرتك ...

فانفرجت أساريره ، وهو يتطلع إلى الأنبوبة المليئة بمسحوقه المكيف ، وأدرك بخبرته جودة الصنف ، فأخرجته الفرحة عن تحفظه ، وهتف بصوت مسموع :

ـــ هذا نشوق جيد فعلا يا جيار .. من أين جاء به والدك ؟

فشعرت بالحرج ، وارتج عليّ القول ، ولم أعرف بماذا أجيب . وتمتمت بألفاظ غير مفهومة تاهت وسط كلمات الشكر والامتنان التى انطلقت من ثغره الباسم .

وكان حسنى أفندى بروحه المرحة ، يبسّط لنا دروس اللغة الإنجليزية والجغرافيا والتاريخ بأسلوب مشوق مازالت بعض تعبيراته لاصقة فى ذهنى لطرافتها . وكان يدقق كثيراً فى حفظ الكلمات الإنجليزية ، ويصر على استظهارها حرفياً دون تردد كما تحفظ آيات من القرآن الكريم . وفعلا أفادتنى كثيراً هذه الطريقة الحازمة التى كانت تفرضها عصاته القاسية . وظلت ذاكرتى تحتفظ دون عناء بتلك الكلمات المحفورة فى رأسى ، استحضرها على لسانى فى سهولة الألفاظ العربية ، بعكس الكلمات التى حفظتها فى المرحلة الثانوية ، ولم يكن أساتذة اللغة يرغموننا فيها على الحفظ بالطريقة الأزهرية ، فكنت أنتزعها من ذاكرتى كما تنتزع الكماشة المسمار الصدىء من الخشب الزان ، لكننى فيما بعد استطعت أن أخلخل هذه المسامير الصدئة بكثرة القراءة فى الأدب الانجليزى كما سيأتى القول فى حينه . إنى ادين بالفضل لحسنى أفندى الذى زرع فى رأسى البذرة الأولى فى اللغة الإنجليزية ، التى أنبتت بعد سنوات طويلة مترجماً محترفا .

وما زلت أذكر شرحه للحملة الفرنسية فى حصة التاريخ ؛

وكيف كان يرسم الجنود الفرنسيين بأشكال كاريكاتورية مضحكة ويبين كيف هزمهم المصريون وألقوا بهم فى النيل ، وكيف كانت قبعات الفرنسيين وخوذاتهم تسبح على سطح الماء كأنها سلاطين الطرشى ! بمثل هذا التعبير الساخر المرح كانت ترسخ المعلومات فى أذهاننا .

* * *

واستعرض شريط الذكريات فيروز أمامى مدرس الحساب محمد على أفندى ، بقامته الفارعة وأناقته المتناهية ؛ وحذائه الفاخر الذى كان يحرص على تزويده بقطعتين من الحديد ، فتسمع وقع خطواته فى الممر الطويل قبل أن يدخل الفصل . كان مثالا للانسان المهذب الرقيق الذى يحترم نفسه ويحترم تلاميذه . لم أسمعه مطلقاً يسب تلميذاً أو يضربه أو يهينه ، وكان يسوس هؤلاء الشياطين الصغار بإنسانيته المهذبة ، وشخصيته الجذابة ، وصوته الهادىء العميق ، الذى يتنغم به وكأنه نجم عريق يتحرك فوق خشبة المسرح .

* * *

ولعلى لا أثقل عليك يا أخى القارىء إذا ما استرسلت فى استعراض هذه النماذج البشرية المتباينة من أساتذتى الأوائل الذين أثاروا شهيتى إلى المعرفة ويسّروا لى أن أتحسس مواهبى الحقيقية

التى احترفتها فيما بعد أو على الأقل مارستها كهواية محببة تهدهد نفسى عندما ترهقها أعباء الحياة .

ومن تلك الهوايات التى احترفتها فترة من الزمن . . هواية الرسم . وأول من ألقى نظرة إعجاب على ما خططته بيمينى هو فؤاد أفندى . لم يكن فؤاد أفندى مدرساً لمادة الرسم ، بل لم يكن يهوى الرسم على الإطلاق ، لكنه كان يدرس لى الجغرافيا فى السنة الثالثة الإبتدائية . وكان يحفزنا إلى رسم الخرائط ونماذج الأجناس البشرية . . وجه زنجى مثلا ، أو هندى أحمر ، أو يابانى وهكذا . . وكان يمنح كل رسم يعجبه نسخة من مجلة المقتطف . وكان على ما يبدو محتفظاً بمجموعة قديمة منها شاء أن يستغلها فى إغراء التلاميذ وحفزهم إلى دراسة الجغرافيا عن طريق الرسم . وكانت هذه الطريقة مجدية فعلا فى تثبيت تلك المعلومات الجغرافية الجامدة فى رأسى .

وجربت حظى فى الرسم ، فرسمت حوض البحر المتوسط ، وصبغت البحر بلون أزرق ، ووزعت بعض الألوان على اليابسة ، وسلمته الرسم مع من ساهموا فى هذه المباراة الاختيارية . . وفى الحصة التالية ، أعلن أسماء الفائزين ، وحصلت على نسخة من المقتطف . والواقع أنها كانت مجلة دسمة لا تتفق مع مزاج طفل فى العاشرة . لكنها لم تكن تخلو من مواضيع شيقة ، خاصة وأن ثمنها لا يكلفنى مجهوداً يذكر أقضيه فى وقت فراغى . كما أن لذة

الفوز فى حد ذاتها دفعتنى إلى الاستمرار فى رسم الخرائط ووجوه الأجناس البشرية ، حتى اقتنيت مجموعة كبيرة من المقتطف ، هضمت القليل منها ، ولكنى أصبحت أرسم خريطة العالم من الذاكرة .. وما زلت حتى الآن أستطيع أن أرسم الخطوط الخارجية — على الأقل — للقارات الخمس . كما أنى استفدت كثيراً من هذه الميزة فى التعليم الثانوى حيث كنت أكره الجغرافيا ، وكان مستواى فيها دائماً على حافة الهاوية ، وحتى هذه الحافة كنت أتشبث بها بفضل رسم الخرائط الملونة .

بذور هواية الرسم :

كانت وجوه الأجناس على درجة من الإتقان بحيث بعثت الثقة فى قلبى ، وبدأت أرسم وجوهاً عربية خارج مسابقة مدرس الجغرافيا . وكان أول وجه رسمته هو وجه الملك فؤاد الأول ، الذى كان يتربع على العملة الفضية والبرونزية فى وضع جانبى يبدو فيه شاربه المبروم الذى تكاد ذؤابته تطرف عينه ، ولُغده المنتفخ ، وقفاه المكتنز ، والجزء العلوى من بذلة التشريفة ذات الأكتاف المحلاة بما يشبه فرشاة الشعر . وكانت هذه الملامح المميزة تجعل رسمه فى غاية السهولة ، وتمرنت على رسمه من الذاكرة بخطوط سريعة توحى لمن يراها بأنه الملك فؤاد بشحمه وشاربه . وشجعتنى هذه الإجادة على الاستمرار فى هوايتى .

وفى الشهادة الإبتدائية كان امتحان الرسم موضوعه عن الحمام. فرسمت حمامتين متقابلتين ، إحداهما تشرب والأخرى تشرئب برأسها فى خيلاء ، وخطر لى أن أوضح ريش الحمام بالألوان ، وكان معى قلم أحد طرفيه أزرق والآخر أحمر . وسألت المراقب إذا ما كان التلوين مسموحاً به ، فأجاب بالنفى . ورحت أتخيل الحمامتين بريشهما الأزرق وشىء من اللون ، البنفسجى — وهو مزيج من الأحمر والأزرق — على الرقبة، واللون الرصاصى على المنقار، والأحمر على الأرجل. ولم أستطع المقاومة فجازفت بتلوين الرسم، وفى البيت أنبنى أبى على هذا التهور، وخشى أن يعتبر المصحح هذه الألوان كعلامة مميزة تهدر سرية الإمتحان . ولكن الله سلّم ، ولا شك أن المصحح كان فناناً منصفاً ، فلم يشك فى حسن نيتى ومنحنى ١٦ درجة من ٢٠ ، وهى درجة لا بأس بها فى مادة الرسم لأن درجة النجاح فيه ٤ فقط .

أما نقطة الإنطلاق فى هواية الرسم فقد جاءت عفواً ذات يوم ، وعمرى إذ ذاك أحد عشر عاما . كان يسكن فى المنزل المقابل لبيتنا شاب اسمه « كمال المصرى » فى حدود العشرين من عمره ، أسمر طويل — بالنسبة لقامتى إذ ذاك على الأقل — رياضى فنان يهوى الرسم والموسيقى ويتقنهما ، وكان طالباً بمدرسة الفنون الجميلة العليا « قبل أن يطلقوا عليها اسم كلية » . وكان هذا الفنان العملاق يبهرنى بفنه وعضلاته وروحه المرحة وأدبه الجم ، وكنت

أتطلع إليه كمثل أعلى ، متمنياً أن أقلده فى بعض مواهبه الرائعة . وكنت أرقبه من نافذة بيتنا التى تطل على الحديقة الملحقة «بالفيلا» التى يسكنها مع والديه . وكان كثيراً ما يقيم لوحته على حاملها فى ركن من الحديقة ، ويظل مستغرقاً فى الرسم فترات طويلة . ولمست والدتى إعجابى به ، فصحبتنى يوماً فى زيارتها لوالدته ، وطلبت منه أن يطلعنى على لوحاته ورسومه . وفى زهو الأستاذ المتمكن راح يعرض علىّ أعماله الفنية الرائعة شارحاً بعضها ، ومجيباً على أسئلتى التى تحمل من الإعجاب أكثر مما تعنى الاستفسار . ولفتت نظرى صورة رأس قطة بيضاء على خلفية سوداء تبرز شعرها الطويل الناصع . ولاحظت أن عيونها تلمع فى حيوية وإتقان ، ولاحظت أيضاً أن هناك نقطة بيضاء على جانب إنسان العين الداكن . . وكانت هى الموحية بهذا اللمعان الحيوى ، لكنى حرت فى كيفية وضع هذه النقطة البيضاء الضئيلة وسط المساحة السوداء . وسألته إذا ما كان يستعمل قلماً أبيض ، فضحك من سذاجتى ، وأفهمنى أنه أحدث هذه النقطة البيضاء بطرف دبوس ، كشط به جزءاً من المساحة السوداء ، وحرك الورقة فى الضوء فتأكدت من صدق قوله ، فقد كانت النقطة البيضاء باهتة وسط اللون الأسود اللامع . . .

وكان هذا هو أول درس تلقيته فى فن الرسم .

وانتبهت والدتى إلى الحديث ، فقالت لى :

— لماذا لاتحاول أن ترسم هذه الصورة ياصبحى ؟

فابتسم الفنان الرقيق وقال مدافعاً عنى :

— لا يا «تانت» . . هذه الصورة صعبة . . ولاداعى لتعجيزه وهو مازال فى بداية الطريق . . أعتقد أنه يحسن به أن يرسم هذه النخلة ومن خلفها الأهرامات الثلاثة . . .

لم أرتح لتثبيطه همتى ، رغم اعترافى بأستاذيته ، ورحت أتأمل رأس القطة البيضاء ، المرسومة بالفحم الذى أضفى عليها ظلالاً رائعة . كنت حتى ذلك الحين لا أرسم إلا رسوماً تخطيطية بالقلم الرصاص ، أما الظلال والفحم فلم أكن أعرف عنها شيئاً ، وظللت فترة طويلة أعتقد أنه يرسم بقطعة من الفحم الذى نوقده فى المدفأة ، حتى استعملته بعد ذلك بسنوات فى شكل أقلام عادية أو كأغصان نباتية محروقة ومتفحمة .

وخطر لى أن أتحدى عملاقى ومثلى الأعلى ، فطلبت منه أن يعيرنى رسم القطة على أن أعيده إليه فى اليوم التالى ، فضحك مشفقاً من فشلى ، لكنى ألححت ، وشجعتنى والدتى على خوض المغامرة ، فلم يجد صاحب القطة بداً من إعارتى إياها . ولم أنم فى تلك الليلة قبل أن أكمل الرسم ، ولكن بالقلم الرصاص . واستعملت ممحاة «استيكة» رفيعة لأحدد بها شوارب القطة وسط الظلال ، كذلك أبرزت بالممحاة أطراف الشعر النافر فى رأس القطة الرومية . ولم أنس

أن أبعث الحيوية فى عينيها بأن خدشتهما بطرف الدبوس مقلداً الفنان الكبير .

وفى الصباح أجريت فيها بعض اللمسات الأخيرة ، حتى أصبحت طبق الأصل من لوحة جارى الفنان . وأرسلت له الأصل والصورة مع الشغالة ، وربضت خلف النافذة لأسعد برؤية الدهشة مرتسمة على ملامحه السمراء . وراح ينقل بصره بينهما فى رضا وإعجاب ، ثم وضع الصورتين واحدة فوق الأخرى ، ورفعهما بين عينيه وأشعة الشمس ، ففهمت أنه يشك فى أنى نقلت صورته بورقة شفافة ، لكن لحسن الحظ كانت قطتى أكبر حجماً لأنى لم أتقيد بمراعاة المساحة . وهنا فتحت شيش النافذة التى أربض خلفها . . وتعمدت إحداث صوت يلفت نظره ، فتطلع إلىّ مبتسماً وهو يلوح بيده فى حماس بما معناه . . أحسنت . .

كان تشجيعه لى بعد توفيقى فى رسم هذه اللوحة الصعبة ، أكبر باعث للثقة فى نفسى . . ومن هنا كانت نقطة الانطلاق فى هواية جديدة احترفتها بعد ذلك بثمانى سنوات ، وعن طريقها دخل إلى جيبى أول قرش حصلت عليه بمجهودى الخاص .

* * *

بين المسيحية والإسلام

ومادمنا بصدد تعداد إمكانياتى الفطرية ، والرجوع بالذاكرة إلى منابعها الأصلية ، وإرجاع الفضل إلى أول من أيقظ جذوتها ، فإنى أعترف بأنى مدين للقرآن الكريم بالفضل فى تقويم لغتى العربية نطقاً وأسلوباً ومعنى ، حتى قبل أن تتولانى عبقرية صقر افندى بالصقل والتهذيب . فقد بدأت أحفظ أجزاء من القرآن وأدرس شرحها فى بداية دراستى بالمدارس الإبتدائية .

إن كل من يسمع عنى لأول مرة لا يخطر بباله أنى مسيحى المولد . وكثيرون من أصدقائى المقربين لا يعرفون هذه الحقيقة ، فان عائلات « الجيار » المشهورة فى المنصورة والبحيرة كلها مسلمة . كذلك اسمى مشترك ، فوالدى اسمه « عزيز » وجدى اسمه « أمين » ، واخواتى وأبناؤهن اسماؤهم مشتركة ، وبيتى يخلو تماماً من الصلبان وصور القديسين وتماثيلهم ، لأنى لا أؤمن بتلقى البركات من هذه

الأشياء التى من صنع البشر ، وأفضل أن تكون صلتى بالله مباشرة فى ملكوته اللانهائى ، ولا أحب أن أحصره فى شىء مادى محدود. ولعل فى ثقافتى الإسلامية المبكرة ماجعلنى أعتنق هذا المبدأ المنطقى .

وأنا لا أذكر ديانتى إلا لمن يسألنى عنها سؤالاً مباشراً . وقلما يحدث هذا . فإن مناقشاتى المحايدة فى المسائل الدينية لا توحى بأنى متعصب لدين معين ، ولست أتعمد هذا تنصلا من المسيحية أو متملقاً للاسلام ، فإن الأديان جميعاً مصدرها واحد ، وكلها تحض على الفضيلة وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . ومن الصفاقة وضيق الأفق أن يدّعى متعصب مغرور أن الجنة لا تتسع إلا لمن يشاركه معتقداته الدينية .

وإذا كنت قد نشأت مترفعاً عن التعصب المقيت ، فالفضل فى ذلك يرجع لأبى ، فقد كان رحمه الله متحرر الذهن فى هذه الناحية . ولعل طبيعته الخيرة لم تدع له مجالاً للحقد على الآخرين . وأذكر أنه كان يحب سماع القرآن من الشيخ محمد رفعت ويميز صوته بسهولة من بين المقرئين .

شعرت بأنى منبوذ :

كان أول درس تلقنته على يديه فى هذا المجال ، عندما التحقت بمدرسة العقادين الإبتدائية ، وكانت مدرسة أميرية يدرس فيها

القرآن كمادة ساسية ترصد لها درجات فى شهادات الفترات ، ولم يكن هناك نظام عزل الطلبة المسيحيين فى فصل واحد ليدرس لهم الدين المسيحى كما هو الآن . وهذا من حسن حظى ، لأنى لا أقر مثل هذه الأوضاع التى تخلق بين الطلبة نوعاً من التعصب والحزبية وتثير بينهم الحقد والاضطهاد ، ثم تنمو هذه البراعم على التفرقة الطائفية التى تفت فى عضد المجتمع ، وتضعف من تضامنه لمناهضة الدخيل . وإذا كانت وزارة التربية قد منحت هذا الحق للطلبة المسيحيين عملاً بحرية العقيدة ، فأعتقد — بصفتى مسيحى — أن فى الجمعيات الدينية والكنائس مجالاً واسعاً لتلقين التعاليم الدينية لهم ، بدلاً من عزلهم فى أقلية منبوذة تفصلهم عن إخوانهم فى الوطن الواحد .

كان مدرس الدين الإسلامى فى الماضى يسمح للطلبة المسيحيين بمغادرة حجرة الدراسة إذا شاءوا . وبالطبع كان هؤلاء الصغار يشاؤون دائماً . . على الأقل تفادياً من ارهاق رؤوسهم فى حفظ مادة جديدة وتسميعها . وكانوا فى هذا محسودين من زملائهم المسلمين .

كان حليم أفندى مدرس الدين هو نفسه مدرس اللغة العربية ، وفى بداية أول حصة للدين الإسلامى ، سأل بهدوء وهو يتجول بعينيه بين الأدمغة الصغيرة :

— الأولاد المسيحيون يقفون . . .

فقمت متثاقلاً في خجل، وأنا أحس بنفسي كالغريب وسط الأسرة الواحدة ، وسمعت بعض المقاعد تقرقع من خلفي، فعلمت أن أكثر من واحد على الأقل يشاركوني غربتي . وأخذ حليم أفندي يتفرس في وجوهنا كأنما ليحفظ ملامح هذه الفئة الدخيلة على أسرته . وقال وهو يشير إلى الباب :

— إذا كنتم تريدون أن تقضوا هذه الحصة في فناء المدرسة . فلا مانع .

كانت ألفاظه تحمل معنى الإختيار، لكني أحسست بأنه يطردنا . وكدت أستغل حتى في البقاء بين أقراني ، لكني سمعت الأقدام الصغيرة تتحرك خلفي متجهة خارج الفصل ، وهممت بأن أفتح فمي معلناً إحتجاجي ، فعقد الخجل لساني ، وهتف المدرس يستحثني :

— إذهب يابني مع إخوانك . . حتى نبدأ الدرس . .

خرجت مطأطئاً في حرج، وقدماي تسرعان بي بعيداً عن هذا الوضع الذليل . وبدا لي موقفي كواحد من هؤلاء التعساء الذين يعجز أهلوهم عن دفع المصروفات المدرسية ، فيخرجون مطرودين أمام زملائهم في ذلة ومهانة. ماذا جنى هؤلاء وماذا جنيت أنا حتى نُستأصل من مجتمعنا الصغير كأننا لسنا آدميين ؟

وفي البيت رويت الحكاية لوالدي ، وطلبت منه باكياً أن يعيدني إلى مدرسة الإيمان القبطية، حيث لا أشعر بمثل هذا الوضع المهين . فابتسم والدي ، وقال وهو يربت على كتفي ، مطمئناً إياي

بأنه سيذهب إلى المـــدرسة فى صباح اليوم التالى ليمنع تكرار ذلك الموقف .

وفى المدرسة قابل والدى الناظر ومدرس الدين وطلب منهما أن يسمحا لى بحضور حصص الدين الإسلامى ولو بصفة خاصة ، فطلب منه الناظر أن يكتب إقراراً بذلك، ففعل . ومنذ ذلك الحين ظللت طوال حياتى الدراسية أحضر حصص الدين الإسلامى ، أحفظ القرآن وأتلوه فى خشوع واحترام ، وكان والدى يحثنى على حفظ القرآن ويحذرنى من الخطأ فى تلاوته لأن اللحن فى كتاب الله خطيئة لا تغتفر . بل حاول أن يدفعنى لقراءته مرتلاً ، مقلداً فى ذلك المقرئين فى الإذاعة ، لكنى كنت أخجل من أن أشذ عن بقية الطلبة ، وكلهم كانوا يتلونه كقطعة المحفوظات . وكانت والدتى تحتج أحياناً على تحمس أبى لتحفيظى القرآن ، فكان يذكرها بالمجاهد الكبير مكرم عبيد باشا ، ذلك الخطيب المفوه الذى كان يسحر الجمهور ببلاغته المتدفقة ، وكان الفضل فى طلاقة لسانه يرجع لحفظه القرآن ، وكثيراً ما كان يستشهد بآيات منه فى خطبه الشهيرة.

أقبلت على دراسة هذا الدين الجديد بشغف واهتمام إرضاء لوالدى ، وبدأت ألفت نظر المدرس باجتهادى وحرصى على الإجادة ، فأصبحت مرموقاً بين التلاميذ ، وكان المدرس يستخدمنى كسلاح لإذلال الكسالى ، فعندما يخطىء أحدهم يصيح المدرس قائلا :

— سوف أدع المسيحى يشرح لك تعاليم دينك يا كافر .

وكان عليّ ألا أخيب ظنه أمام هذه التحديات ، وخشيت أن أخذله وهو يستنجد بمعلوماتى أمام التلاميذ ، فكنت أضاعف من جهودى فى حفظ القرآن والأحاديث النبوية ، وأصغى لشرح قصص الأنبياء التى تبهرنى فيها البطولات والمعجزات . وبهذا كنت أحصل دائماً على درجات عالية فى الدين ، وأذكر أنى حصلت على جائزة خاصة فى الدين عبارة عن ثلاث كتب تحوى قصصاً الأطفال محلاة بالرسوم الملونة .

لم تكن إمتحانات الدين تحريرية ، بل كانت تترك لتقدير المدرس فى اختبارات شفوية ، وكان لحماس المدرس أحياناً دخل كبير فى تقدير الدرجة ، ومن هنا كنت أضمن الدرجات العالية ؛ لأن المدرسين كانوا يتحمسون لذلك الطالب المسيحى الصغير الذى يحفظ مختاراً مالا يحفظه بعض المجبرين على دراسة دينهم .

وبما أن مدرس اللغة العربية كان هو نفسه دائماً مدرس الدين ، وبما أنى كنت مرموقاً فى اللغة العربية ، فقد كان هذا عاملاً آخر يحفزنى على الإجادة فى الدين حتى لا أخيب ظن أستاذى . كذلك كانت إجادتى فى الدين تتشفع لى فى حصص اللغة العربية ، وهكذا كانت كلتا المادتين تساند الأخرى وتعضدها ، وبالتالى كنت فارس الميدان لدى مدرسى اللغة العربية طوال سنوات الدراسة الإبتدائية والثانوية . . حليم أفندى فى السنة الأولى الإبتدائية . . وصقر أفندى فى الثانية والثالثة . . وحسن أفندى محمود فى السنة الرابعة ، ثم الأستاذ

المضيى فى السنة الأولى بالثانوى ، ثم الشيخ حسين الشايب فى السنوات الباقية من دراستى الثانوية ، رحم الله الأحياء منهم والأموات، فإن أفضالهم لا تنسى. ولولا عنايتهم ورعايتهم وإخلاصهم فى عملهم لما كنت اليوم أتكسب رزقى من قلمى المتواضع بعد أن أعجزتنى قيود المرض عن ممارسة أى عمل سواه .

كان لهؤلاء الأساتذة — بعد والدى — أكبر الفضل ، فى التسامى بتفكيرى فوق التعصب الأعمى . فبعد أن استوعبت تعاليم الدين الإسلامى وفرائضه ونواهيه، لم أجد فيه ما يتنافى مع خير الإنسان، وبالتالى لم أجد مبرراً لمعارضته ، والتعصب ضده ، بل أنى كثيراً ما أستشهد بآياته الكريمة فى كتابتى أوحديثى العابر . وأجد فى بعض كلماتها موسيقى محببة ومعنى عميق وبلاغة رصينة ، تطرب لها عقليتى الأدبية ، بحكم مهنتى، وبحكم إيمانى بالأخوة الإنسانية فى أوسع صورها.

وفى الإسلام كلمات عميقة تهز وجدانى ولا أجد حرجاً من ترديدها . وكان والدى أيضاً لا يجد غضاضة فى ترديد مثل هذه التعبيرات الإسلامية فى سماحة واقتناع بمعانيها الجليلة . وكثيراً ما سمعته فى مناقشته مع العمال الذين يستخدمهم فى المشروعات التى يقوم بتنفيذها . فيبدأ حديثه متبسطاً بقوله : « صلى على النبى » . وإذا وجه أحدهم إليه هذه الجملة ، أعقبها والدى على الفور : «اللهم صلى على كامل النور» .

وعلى عكس والدى كان خاله شديد التعصب بحكم إفراطه فى

التدين ، لدرجة أنه قضى حياته الطويلة راهباً ، إمعاناً منه فى التقرب إلى الله ! ولا أدرى ما الذى أقنعه بأن الله يكره المتزوجين ؟ ولماذا إذن خلق الناس من ذكر وأنثى ليتكاثروا ويعمروا الأرض؟ وماذا يكون مصير الأرض لو تقرب البشر جميعاً لخالقهم بهذه الطريقة السلبية العقيمة .

كان خال والدى هذا يدعى أمين بك باسيلى . وكان هو عميد الأسرة بعد وفاة جدى ، وقد آلت إليه عمادة الأسرة بحكم سنه ، ومركزه ، وثروته التى كان يلوح بها لأفراد الأسرة معشماً كلاً منهم بالميراث الموعود ، لأنه لم ينجب من يرث أطيانه وأثاث بيته الفاخر . وكان الجميع يدينون له بالطاعة ويخشون غضبه . وهكذا سيطر هذا المتعصب المتكبر على أسرة « الجيار » رغم أنه لا يحمل هذا اللقب .

أذكر أنه طرق باب بيتنا يوماً — وكان لا يزورنا إلا فى أمور خاصة بالعمل ، عندما كان أبى يبنى له « فيللا » فى ضيعته — وتصادف أن سمع صوت الراديو ينبعث إليه من داخل شقتنا يحمل إلى أذنيه آيات من كتاب الله يتلوها الشيخ محمد رفعت . وإذ به ينفجر فى أبى معنفاً لأنه سمح بترديد القرآن فى بيته . ولم يكن أبى يجرؤ على مجادلته احتراماً لشيخوخته — كما يقول — فتظاهر بالإذعان لرغبته ، ووعده بعدم تكرار مثل هذه « الخطيئة » مرة أخرى .

حديث عميد الأسرة :

لم يكن يعجبنى خنوع أفراد الأسرة لهذا الخال العنيد المتعجرف ، الذى زادت الرهبنة والكبت فى عصبيته وتطرفه . وكنت أتمنى أن أقف منه موقف المتحدى ، فأحطم هيبته وأناقشه مناقشة الند للند ، وأفضح تدينه المتزمت الزائف الذى يتنافى مع أبسط مقومات الإنسانية . لكنه لم يكن يتنازل بزيارتى فى حجرتى . ولم أكن بالطبع أزوره فى بيته أو أراه فى الكنيسة كبقية أفراد الأسرة . وطلبت من والدى أن يرجوه ليدخل حجرتى ولو مرة واحدة ، لكن أبى رفض تلبية رغبتى عندما عرف نيتى من المقابلة . ولم أجد وسيلة أنفس بها عن غيظى المكبوت غير أن أسطر له رسالة طويلة لأشرح له رأيى فيه بصراحة ، مع مراعاة الأسلوب المهذب فى مناقشة تصرفاته المجردة ، دون تجريح أو إهانة إحتراماً لشيخوخته ومكانته فى الأسرة .

وفى الرسالة المطولة ، فندت له تصرفاته التى لا تروق لى ، وقارنتها بأقوال صريحة من الإنجيل تثبت بوضوح أنه لا يسلك فى حياته مسلك الذى يطبق تعاليم المسيحية . ذكرته بالآية التى تقول « إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » ، بينما كان هو يجاهد مستميتا فى توسيع رقعة ضيعته واقتناء الرياش الفاخر . وذكرته بتلك القصة الرمزية التى

جاءت فى الإنجيل على لسان الله يوم القيامة إذ يقول للضالين : « . . . ياملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس ، لأنى كنت مريضا ومحبوساً فلم تزورونى » ، فلما اندهش الضالون من قوله سبحانه وتعالى ، فسر لهم قوله بأنهم لم يزوروا المرضى على الأرض ، فقصروا بذلك فى حق الخالق ، وبينت له حكم الله فى ترفعه عن زيارتى وأنا حبيس فى سجن المرض .

وهكذا رحت أقارن بين تصرفاته الدنوية وتعاليم الدين المسيحى التى يتشدق بها ولا يمارسها ، بينما يتعصب لممارسة طقوسها الشكلية من صوم وصلاة وترتيل ورهبنة مما ليست له نصوص ملزمة ، إذ أن مظاهرها تختلف من مذهب لآخر ، ولو أن الكل يدينون بإنجيل واحد .

وبعد أن ألقيت هذا الجبل الجاثم على صدرى ، فى صندوق البريد ، شعرت براحة يشوبها شىء من الرهبة لما تخيلته من رد الفعل على ديكتاتور الأسرة المتعجرف . ولكن ثقتى فى نقدى الموضوعى وألفاظى المنتقاة أعادت الهدوء إلى نفسى القلقة .

وفى اليوم التالى فوجئت بعميد الأسرة يدخل علىّ حجرتى ، بجسده الضخم وملامحه الصارمة وشاربه الأشعث الأبيض ، وحيّانى بحركة سريعة من يده ، دون أن يصافحنى ، وجلس أمامى قائلا بدون مقدمات :

— هل أنت الذى بعثت إلىّ بهذه الرسالة ؟

شعرت بشجاعتى تتبخر مع قطرات العرق التى تفصد بها جبينى، لكننى لم أجد مناصاً من خوض المعركة ، فقلت وأنا أبتلع ريقى فى ارتباك :

— نعم .. أنا ....

فقاطعنى فى لهجة المحقق المحايد :

— وهل أنت مؤمن حقاً بكل ما ذكرت فى هذه الرسالة ؟

قلت وقد استعدت بعض جأشى :

— نعم .. وإلا ما كتبتها ....

وألقيت ببصرى خارج الباب المفتوح عساى أن أجد أحداً يؤازرنى فى هذا المأزق ، لكن أبى لم يكن موجوداً حينذاك ، أما والدتى فلم تجرؤ على مواجهة الغول النفور .. ووجدت نفسى منفرداً معه وحدى .. وجها لوجه . وتطلعت إلى سحنته الجامدة فإذا بها تنفرج شيئاً فشيئا عن بسمة خفيفة أثارت دهشتى ، وأخيراً قال فى شىء من المرارة :

— يا بنى .. الظاهر أنك فهمتنى غلط ...

وتهدج صوته وهو يبرر عدم زيارته لى بأنه كان يخشى أن يزعجنى . كانت لهجته مغالطة تحمل معنى الاعتذار ، فلم أشأ أن أضيق عليه الخناق . ثم راح يبرر لى سلوكه الشاذ ، مفنداً اتهاماتى التى جاءت برسالتى ، وكأنه متهم مرغم على دفع الادعاءات الموجهة ضده . وبدأت أخجل من نفسى لمجرد جلوسه أمامى على كرسى الاعتراف . واستكثرت على هذا الشيخ العملاق الذى

لا يستطيع أبى أن يجلس فى حضرته ، استكثرت عليه أن يشرح لى — أنا ابن العشرين — تفاصيل حياته محاولاً تبرئة نفسه مما نسبته إليه. فتظاهرت بالاقتناع وأخذت أحوّل مجرى الحديث إلى القضايا العامة التى كانت تشغل فكرى حينذاك ، ولم أكن وصلت فيها إلى حل يرضينى . وهنا عاد إليه تعصبه وتزمته وحقده على كل من لا يدين بالمسيحية .وبالمذهب الأرثوذكسى بالذات ، فالبروتستانت والكاثوليك — فى رأيه — كفرة لن يعاينوا ملكوت السموات .

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر ، فهذا نموذج آخر للتعصب الأعمى صادفته فى صباى المبكر ، فى بداية المرحلة الثانوية .كان الهضيبى أفندى يلقى علينا درساً فى الدين الإسلامى ، فقام طالب طويل اللسان وسأله :

— إذا كان المسلمون مصيرهم الجنة . . والكفار مصيرهم جهنم . . فأين سيذهب المسيحيون ؟

أحسست بحرج شديد ، وخشيت أن تجرحنى إجابته ، وتطلعت إليه مبتسماً كمن يستنكر هذا السؤال التافه ، وكأنما أشفق الأستاذ على تلميذه ، من رأيه الصريح فقال بعد تردد :

— . . أما المسيحيون فمصيرهم فى الدهليز الذى بين الجنة والنار . . ! !

وانفجر الطلبة ضاحكين كأنما ألقى نكتة بارعة ، بينما اندفع الدم إلى وجهى فى خجل وإحراج . ولا أدرى من أين واتتنى

الشجاعة حينذاك وأنا المعروف بفرط الحياء ، فقمت فى مكانى قائلا بصوت مسموع :

— وهل جاء نص فى القرآن يؤيد هذا الكلام ؟

فارتج عليه القول ، وهتف ضاحكاً :

— . . هل أغضبك قولى يا جيار ؟ . ومع ذلك فأنت مستثنى من هذه القاعدة لأنك تحفظ القرآن مثلنا ...

جلست وأنا أكظم غيظى من هذه الإجابة التى لم ترضنى . حتى ولو صدق قوله واستثنانى الله من زمرة المسيحيين ، فكيف يهنأ لى عيش فى الجنة ، وأهلى جميعاً فى جهنم أو الدهليز كما أفتى مدرس الدين ؟ . وفى البيت سردت لوالدى هذه المناقشة ، فضحك من سذاجتى ، وأكد لى أن القرآن يعتبر المسيحيين مؤمنين وأسماهم بأهل الكتاب وأوصى بهم المسلمين خيراً .

إنى لأدهش من هؤلاء المثقفين المتعمقين فى الدين ، أمثال خال أبى والأستاذ الهضيبى . . كيف يجمح بهم تعصبهم إلى مثل هذه الأحقاد التى تتنافى مع أبسط قواعد الإنسانية ، برغم أن الكتب السماوية جميعها تحض على التآخى والتسامح والتراحم ، ولم أصادف فى أحدها تحريضاً على مناهضة الأديان الأخرى . وهل يعقل أن الله عز وجل — وهو باعث الأديان جميعاً — يحرض بعض أبنائه على البعض الآخر ؟ وهل يرضيه أن تتطاحن مخلوقاته على القشور بينما الجوهر واحد ؟

هل نسى هؤلاء المتعصبون أن قانون الإيمان يحتم على المسلم أن يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر؟. وهل نسى المتعصبون النصارى قول إنجيلهم : « أحبوا أعداءكم . . باركوا لاعنيكم . . أحسنوا إلى مبغضيكم . . وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم » ؟

فإذا كانت هذه وصايا الكتب المقدسة ، فلماذا يتعصبون ضد إخوان لهم فى الوطن ، تربطهم بهم حياة واحدة ومصالح مشتركة .

* * *

فى إحدى حصص الدين ألقى الشيخ الشايب سؤلاً وجيهاً :

ـــ لماذا فرض الله الصيام على عباده ؟

وراح يشير بأصبعه ، فيوقف طالباً بعد الآخر ليجيبوا على السؤال ، لكنه لم يحظ بالإجابة الشافية . إن السؤال فى الواقع ليست له إجابة محدودة صريحة خاصة بالنسبة لطلبة لم يتعدوا عامهم الخامس عشر . وأخيراً صاح الشيخ الشايب مهللا بجملته المعهودة :

ـــ إذن سأدع أخاكم المسيحى يجيب على هذا السؤال . . .

أسقط فى يدى وأنا أرى ابتسامة التحدى التى يواجه بها الفصل وهو يتجه نحوى فى ثقة ، ويضع يده على كتفى مشجعاً . وكنت قد قلبْتُ السؤال فى رأسى أثناء المحاولات السابقة ، التى فتحت لى مجالات للتفكير ولو أنها نفسها لم تصب كبد الحقيقة .

لا أذكر ما قلته حينذاك بالضبط ، لكنى أذكر تماماً أنى

لخصت إجابتي في ثلاث نقط : إن الله فرض على عباده الصيام ليختبر طاعتهم ، وليحسوا بما يعانى منه الفقير ، وليروّضوا أنفسهم على كبت شهواتهم والتحكم فى إرادتهم .

ويبدو أن هذه الإجابة كانت كافية بالنسبة لطالب فى مثل سنى حينذاك ، إذ أنه ضغط على كتفى فى حنان أبوى وقال بصوته الهادىء الهامس :

— إجلس يا بنى . . الله يفتح عليك . . .

وراح يشرح الموضوع بإفاضة ، ولا أدرى لماذا أحسست لحظتها بأنه أسرع بجلسنى حتى يضعنى فى مستوى إخوانى ويجنبنى النظرات الحاسدة . كم كانت تسعدنى نظرات التقدير التى تومض فى أعين أساتذتى ، فتجعلنى أستميت فى الإحتفاظ بثقتهم .

تجربتى فى صوم رمضان :

ظلت الإجابة على سؤال الصوم عالقة بذهنى سنوات طويلة كمجرد نظرية منطقية معقولة . وكنت أرقب زملائى وجيرانى بعين الاعجاب وهم يتحملون صيام رمضان فى صبر وإيمان وجلد ، وأتساءل فى غيرة : . . هل هؤلاء الأطفال والبنات أقوى منى إرادة وعزيمة ؟ أنا الذى أتحمل آلام المرض وعذاب القيود .. هل تنهار عزيمتى أمام الجوع ؟ . . لقد جربت صيام المسيحيين فى طفولتى وشبابى ، ثم عدلت عنه عندما تأكدلى أنه لا يوجد فى الإنجيل نص صريح يحتم الصيام بالصورة التى يمارسها الاقباط الأرثوذكس ،

بدليل أن المذاهب الأخرى تختلف فى طريقة صيامها ، فمنهم من يحرمون اللحوم فقط ، ومنهم من يصوم صياما انقطاعيا ، ومنهم من لا يصوم إطلاقا. أما أصحاب المذهب الأرثوذكسى الذى أنتمى إليه بالوراثة ، فيصومون عن كل ماهو حى أو خارج من الأحياء، كالبيض واللبن ومشتقاته، ماعدا السمك. ولا أدرى كيف يعتبرون السمك نباتاً أو جماداً ! وبعد تجنب الأحياء ، لهم أن يأكلوا مالذ وطاب من طعام وشراب . وأذكر أنهم كانوا يحكون عن مائدة خال والدى المترهب ، وكيف كانت تزخر بالطعام الفاخر الذى كان يتفنن طباخه الخاص فى إبداعه مستعيضاً عن اللحوم بالسمك والجمبرى والتونة وكل خيرات البحر ، الطازج منها والمحفوظ ، ثم يستعيض بالنباتين عن المسلى فى الفطائر والحلويات ، ثم تجىء الفاكهة الفاخرة لتعوض الصائم المسكين عن وجبته المتواضعة !!

وهكذا قاطعت صيام الطائفة الأرثوذكسية ، ولم أكن فى هذا متحدياً لأحكام الإنجيل ، ولكنى فقط لم أقبل أن تتحكم فى طعامى طقوس من صنع البشر . وناقشت فى هذه المشكلة أساطين المتفقهين فى الدين المسيحى ، فبعضهم كان لا يجد الشجاعة فى مناقشة الموروث، وبعضهم سلم بأن الانجيل لم يفرض صياماً محدداً ولكنه جعل الصيام اختيارياً إذا ما ألم بالإنسان ضيق وكرب . والمقصود بالصيام هو الإنقطاع التام عن الطعام والشراب كما كان يصوم السيد المسيح.

وفى سنة ١٩٥٦ خطرلى أن أجرب الصيام الإنقطاعى من باب

الرياضة الروحية ، ففى رأيى أن الإنسان كلما ترفع عن ماديات الأرض ، ازدادت روحه شفافية وانطلاقا ، وكلما كان عبداً لغرائزه وشهواته اقترب من مرتبة الحيوان . وهذا الرأى ليس نظرية من ابتكارى ، بل هو حقيقة معروفة يؤيدها العلم وتؤكدها الأديان جميعا .

وما دمت مؤمنا بأن رب المسلمين هو رب النصارى هو رب اليهود ، فماذا يضيرنى لو أتقرب إليه بأية وسيلة أقتنع بجدواها ، سواء كانت هذه الوسيلة مقتبسة من دين آخر أو كانت من ابتكارى وبوحى من إحساسى وذاتى . . وصممت على صيام شهر رمضان صياما كاملا حقيقيا بغير ياميش أو كنافة أو نهم فى الإفطار والسحور وما بينهما . حتى لو كنت أردت شيئا من هذه الرفاهية لما وافقت والدتى على توفيرها لى . ولم تكن مواردى تسمح لى حينذاك بفرض رغباتى وطلباتى .

سخرت منى والدتى وأخواتى ، ظنا منهن أنى أتنكر لدين آبائى وأجدادى ، لكنى كنت أنظر للموضوع من زاوية أخرى ، تتيح لى رؤية أكثر إتساعا ووضوحا ، أرى فيها البشر جميعا سواسية ، دون حواجز فاصلة . . كتفا إلى كتف . . كلهم قادمون من نبع واحد ومتجهون إلى مصير واحد ، وكلهم يخاطبون إلها واحداً . . كل بلغته الخاصة . . اللهجات تختلف لكن المضمون واحد ، فماذا يضيرنى لو خاطبت إله الكون بلهجة غير التى ورثتها عن أجدادى؟.

ألأن أهلى لا يفهمونها يصبح حراما علىّ أن أتفوه بها ؟

أما والدى فوقف على الحياد فى أول الأمر ظنا منه أن محاولتى نزوة طارئة لن تلبث أن تفقد حماسها . ثم انضم إلى فريق الساخرين عندما تأكد من تصميمى . وتصادف أن حل عيد القيامة الأقباط خلال شهر رمضان ، وحاولوا أن يغرونى برائحة الشواء على مائدة العيد العامرة بالأطباق الاستثنائية ، لكنى كنت مصمما على إتمام شهر الصيام ، ولم يزدنى إغراؤهم إلا عناداً وإصراراً . . وقد كان.

كسبت المعركة مع نفسى ، ومع أهلى ، ومع التقاليد الموروثة . وفى العام التالى بدأت صيام الشهر من أوله ، لكنى اضطررت إلى التراجع فى منتصفه أمام آلام فظيعة فى المعدة ، اكتشفت فيما بعد أنها كانت قرحة عندما نزفت لأول مرة سنة ١٩٥٨ فى مستشفى الجمهورية . وأنقذت حياتى فيها بمعجزة كما سيأتى فيما بعد . والمعروف أن الجوع يؤذى ذوى المعدة المقروحة . كذلك نصحنى صديق طبيب بأن أعدل عن الصيام حتى لا يزداد ترسيب الحصوات فى كليتىّ لقلة الماء الوارد إليهما . وكنت وما زلت أعانى من ترسيب الحصوات فى الكليتين نتيجة الرقاد المستمر وركود حركة البول ، وهى مضاعفات معروفة تصيب الموعودين بالرقاد فى وضع أفقى لسنوات طويلة .

هكذا هزمنى هذان المرضان المزمنان ، فعدلت عن إتمام رياضتى الروحية وسط تعليقات التشفى والشماتة . لكن روحى

لم تقهر ، ففى تحمل الآلام والقيود رياضة عنيفة أمارسها كل يوم فى رضا وسعادة .

أرى أن زمام القلم قد أفلت منى فى حديثه عن حياتى الروحية رغم حرصى على كبح جماحه فى مثل هذه الموضوعات الحساسة ، لكننى عاهدت قلمى أن يتوخى الصراحة ولو كانت مريرة .

* * *

من مباهج الصِّبا

لم تكن تلك الفترة المبكرة من حياتى جافة قاحلة . فقد كانت تتخللها نفحات مشرقة فى حدود الحريات المقيدة التى كان الوالد يفرضها علينا ، فلا نفلت من أسرها إلا بالجهد والحيلة ،

كان من المحرمات أن نشترك — أنا وأخى — فى أى نشاط مدرسى حتى لا يشغلنا عن الدراسة ، أو يجعل لنا عذراً فى التأخير عن مواعيد الإنصراف من المدرسة . لكنى استطعت أن أكسر تلك القاعدة الصارمة وأنا فى السنة الرابعة الإبتدائية وأقنعته — ولا أذكر كيف حدث هذا — بأن يسمح لنا بالإنضمام إلى فريق الكشافة الذى أنشىء حديثاً فى مدرسة العقادين . وكانت شروط الإنضمام إليه مغرية . فقد تعهدت المدرسة بتزويدنا بكل معدات وملابس الكشافة نظير أربعين قرشاً فقط .

فى ثياب الكشافة :

ارتدينا — أخى وأنا — ملابس الكشافة ، وربطنا حول

رقابنا المنديل المثلث ذا اللونين الأحمر والأخضر ، حيث يحبك من الأمام بجلدة مجدولة رشيقة . ومن تحت المنديل المميز لفرقتنا يبرز « الكوردون » وفى طرفه صفارة توضع فى الجيب الأيمن ، وعلى هذا الجيب الشارة البيضاوية الخضراء منقوش عليها شعار الكشافة على شكل زهرة اللوتس ، ومن الحزام الجلدى العريض تتدلى المطواة ذات الأغراض المتعددة ، ومن الجانب الآخر يتدلى حبل ملفوف حول نفسه فى ربطة أنيقة خاصة ، وفى الساقين ارتفع الجورب الكاكى الطويل ، تبرز من ثنيته العليا شرائط خضراء تميز الفتيان الكشافة عن عامة الشعب ، ومن الكتف تتدلى أشرطة ملونة تميز فريق الأسد عن فريق النمر عن فريق الذئب الخ ..

بهذا الزى المزركش خرجنا إلى الشارع لأول مرة فى طريقنا إلى بيت جدى ، حيث كنا نزوره مساء كل خميس التماسا للدعوات الصالحات ، والمنح الصغيرة التى لا تتعدى العملة البرونزية أو النيكل ، أما زميلاتها الفضية والورقيـــة فلم تكن تظهر إلا فى الأعياد ومواسم الامتحانات .

كان كل منا قد أعد عصا طويلة أسطوانية الشكل استكمالاً لهيئة الكشاف ، ثم زودنا الحزام العريض بخنجر ذى غمد جلدى ، كان ثمنه لا يتعدى بضعة قروش . وكان ذا حد واحد أشبه ما يكون بالسكين ، فشحذت الحد الآخر ، حتى يستحق لقب « خنجر » عن جدارة ، ولو أنى لم استعمله إلا فى تقشير الخيار وتقطيع البرتقال ، حتى

هذا كان يحدث من باب الحذلقة ، كي لا أشعر بأن أسلحتى معطلة.

وفى طريقنا إلى بيت جدى كنا نمشى — أخى وأنا — فى خطوات عسكرية نشيطة إحتراما للزى الكاكى . وعندما اعترضنا مزلقان السكة الحديدية المغلق ، وقفنا لحظات متأففين ، ثم التقت عيوننا فى نظرة متفاهمة ، وفى حركات رشيقة تسلقنا السور وتخطينا المزلقان المغلق ، ومن فوق أكتافنا ألقينا نظرة إشفاق على الناس العاديين الذين ينتظرون عبور القطار !

وبما أنى كنت فى السنة النهائية بالمدرسة ، ومن أكبر التلاميذ سنا ، وأنا أخطو إلى العام الثانى عشر من عمرى ، لذلك اختارنى عطوه أفندى — المشرف على فريق الكشافة — رئيسا لفريق الأسد ، وهذا المنصب يتيح لى أن أثبت شريطين أبيضين على جانبى الشارة الخضراء فوق الجيب الأيمن .

ومضى العام دون أى نشاط كشفى ، سوى التأنق برداء الكشافة المزركش ، وربط الحبل فى عقد مختلفة الأشكال ، ثم كلمات حماسية فى مقدمتها الشعار المشهور « كن مستعداً » وعندما سألت المشرف على الفريق عن معنى هذا الشعار ، قال : « معناه أن تكون مستعداً لمساعدة الغير فى أى وقت .. كأن تضمد جريحا .. أو تنقذ غريقا . لكنى للأسف لم أتمكن من ممارسة واجبى فى فريق الكشافة لأنى لا أعرف أصول التمريض ، وليست لى دراية بالسباحة .

السينما والمغامرات :

ومن أبرز مظاهر البهجة فى صباى . . . تلك الشاشة الضخمة التى تتحرك عليها عوالم بأكملها ، كنت أحب السينما بجنون ، لأنها تنطلق بى من عالمى الضيق المحـــدود إلى آفاق سحرية مليئة بالبطولة والمغامرات والمآسى والمهازل والفن والجمال ، فقد كان بيتنا خاليا تماما من أى فن أو جمال . . ليست به لوحة فنية أو « فازة » جميلة ، أو تمثال متقن ، أو لمسة « ديكور » تريح العين . وكانت والدتى هى ملجأنا الوحيد التى نحتمى بها فى ارتياد دور السينما بمعدل مرة كل شهر على الأكثر . أما فى الأعياد ، فكان مصرحا لنا أن نذهب إلى السينما وحدنا ، لأن والدتى تكون مشغولة بإعداد أطعمة العيد الفاخرة بمساعدة أخواتى البنات . فأذهب مع أخى وأبناء عمى وابن عمتى . وكنا حينذاك نختار أفلام المغامرات وطرزان، ونخرج منها مشحونين بطاقات هائلة من الحماس والبطولة ، ونمشى جنبا إلى جنب بعرض الرصيف متحدين أى معترض أو مشاكس . فإذا ما أقبل الترام قفزنا إليه قبل أن يستقر فى المحطة ، مقلدين بذلك أبطال المغامرات. ولما كنت أكبرهم سنا ، فقد سلموا لى بالزعامة، وكنت أرسم لهم الخطط فى مغامراتنا الصبيانية ، مستعينا فى ذلك بأفكار أرسين لوبين الذى كنت أعشق رواياته البوليسية حينذاك ، حتى أصبحوا يسموننى أرسين لوبين ، وكان إبن عمى الأكبر هو

ساعدى الأيمن « هايسلوب » ، أما أخى وابن عمى الأصغر وابن عمتى فكانوا أعضاء عاديين فى التنظيم العيالى . ومن الطريف أن هايسلوب مساعد اللص الشريف أصبح الآن ضابط الشرطة المقدم كمال الجيار . وبالطبع لم تكن عصابتنا تمارس السرقة ، اللهم إلا بضع سجائر من علبة جدتى الطيبة ، على سبيل العلم بالشىء . أما مغامراتنا فكانت لاتزيد عن مناورات عاطفية ساذجة مع بنات الجيران من بعيد لبعيد . ولما كنت مفرطا فى الخجل فقد كنت أكتفى برسم الخطة ، وأترك تنفيذها لابن عمى الذى كان يتصف بالجرأة . وحتى لاتقع أسرارنا فى أيدى الكبار — وكنا كثيراً ما نسخرهم فى توصيل الرسائل بيننا — فقد ابتكرت لغة خاصة أسميتها لغة الجيار ، لأن التخاطب بها كان مقصوراً على ذكور عائلة الجيار . وكنا نكتب بها رسائل كاملة دون أن يفهمها أحد ، فحروفها عبارة عن رموز هندسية مبسطة لاتمت إلى أية لغة بصلة . وظلت هذه اللغة تنقل أسرارنا ، حتى بعد أن التحق أخى بكلية الطب فى الاسكندرية ، حيث كنا نكتب بها بعض الفقرات السرية فى رسائلنا .

الواقع أن أسرارنا كانت تافهة ، لكننا كنا نلجأ إلى هذه الأساليب مقلدين فيها الكبار حتى نشعر أنفسنا بالأهمية . أما مغامراتنا العاطفية فلم تكن تتعدى الاستعراضات المضحكة أثناء لعب الكرة فى الشارع تحت شباك بنات الجيران ، أو نتبارى

فى ركوب الدراجات التى كنا تؤجرها فى الساعة بقرش واحد ، وكنا نفتعل الحركات المسرحية ، فإذا ما سجل أحدنا هدفاً ، أسرع يرفع نظره إلى نوافذ الجيران ليقرأ بسمات التشجيع والإعجاب فى عيون الجنس اللطيف .

الواقع أنى لم أكن موفقا فى كرة القدم ، فقد كنت بطىء الحركة أميل إلى البدانة ، فكنت ألجأ لطرق أخرى مضحكة لتغطية موقفى حتى أكسب قلب جولييت ، فمرة أرسلت إليها قلبا من الجبس عليه الحروف الأولى من إسمى وإسمها ، ومرة كتبت لها كلمة « أحبك » بقطعة من الشمع على ورقة بيضاء ، ولما أبدت دهشتها للرسول ، وهى تقلب الورقة الفارغة بين يديها طلب منها أن تمسح على الصفحة البيضاء بقطعة من القطن مبللة بالحبر ، ففعلت ، وإذ بها تقف مبهورة أمام الكلمة الجريئة التى برزت لها وسط بقعة الحبر . ومرة أخرى رسمت لها قلباً يشقه سهم على صفحة بيضاء ، وكان الرسم بماء البصل بحيث لا يظهر للعين ، وطلبت منها عن طريق الرسول أيضا أن تقرب الورقة من النار ، وإذا بماء البصل يحترق ويظهر القلب على الورقة بلون بُنى واضح .

كانت هذه الأفكار البسيطة التى أصادفها فى قراءتى هى كل ما أجرؤ عليه ، فإذا ما تصادف وقابلت إحدى بنات حواء وجها لوجه ، تندفع حمرة الخجل إلى وجنتى ، وأهرب منها مرتبكا متلعثما . وكان هروبى هذا يستهوى بعضهن فيلجأن إلى مطاردتى إمعانا

فى إحراجى . وأذكر شابة رائعة الجمال كانت صديقة لأختىّ الكبيرتين ، وكانت تتعمد أن تتشبث بى وتقبلنى ، فيكاد يغمى علىّ من فرط الحياء ، وبحركة عصبية أظل أدعك مكان القبلة كأنما لأمحو أثرها . ولم يكن تصرفى بالطبع زهداً فى القبلة ، فقد كان يحلو لى أن أراقب هذه الحسناء من النافذة التى تطل على شرفة بيتها . فإذا ما لمحتنى ولوحت لى بالتحية ، سرعان ما تبتلعنى النافذة وأغطس من أمامها . ثم أنفس عن إعجابى المكبوت فى رسالة باللغة السرية أبعث بها إلى ابن عمى الذى كان يسكن فى الروضة على الضفة الأخرى من النيـــل ، ولا تفصلنى عنه أية مبان أو عقبات . حتى خطر لى ذات يوم أن أمد خطا تليفونيا بينى وبينه ، أسلاكه من الخيوط القطنية وسماعاته من « جرادل الجيلاتى » المصنوعة من الورق المقوى ، ووضعت تفاصيل خطة مضمونة لتنفيذ الفكرة ، لكن والدى استعمل ضدى حق « الفيتو » كالمعتاد ، ودون إبداء الأسباب .

الواقع أنى أدرك الآن أنه كان محقا فى معارضة تلك الفكرة الساذجة ، لكن رفضه دون مناقشة كان يشقينى ، ويشعرنى بالعجز والقهر أمام القوة المستبدة .

* * *

المدرسة الثانوية

عندما حصلت على الشهادة الإبتدائية سنة ١٩٣٩ كانت ميزانية أبى قد بدأت تضطرب ، نظراً لنشوب الحرب العالمية الثانية ، وما صاحبها من كساد فى أعمال المبانى . وراح يتطلع إلى المستقبل بطبيعته المتشائمة ، فيصطدم بالمصروفات المدرسية الباهظة ، وكانت تربو على الواحد والعشرين جنيها فى المدارس الأميرية . ولما كان أخى سيلحق بى فى العام التالى ، فقد بدا المبلغ مرعباً لوالدى فى ذلك الوقت . وأشار عليه أحد المقربين بأن يلحقنا بمدرسة أهلية ، لكنه — كما أسلفت — كان يعتبر مهمة تعليمنا هى رسالته الكبرى فى الحياة. فلم يتردد لحظة فى الحاقى ، وأخى من بعدى بمدرسة الابراهيمية الثانوية بجاردن سيتى . وكانت تعتبر من أرقى المدارس الثانوية لوجودها فى حى ارستقراطى ، تجتذب أبناءه بمبانيها الفاخرة ومستوى طلبتها المرفهين ، الذين يسدون الشارع بسياراتهم الفارهة. لكنها لم تكن تخلو من الطبقات الشعبية التى كانت تفد إليها

من احياء السيدة زينب والبغالة والمنيرة والمنيل وفم الخليج . وكان من المظاهر الواضحة تـكتل أبناء كل طبقة على حدة ، أبناء الطبقة المرفهة يأنفون من الاختلاط بالمستويات الشعبية ، وهؤلاء يتجنبون الفئة المتعالية تفادياً لنظرات الترفع والاستنكار . وبين هذه وتلك كنت أقف مع الأقلية الحائرة التى تمثل الطبقة الوسطى.

بهرنى القصر الفخم الذى كانت تحتله المدرسة ، لاشك أنه كان سكناً لأحد الأمراء قبل أن تبرى أحذية الطلبة أرضيته «الباركيه» ، وتعبث بحوائطه المزخرفة الأقلام الرعناء، فى عبارات مراهقة ماجنة لا تصدر إلا عن فئة مستهترة لم يعلمهم أهلوهم كيف يحافظون على المكان المقدس الذى يحصّلون فيه العلم .وكان المبنى مكوناً من طابقين ، قضيت السنة الأولى فى الطابق الأسفل دون أن أجسر على الصعود إلى الطابق الأعلى حيث فصول السنة الثانية .

وكم كان سرورى عظيماً فى بداية العام التالى وأنا أصعد السلم الخشبى العريض متجهاً إلى الطابق الأعلى،وكأنما كنت أرتقى سلالم المجد . وفى منتصف السلم فوجئت ببعض الطلبة يصعدون نحونا من الاتجاه الآخر . ولدهشتى وجدت نفسى بينهم !! وفى اللحظة التالية اكتشفت أن أمامى مرآة ضخمة جداً ، يتفرع السلم عندها يميناً ويسارا متجهاً إلى السنة الثانية . ومن المخجل أنى لم أعرف تاريخ هذا القصر الرائع الذى عشت فيه ثلاث سنوات ، ولم تطأ قدماى مكاناً أكثر منه هيبة وفخامة . وكيف لى أن أعرف

والنظام المدرسى عندنا يجعل ستاراً صفيقاً بين الطلبة وهيئة التدريس خارج حجرة الدراسة وخارج المقررات الدراسية ؟ أما ناظر المدرسة فلا يطأ الطلبة برجه العاجى إلا المحكوم عليهم بالعقاب الصارم أو الرفت المؤبد .

وبقدر ما بهرنى المبنى الفخم ، فقد صدمنى مستوى التلاميذ من الناحية الأخلاقية . وكنت أتقزز من الألفاظ الوقحة التى تصفع أذنى من كل جانب ، والمناقشات الجنسية المكشوفة التى ينفس بها المراهقون عن كبتهم، والسباب المتبادل على سبيل المزاح يتناولون فيه الأب والأم والأسلاف جميعاً بنعوت تقلق عظامهم فى قبورهم، ولم تكن المدرسة تخلو من «فتوات وبلطجية» يفرضون سلطانهم على فناء المدرسة ، ويتحرشون بالطلبة المسالمين أمثالى ، بالسخرية وتحوير الألفاظ البريئة إلى كلمات بذيئة ، ينفجرون بعدها فى هدير صاخب من الضحك والحركات الداعرة . والعجيب أن هذه الفئة التعسة لم تكن تهرج إلا بين « شلة » من نفس الفصيلة ، تحمى ظهرها وتضحك لفكاهاتها وتصفق لسماجتها .

وكانت هذه الفئة المجردة من الأخلاق ، تختار ضحاياها من الطلبة المهذبين الذين يتمتعون بقسط من الوسامة ، وبكثير من الأدب والحياء ، بحيث لا يستطيعون رد الإساءة بمثلها من البذاءة ، بل قد لا يفهمون التلميحات والشائعات التى تطلقها عصابة المهرجين حولهم فى قسوة لا تتحرج منها ضمائرهم الميتة . وتظل

الإشاعة تتردد بين النفوس الضعيفة حتى تصبح كأنها حقيقة ، ويكاد يصدقها مطلقوها . وكان الضحايا فى فصلى اثنين من أوائل الفصل ، بل كان أحدهما هو الأول فعلاً ، وكانا من عائلات متيسرة يرتديان ثياباً فاخرة ، تضفى عليهما مزيداً من الوسامة . وكانا يتمتعان بكثير من الأدب والبراءة وشىء من الرقة الطفولية مما أطمع فيهما عصابة السوء . وكنت أنا فى السنة الأولى أتعرض أحياناً لمثل هذه السخافات السمجة وتأويل كلماتى البريئة إلى مرادفات وقحة لا أدرك مغزاها إلا من ضحكاتهم وغمزاتهم. وكانت مثل هذه المعاكسات تعذبنى ، وترهق أعصابى ، وكثيراً ما كنت ألجأ إلى من يسمونه « المشرف» ، فإما أن يصرفنى فى ضيق أو يضربنى مع غريمى عندما يختلط ميزان العدالة فى رأسه أمام الادعاءات المتعارضة . فكنت أتمزق من الغيظ أمام هذا الظلم البيّن ، حتى عدلت أخيراً عن الشكوى بعد أن أدركت أنها غير مجدية فى هذا المولد الذى ليس له صاحب . وكنت أتحسر على أيام شاهين أفندى بمدرسة العقادين فى حزمه وصرامته وتدقيقه فى كل صغيرة وكبيرة مما كان لا شك يرهقه كثيراً ، لكنه فى النهاية كان يحكم مجتمعاً نظيفاً وإن كان حكمه قاسياً أحياناً ، لكنها قسوة تهدف إلى ترويض تلك الوحوش الصغيرة .

إننى قد أحتمل آلام المرض ، وقسوة الفقر ، وحسرة الهزيمة ، لكننى أستاء كثيراً من السلوك الإنسانى المنحرف ،

وأمقت الظلم والاعتداء على حقوق الإنسان وكرامته ؛ لذلك قاسيت كثيراً من مجتمع المدرسة الثانوية الذى تطبق فيه شريعة الغاب ، الغلبة فيه الأقوى . وإذا كان مفهوم القوة فى مجتمع مدرسى هو التفوق العلمى ؛ فإن القوة التى كانت تسود بين الطلبة هى قوى الشر ، تؤازرها العضلات الحيوانية .

لم يكن مجتمع الابراهيمية الثانوية فريداً فى نوعه ، بل إنه نسخة متكررة فى كل جيل وكل مدرسة بنين ، خاصة فى المرحلة الثانوية والإعداديه . أما المرحلة الإبتدائية فمن السهل ترويض أطفالها الذين لم تشحنهم الغرائز الجنسية بعد بطاقات مكبوتة ، كذلك المرحلة الجامعية فيها تنفيس برىء يتحقق باختلاط الجنسين . فالاختلاط فى حد ذاته يهذب من سلوك الطرفين لحرص كل منهما على إرضاء الطرف الآخر والظهور أمامه بمظهر مهذب مشرف ، سواء فى الناحية العلمية أو الأخلاقية .

وقد قامت وزارة التربية والتعليم فى جمهوريتنا بإنشاء فصول ثانوية مشتركة فى بعض البلاد النائية ، التى لا يحتمل تعدادها مدرسة خاصة للبنات ، فكانت النتيجة مرضية للغاية ، وجاء فى تقارير المشرفين عليها مايؤيد وجهة نظرى التى ذكرتها .

كرهت المدرسة :

ضاقت نفسى بذلك الجو الخانق ، بل بدأت أكره المدرسة

فعلا ، وشعرت بميل إلى الوحدة والعزوف عن مصاحبة زملائى ، إلا فئة قليلة لم تجرفها دوامة الفساد ، وحتى هؤلاء لم تَرْقَ علاقتى بهم إلى مستوى الصداقة التى كنت أحظى بها فى مدرسة العقادين على نطاق ضيق . وظللت فى مدرسة الإبراهيمية ثلاث سنوات متوالية لم أعرف فيها بيت زميل ، أو زارنى فى بيتى أحد الطلبة ، ولم أصحب أحدهم إلى رحلة أو سينما أو مغامرة ماجنة من تلك التى كانوا يشتركون فى تدبير تكاليفها من ميزانياتهم المتواضعة . ولم يخطر ببالى يوماً أن أصاحب هواة التزويغ ومتسلقى الأسوار الحديدية كاللصوص ، مع فارق بسيط . . فاللص المحترف يسرق غيره ، أما الطالب الذى يهرب من المدرسة فهو يسرق مال أبيه الذى ينفقه فى تعليمه .

وفى السنة الثانية بدأت أتأقلم مع جو الغابة ، ولكن فى سلبية محايدة ، فقد كنت أزن ألفاظى بحذر حتى لا تؤول إلى غير معناها . وتجنبت الشكوى للمشرف حتى لا أثير نزعة الإنتقام فى النفوس الشريرة ، وازداد ميلى إلى الوحدة ، وبدأت أرد بعض الاعتداءات فى اشتباكات فردية حين لا أجد مفراً من خوض المعركة . ورغم قوة جسمى واكتمال صحتى ، فقد كانت تنقصنى الجرأة فى العراك ، فأتخذ موقف المدافع فى اللحظات الأولى من المعركة ، مما يشجع الخصم على الإلتحام بالأذرع . وهنا تنتصر قوتى الغاشمة على حركاته الفنية الجريئة ، فاضغط صدره بين ذراعى

القويتين ، بينما ذقني تحفر في ترقوته كدمة مؤلمة لا يستطيع مقاومتها فيسقط على ظهره ، وأحياناً يتشبث بي فيجذبني فوقه ، فيكون هذا من نحسه ، لأني كنت أميل إلى البدانة . وكانت هذه هي الحركة الوحيدة التي أتقنها في فن المصارعة . أما الملاكمة فكان غريمي غالباً ما تتفوق حركاته الخفيفة وجرأته ، أمام إحجامي وحركتي البطيئة .

وإزاء صراحتي المطلقة في الاعتراف بنقائصي ونقط ضعفي ، فمن حقي أن أحلل نفسيتي في مثل تلك المواقف التي كانت ترهق أعصابي وتضغط على كرامتي، وتترك في نفسي جروحاً غائرة ، مازالت آثارها تؤلمني وتؤثر في تصرفاتي الحالية .

لم يكن إحجامي عن العراك عن جبن أصيل في طباعي نتيجة ضعف بدني ، بالعكس فقد كانت عضلاتي تفوق سني ، وكنت أزهو بصدري العريض المليء بالصحة ، وكانت قوتي البدنية تبدو واضحة في مباريات المصارعة الودية مع أخي وابن عمي ، وهما متقاربان معي في العمر والطول . أما المعارك الحقيقية فكنت أنفر منها لأني لا أميل إلى الشر والعنف بطبعي ، وأخشى أن أصيب غريمي بضربة خاطئة تعرضني للمسئولية والعقاب . كما أني أنفر أشد النفور من عملية الضرب والإيذاء في حد ذاتها كما بينت من قبل ، ولا أميل بطبعي إلى التهور والإندفاع . والدليل على نفوري من الضرب ، أني لم أضرب في حياتي أي إنسان أو حيوان

أضعف منى ، ماعدا حوادث فردية متباعدة كنت أساق إليها مضطراً .

فتاة شريرة :

فى بداية مرضى كانت تعمل بخدمة منزلنا فتاة شريرة ، كانت تستغل عدم قدرتى على الحركة ، فى التنفيس عن كل أحقادها على طبقة « الأسياد » الذين استغلوا سلطانهم فى إذلال آدميتها . . وكانت بالطبع لا تمارس نزعاتهـــا الشريرة معى إلا عندما يتصادف أن يخلو البيت من أفراد عائلتى . وكنت فى بداية المرض عصبياً إلى حد كبير ، ولا أحتمل أن يتأخروا فى تلبية إحتياجاتى ، فقد كان يحز فى نفسى أن تهمل طلباتى التى كنت كفيلاً بأن أقضيها بنفسى دون عناء لولا عجزى عن الحركة . وإذا الملعونة تتعمد أن تنكأ جروحى بإهمال مطالبى لأنها فى مأمن من إنتقامى ، ويزداد شيطان حقدها انطلاقاً فى غياب أهل البيت . وكنت — ومازلت — أحتفظ بعصا طويلة فى متناول يدى ، استخدمها فى حك « هرش » أطرافى التى لا تصل إليها يدى ، ومع الأيام اضطرتنى نذالتها إستخدام هذه « الهراشة » فى التنفيس عن غيظى المكبوت ، فأحتال على اقترابها من سريرى ، وأتحفها بضربة واحدة أودع فيها كل حنقى وغضبى ، لأن الخبطة التالية كانت دائماً تطيح فى الهواء بعد أن تسرع بالإنسحاب من ميدان

المعركة . وأحياناً كانت تسرق العصا وتخفيها ، وعندئذ يوحى إليها إطمئنانها أن تمعن فى مضايقتى ، فألجأ إلى سلاح آخر ، فأتصنع الهدوء وأطلب منها فى براءة أن تناولنى كوباً من الماء ، ولا أنسى أن أوصيها بملء الكوب إلى آخره متظاهراً بالظمأ الشديد ، وعندما يستقر الكوب فى يدى أتحين لحظة استراتيجية مناسبة وأقذف الماء كله فى وجهها البليد ، وهكذا أروى غليلى .

يبدو أن تلك التعسة كانت تستعذب الضرب والإهانة ، فإن أسلحتى لم تكن تردعها . وعندما كنت أشكوها لأخيها يستبشع تصرفاتها ، فينهال عليها بخيزرانته الطويلة فى ضربات قاسية عشواء ، ينتفض بدنى لهزيمها الرهيب ، وأحاول عبثاً أن أوقف تلك المذبحة لكنه لا يتركها حتى تكل يده ، وتنتفض هى بعد تلك الوجبة المؤذية دون أن يبدو على وجهها أى أثر الألم أو الخجل ، بينما جلدها يزدان بخطوط زرقاء تقشعر لها الأبدان .

ورغم أن تلك الفتاة كانت تستعذب الضرب المؤلم فعلا ، لأنها كانت مصابة بنوع من الشذوذ المسمى « ماسوشيزم » لكن مازال ضميرى يخزنى كلما تذكرت إيذائى لها حتى ولو كانت تستحقه .

وطالب شرير :

حادث آخر مازال عالقاً بذاكرتى ، ضيعت فيه فرصة نادرة

لكنى لست نادماً عليها . فقد كان أحد الطلبة المتشردين فى الأبراهيمية الثانوية يطاردنى بسخافاته ونكاته البذيئة ، وكنت أعجز عن مجاراته فى سماجته ، فأتجنب المكان الذى يتواجد فيه . ويبدو أن هدوئى وتجنبى للعنف قد أطمعه فى ضعفى ، فتمادى فى تحرشه بى أمام أقرانه مستعرضاً خفة ظله . وكنت يوماً ألعب « البلى » مع بعض الطلبة ، فإذا بصاحبنا قادم وسط شلة التهريج ، وبكل تظرف وسماجة انحنى على « النيكل » الذى ألعب به ووضعه فى جيبه ببرود . ولما سألته مندهشاً عن سبب تصرفه العدوانى ، راح يتظرف أمام أقرانه وهو منصرف عنى . وكان لا بد أن أمسك به انقاذاً لكرامتى أمام الطلبة . وكأنما عز عليه أن أستهين بقوته وجبروته ، فبدأ يتخذ وضع الملاكم ، واضطررت بالطبع أن أدافع عن نفسى . ولما كان جسمه هزيلا بالنسبة لى ، فقد كان يتجنب الالتحام بى ، وأخذ يطوح بذراعيه وساقيه فى الهواء ، بينما يرفع عقيرته بصيحات يشجع بها نفسه . وساعدنى الحظ فأمسكت بساقه قرب كاحله ، وتشبثت بها ، وإذا به يقفز على ساق واحدة وقد فقد توازنه ، واستند بظهره إلى الحائط الأملس محاولا أن يجد شيئاً يمسك به ، فجحظت عيناه واصفر وجهه عندما أيقن من هزيمته . وبدا منظره المضحك مثيراً للرثاء ، وهو فى هذا الوضع المعلق وكأنه قرد يقوم بعجين الفلاحة ، وبدت ساقه كأنها سلسلة أقوده بها . وأصبح فى إمكانى أن أطرحه أرضاً بسهولة إذا ما جذبت السلسلة . . أقصد ساقه

المعلقة فى يدى . والعجيب أن رفاقه لم يتدخلوا لإنقاذه ، فمثل هذه الفئة تمشى دائماً فى ركاب الظافر . وكان المفروض فى تلك اللحظة أن أثأر لكرامتى وغيظى الدفين المتراكم ، لكن نزعتى اللعينة التى تنفر من العنف والايذاء ، سمرت يدى فى مكانها ، فلم أجذب ساقه . كذلك خشيت أن أطلق سراحه فيستأسد من جديد ، فلم أتركه إلا بعد أن أخرج النيكل من جيبه وناولنى إياه فى ذلة واعتذار صامت . وعندما أفرجت عنه أسرع ينصرف من أمامى وهو يتوعدنى فى صخب ، انقاذاً لكرامته ، لكنه منذ ذلك الحادث أصبح هو الذى يتجنبنى . فقد ظن أنى مصارع خطير .

كان هذا الحادث ، وما تمخض عنه من نتائج مريحة ، كفيلاً بأن أغير سياستى مع هؤلاء الأوغاد ، وأقابل الشر بالشر والبادى أظلم ، لكن طبيعتى المسالمة غلبتنى فلم أكن أخوض المعارك اليدوية إلا إذا اضطررت لذلك ، ومع ذلك ظللت أتجنب الخبطات العشواء التى قد تؤذى غريمى . أما فى المعارك الكلامية فقد تقدمت فيها بشكل ملحوظ ، ولم أعد الفتى الساذج الذى يجدون فيه لقمة سائغه لقفشاتهم البذيئة . فقد اتقنت قاموس البذاءة ، وكنت أجتهد ألا أترك فى حديثى ثغرات تنفذ منها ألسنتهم القذرة ، ولكنى لم أنضم قط إلى منظماتهم التهريجية ، التى كانت عادة تحتل الثلث الأخير من مقاعد الفصل . فقد ظللت — على عهدى — أحتل مقعداً فى الصف الأول دائماً .

حادث سخيف :

وتذكرنى شلة البلطجية هذه بحادث سخيف ذهب ضحيته الفصل كله . فقد خطر فى أذهانهم أن يبتكروا حيلة شيطانية يهزأون بها من هيئة التدريس ، فأتوا بكمية من الشمع وطلوا بها السبورة . وكان ذلك فى إحدى الفسحات القصيرة . ولما عدنا إلى الفصول لم نلحظ شيئاً مريباً . وأمسك المدرس بقطعة الطباشير وراح يكتب بها على السبورة ، فإذا بالطباشير ينزلق على اللوحة السوداء دون أن يترك عليها أثراً ، فدهش المدرس وتناول قطعة أخرى من الطباشير . فتكررت المأساة بين ضحكات الصفوف الخلفية ، فالتفت المدرس وعيناه تقذفان شرراً . وإذا الضجة والضحكات تختنق فى حلوقهم فجأة وكأنما أدار مفتاح المذياع فأخرسه . وطالعته الوجوه البريئة لتزيد غيظه بتصنعها . وعبثاً حاول أن يكشف الجانى وسط هؤلاء الملائكة . ولم تسفر التحقيقات والتهديدات عن شىء ، وأخيراً وصل الأمر إلى ناظر المدرسة ، الذى لم يستطع بدوره تحديد المسئولية ، فأصدر أمراً برفت الفصل كله ، على ألا يعود أى طالب إلا بصحبة ولى أمره .

كانت هذه هى المرة الوحيدة فى حياتى التى أعانى فيها من الشعور بالطرد رغم أن الإهانة كانت جماعية ، ورغم أن معظم زملائى وعلى رأسهم عصابة التهريج كانوا يغادرون بوابة المدرسة فى شموخ وكأنهم انتصروا فى موقعة حربية . ولو أضاء الله بصائرهم

لأدركوا أنهم الخاسرون . وفى اليوم التالى حضر بعض أولياء الأمور بصحبة أبنائهم ، واقترحوا على الناظر الأستاذ حسن جوهر أن يفرض غرامه على كل تلميذ بحيث يتجمع منها تكاليف تنظيف السبورة من عبث المستهترين . وكان الناظر رحيما فى قبول الاقتراح ، فلم يسعه إلا أن يقبله إنصافا للأبرياء ، وخير للعدالة أن يبرأ عشرات المذنبين من أن يدان برىء واحد .

ولا أريد أن أسترسل فى تعداد الجرائم والسخافات التى كانت تتفتق عنها عقول أولئك الشياطين الصغار . ويكفينى منها هذه النماذج التى ذكرتها حتى أعطى فكرة سريعة عن الجو الخانق الكئيب الذى صدمنى فى المدرسة الثانوية ، فحطم معنوياتى وأثار سخطى على تلك البيئة العفنة التى ملأت قلبى الغض بالحزن والكآبة ، حتى أنى فقدت بعضاً من حماسى للعلم والمعرفة ، لدرجة أنى تأخرت فعلا فى الترتيب ، لكنى لم أتعد العشرة الأوائل فى أسوأ الأحوال ، ولولا بقية من طموح ، وخشية من أن أفقد مركزى وكرامتى فى حدود العائلة ، لساءت العاقبة .

كبوة مخجلة :

أذكر بهذه المناسبة إحدى الكبوات المخجلة التى صادفتنى وهزت كيانى فى السنة الثانية الثانوية ، فقد فوجئت بشهادة الفترة الثانية وفيها صفر من عشرين فى مادة الجبر وثلاثة من عشرين فى

مادة الهندسة . وصعق والدى . وتأسف لهذا الانحدار أكثر مما عاتبنى عليه ، فقد كان يعلم أنى أحب هاتين المادتين ، وكم أظهرت فيهما من تفوق مرموق . وعرض علىّ لأول مرة فى حياتى أن يأتى لى بمدرس خصوصى ، لكن كبريائى أبت أن تقبل هذا الوضع المستضعف ، وألحّ والدى ، فصممت فى إصرار أن أعتمد على نفسى ، واشتريت كتاباً ضخماً يحتوى على الامتحانات العامة فى الرياضة، وانكببت عليه فى شغف ساعات طوال . حتى هضمت صفحاته كلها وحللت عقدها ، بل وأصبحت أتلذذ من حل تمرينات الهندسة ومسائل الجبر ، وكأنى أتسلى بحل ألغاز مسلية . وكان والدى يراقب نشاطى المتحمس فى كثير من الارتياح والاشفاق والقلق ، ويعرض علىّ من وقت لآخر فكرة المدرس الخصوصى لكنى كنت أرفضها باصرار .

وفى إمتحان آخر العام حصلت فى الهندسة على ست عشرة درجة من عشرين ، وفى الجبر على ثمانى عشرة درجة من عشرين . وكانت فرحتى بالإنتقال إلى السنة الثالثة تتضاءل بجانب إنتصارى فى التحدى ، واستردادى لمكانتى فى المحيط العائلى . وظل أبى رحمه الله يكثر من ترديد هذه الحادثة سنوات طويلة كدرس فى الاعتماد على النفس يلقنه الأجيال التى أنجبتها الأسرة من بعدى .

لا شك أن هذه الكبوة ليست وليدة الصدفة ، وهى أيضاً

لا تشكل ذبذبة طبيعية فى مستوى كفاءتى ، مما يؤكد أن الأزمات النفسية كان لها تأثير كبير على روحى المعنوية ، مما أحدث ثغرات خطيرة فى حصن تفوقى ، فتسربت منها الدوائر الحمراء إلى شهاداتى المدرسية ملطخة بذلك سمعتى فى البيت والمدرسة ، لكنها والحمد لله لم تنحدر بى قط إلى هوة الرسوب آخر العام ، لذلك لم أحتج أبداً إلى إمتحان الملحق ، كذلك كنت أحتل دائما الفصل الأول من كل سنة دراسية ، وهو الفصل الذى كان يتجمع فيه أوائل الطلبة .

لم أعرف الدوائر الحمراء إلا فى السنة الثانية والثالثة فى المدرسة الثانوية. وكانت تظهر فى شهاداتى من وقت لآخر كعلامات إنذار، لا تلبث أن تعيدنى إلى صوابى فأضاعف من جهودى لأتجنب الكارثة فى آخر العام .

ولا أنسى موقفاً حرجاً مخزياً وقفته يوماً أمام مدرس اللغة الانجليزية فى السنة الثالثة هو الأستاذ محمود سامى حافظ . وكان يدرس لى اللغة الانجليزية فى السنة الأولى أيضاً ، حيث كنت لا أزال فارس الميدان لم تعقدنى بعد البيئة البربرية الظالمة . والأستاذ سامى حافظ هو نفسه المدرس الذى ذكرت قبلا أنه كتب رسالة إلى أبى يبين فيها أن ترتيبى الخامس نظراً لوجود ثالث مكرر ، وإلا كان ترتيبى الرابع ، وكان يثق فى كفاءتى ، وكنت بدورى حريصاً جداً على إرضائه حتى لا أفقد هذه الثقة الغالية ، ولأنى كنت أقدره وأحترمه وأعجب بشخصيته الفذة الرائعة وخلقه

المهذب الرفيع . وكان يذكرني بمدرس الحساب في مدرسة العقادين الإبتدائية في ألفاظه المهذبة وأناقته البارعة ، واحترامه للطلبة دون إهانة أو سباب ، وكان يبدو عملاقاً وهو يحدثنا بالإنجليزية في طلاقة ووضوح ولهجة سليمة تختلف عن اللكنات الدخيلة على الانجليزية ، التي كان ينطقها غيره من المدرسين . وكنت في تلك السن المبكرة أميز اللهجة السليمة لأنها كانت ترن في أذني كأصوات الممثلين في الأفلام الأمريكية التي كنت شغوفاً بها . وكان الأستاذ سامي حافظ لا يتكلم العربية إطلاقاً أثناء الحصة حتى يعودنا على سماع اللغة ، كذلك لم يكن يقبل أن يوجه إليه أي كلام بغير الانجليزية، حتى نتمرن على النطق السليم واستحضار الكلمة المناسبة . وكان يردد تعبيراً معيناً أصبح إحدى لوازمه إذ يقول ما معناه . « تكلم الانجليزية ولو كانت خطأ » . وكم دهشت عندما سمعته يتكلم لأول مرة بالعربية مع أحد الفراشين .

أعود إلى الموقف العصيب الذي وقفته أمام هذا الأستاذ العظيم الذي نوهت عن جانب من شخصيته الفذة، حتى يتجسم لك — يا أخي القارىء — مدى الحرج والخزى الذي شعرت به عندما واجهني أمام الطلبة في صوته الهادىء المهذب :

— أنا آسف يا جيار إذ أجدك هذا العام غير ما كنت أعرفه عنك ، لقد كنت من أنجب تلاميذي . . فماذا دهاك ؟

كانت لهجته أقرب إلى العتاب منها إلى التعنيف ، لكن كلماته

الحادثة هذه كانت تعتصر قلبي وتمزق كرامتي ، وتملكتني الحسرة وأنا أفقد مكانتي في نظر أستاذي العملاق . وعز عليّ أن أخيب أمله في تلميذه الذي كان يعتز به . ولا أعتقد أني إستطعت أن أستعيد ثقته الغالية، فقد حل إمتحان آخر السنة بعد فترة قصيرة، وانتقلت إلى السنة الرابعة.لكن قدميّ اللتين أرهقهما الروماتيزم اللعين لم تطأ عتبتها ، وكان هذا آخر عهدي بالمدارس والمدرسين . وإن كنت لم أقطع صلتي بالدراسة والعلم .

كم أتمنى أن ألقى أستاذي محمود سامي حافظ الآن ، لأهدي إليه بعضاً من كتبي التي ترجمتها عن الانجليزية ، عساى أن أسترد ثقته التي أعتز بها ، تلك الثقة التي تكاتف المرض اللعين والبيئة المدرسية الخبيثة على تقويض أركانها ، وإن كنت لا أعفي نفسي من المسئولية تماماً .

حساسيتي . . بين النفع والضرر :

إن الحساسية المفرطة هي من أهم صفات الفنان ، وهي تشكل جهاز الرادار الذي ينقل لرأس الأديب كل ما يدور حوله في دقة قد لا يلحظها الشخص العادي . وإذا كنت قد حققت شيئاً من التوفيق في ميدان الأدب ، فأغلب الفضل يرجع إلى تلك الحساسية المرهفة التي تجسم لي المآسي فتشقيني ، وتثير في نفسي دوامة من الانفعالات لا تهدأ إلا عندما أصبها على الورق ، وهذا الهدوء

النسبي نوع من التنفيس ، فهو يجعلني أحس بأني أشركت غيري في المشكلة .

وإذا كانت هذه الحساسية هي إحدى دعامات حرفتي التي أقتات منها ، فقد كانت دائماً مصدراً لشقائي وتعاستي . فإن فرط إحساسي بكرامتي جعلني أبالغ في تجسيم الأمور التافهة إلى درجة سخيفة ، من الجائز أن نسميها مرضاً نفسياً ، وهذا الداء هو علة حياتي المزمنة التي لم أستطع أن أتخلص منها حتى الآن . وإن كانت تجارب الحياة قد هذبت كثيراً من جوانبها . كما سيجيء فيما بعد .

ومما يزيد الطين بلة أني — نتيجة هذه الحساسية أيضاً — أخجل من أن أبوح بآلامي وأحزاني ، وأنطوي على نفسي ، وأكتم آهاتي ، وألعق جروحي في صمت ، وكثيراً ما أعاني من آلام المغص الكلوي الحاد فلا يعلم به من يقيمون معي في نفس الشقة ، ما عدا ممرضتي نعمات ، حينما ينفذ احتمالي فأطلب منها حقنة مخدرة أو قربة ماء ساخن . كما أني أستنكف أن أطلق أنات متوجعة حتى لا أبدو ضعيفاً أمام الغير ولو كانوا من المقربين . ولا أذكر أني بكيت يوماً من الخوف أو الألم أو الحزن أو الهزيمة والفشل . إنني دائماً أتحدى دموعي في عناد وإباء .

ومن العجيب أني أدمع بسهولة لمنظر مؤثر في فيلم سينمائي متقن أو مأساة تمثيلية بارعة ، حتى ولو كنت أنا مؤلف النص . وينضح

فؤادى بالألم والرثاء إذا رأيت إنساناً يعرج، بينما العرج بالنسبة لى أمل بعيد المنال .

وقد حرت فى تعليل هـذه الانفعالات المتناقضة ، ولم يكن أمامى غير تفسير واحـــد . إن فرط اعتزازى بكرامتى يجعلنى أستنـكف من أن أبدو فى أية صورة تحمل مظاهر الضعف . أما تألمى لمصاب غيرى فهو إحساس إنسانى لا يصدر عن ضعف، بل عن رثاء أو مشاركة وجدانية .

كذلك جروح نفسى مهما نزفت من آلام رهيبة لم أكن أبدى منها إلا القليل جداً الذى لا أحتمل كبته . ولم أكن اعترف بحبى ولهفتى فى قصة غرامى الأول ـــ وسأتـكلم عنها فيما بعد ـــ أمام أهلى وأصدقائى حتى لا يسخرون من عواطفى أو يرثون لحالى ، أو يستضعفون إرادتى . وأكبر دليل على كبت آلامى النفسية أن كل ما ذكرته من معاناة وضيق فى المرحلة الثانوية لم يسمع به أحد حتى الآن ، حتى أخى الذى كان معى بنفس المدرسة. وسوف يدهشون إذا ماقرأوا هذه الاعترافات لأول مرة ، والتى ما كنت أسجلها هنا إلا لأنى أشعر بمسئوليتى الـكبرى فى تدوين قصة حياتى بمنتهى الصدق والأمانة ، وليساعدنى الله كى لا أحذف شيئاً عنـد مراجعة هذا الـكتاب قبل أن ادفع به إلى المطبعة .

لقد ذكرت من قبل أن هـذا الإمعان فى كبت انفعالاتى وآلامى هو ـــ فيما اعتقد ـــ السبب المباشر فى تلك الأحلام

المزعجة والكوابيس الرهيبة التى تؤرق مضجعى وأفيق منها منهوك القوى مضعضع النفس . ولعلى بعد أن أفرغ أعماقى على صفحات هذا الكتاب أن أتخلص من هـذه العقد المخزونة فى سراديب عقلى الباطن .

مقارنة :

لم تكن فى دراستى الثانوية أية زاوية مشرقة ، تبدد بعض الظلام الذى يحيط بى فى ذلك الجو الخانق . وإذا ماعقدت مقارنة سريعة بين العقادين الابتدائية والإبراهيمية الثانوية ، أجد الفرق شاسعاً ، مع أن العكس كان هو المأمول يوم وضعت قدمى على عتبة المدرسة الثانوية . كانت المسافة بين بيتنا والعقادين لاتزيد على خمس دقائق، كنا نقطعها أنا وأخى فى غير إرهاق . . وكان والدى بطبيعته العادلة يسوى بيننا فى نوع الملابس وألوانها حتى المعاطف والأحذية والحقائب ، بحيث كان يجعل كلاً منا نسخة متكررة من أخيه، خاصة وأن أخى مكرم كان أكبر حجماً من سنه بحيث صار كتفه فى مستوى كتفى ، حتى أن الباعة كانوا يسألون والدتى أينا الأكبر ، وكان هذا السؤال يغيظنى من البائع ويزداد غيظى كلما كانت والدتى تردد هذا الالتباس على سبيل المزاح . وكانت البوادر تشير إلى أن كتفه المتمردة سوف تخرق اتفاقية المساواة التى ارتضيتها مضطراً . وترتفع فوق كتفى بمسافة مخجلة ، لولا أنى

لازمت الفراش قبل أن يطويني تحت إبطه ، وتركت له الفضاء متسعاً يتمدد فيه كما يشاء ، وظللت فى وضعى الأفقى لا يزيد ارتفاعى عن شبر !

ظللنا متلازمين فى الذهاب والإياب فى المدرسة الأبراهيمية، مما كان يسلينا فى قطع المسافة الطويلة التى أصبحت أربعة أضعاف ما كنا نقطعة فى مدرسة العقادين . وكانت أيدينا الصغيرة فى الشتاء تتجمد على الحقائب الثقيلة ، وفى الصيف كانت ملابسنا تتشبع بالعرق قبل أن نصل إلى البيت . وكان الطلبة فى ذلك العهد ملزمين بارتداء الثياب كاملة من السترة والبنطلون والطربوش، الذى كان لا يستقر على رأسى أبداً فى وضعه المعتدل .

وفى السنة الأخيرة التى قضيتها فى المدرسة كان المرض قد بدأ يغزو مفاصلى مما يرهق خطواتى البطيئة فتبدو المسافة أكثر طولا واعياء . وكنت أخجل من أن أبوح بآلامى كلها لوالدى حتى لا أورطه فى «اشتراك» الترام . كذلك كان هذا الإجراء سيفرق — لأول مرة — بينى وبين أخى ، وما كنت أطيق أن أتطلع من نافذة الترام السريع ، فأرى أخى يسير وحيداً وهو ينتزع خطواته المتعبة على الطريق الطويل . ولم يكن يخطر ببال أحدنا أنه سيظل يقطعه وحيداً ثلاث سنوات أخرى حتى ينال التوجيهية ويلتحق بكلية طب القصر العينى ، التى كانت تقع فى منتصف الطريق بين بيتنا والمدرسة الإبراهيمية .

وإذا ما تمادينا فى المقارنة السريعة بين مرحلتين مختلفتين فى كل شىء تقريباً، أرى هذا الاختلاف يمتد حتى إلى التافه من الأمور، وإن لم يبد تافها حينذاك، وهو موضوع الأكل. فقد كنت — ومازلت — ذواقاً للطعام الجيد، وإن لم أكن نهماً أكولا. فإنى — منذ سنوات طويلة — أحدد لنفسى نصف رغيف فى كل وجبة لا أتعداه، كما أنى لا آكل كل ما أشتهيه، ولكن ما يتلاءم أيضاً مع صحتى وظروفى الخاصة. وكثيراً ما كنت أجد نفسى مضطراً للتوفيق بين مزاجى الخاص وحالتى الصحية وأرقام ميزانيتى. وبحكم اهتمامى بهذا الموضوع، وجدت نفسى — تلقائياً — أهتم بدراسته علمياً وتجريبياً. وبهذا ألممت بمحصول وفير عن علم الأغذية، وما يحتاج إليه الجسم من عناصر أساسية وتأثير كل مادة على الجسم من الناحية الفسيولوجية ومدى ما تمـــد به الجسم من سعرات حرارية، وهذا الأمر أهتم به كثيراً، فإن عائلتى تتميز بالبدانة، لذلك أتجنب كل ما يمد الجسم بنسبة مرتفعة من هذه السعرات الحرارية حتى لا يزداد وزنى، فأحمل جسمى مزيداً من الأعباء والأمراض، وتزداد مهمة من يخدمنى صعوبة وأرهاقا. لذلك أقسو على شهيتى كثيراً ولا أدع لها الحبل على الغارب.

ومما يجعل مهمتى صعبة فى هذا المضمار أن والدتى طباخة ماهرة تتفنن فى طهو الأطعمة الدسمة اللذيذة، وهى سمينة وأكولة وعنها ورثنا الاستعداد للبدانة. ولا أدرى هل هى أتقنت الطهى لأنها

أكولة ، أم أنها أحبت الأكل لأن يديها تخرجان منه أنواعاً شهية . وقد كنت في طفولتي وصباي وشبابي أنقاد لإغرائها دون مقاومة . ولكن أمراضي وقراءاتي الطبية جعلتني أسن لنفسي نظاماً خاصاً في الأكل لا أحيد عنه .

نعود إلى نظام الأكل في مدرسة العقادين . بما أن الدراسة كانت تنتهي حوالى الساعة الرابعة مساء ، فقد كان لزاماً على التلاميذ أن يتناولوا غداءهم بالمدرسة على نفقتهم الخاصة . ولما كانت مدرسة العقادين في حي شعبي ، فقد تعود تلاميذها البسطاء أن يأتوا معهم ببعض الشطائر « الساندويتش » ملفوفة في ورقة من جريدة قديمة . أو يشترون من المقصف « الكانتين » شطائر الفول المدمس والطعمية وسلطة الطماطم . وكانت هناك فئة ضئيلة جداً يأتي إليهم الطعام من الخارج ، وهو حق مباح للجميع لكن الذين كانوا ينتفعون به لا يزيدون عن أصابع اليدين ، وفي أول فسحة الظهر يفتح الباب الكبير ويدخل منه البوابون والشغالات ، وكل منهم يحمل سلة وعموداً من الطاسات المليئة بالخضر واللحم والأرز أو المكرونة . وكنت أنا وأخي من المحظوظين القلائل الذين ينعمون بالأكل البيتي المعتبر ، لأن البيت كان قريباً من المدرسة كما أسلفت .

وكان المطعم عبارة عن موائد طويلة ممدودة في شرفة « فراندة » واسعة تطل على النيل مباشرة ، لا يفصلها عنه غير سياج من الحديد

المزخرف . وكانت فى الشتاء تغمرها أشعة الشمس، فتدفىء نسمات النيل الباردة . وفى وسط ذلك الجو الشاعرى الرائع نفتح السلة وطاسات العمود ، فنفاجأ بنفحات السيدة الوالدة ، مما لذ وطاب . ولكن سرعان ما تنصد شهيتنا أمام عيون الفراشين التى تحاصرنا فى حسد وجشع ، وكأنما تعد علينا اللقيمات .. لأن كل كمية تنتقل إلى بطوننا معناها أنها تقتطع من نصيبهم ، إذ أنهم كانوا يستولون على ما يتبقى من طعامنا . وكان من العسير جداً أن أزدرد قطع اللحم المحمرة بينما زميلى بجوارى يمضغ قطع الطعمية . وكم طالبنا الوالدة بأن تجنبنا هذا الحرج ، وتحتفظ لنا بالأكل الدسم لوجبة العشاء ، لكنها كانت تسخر من سذاجتنا وتعتبر هذه المواقف مدعاة للتفاخر بين أقراننا .

أما مدرسة الإبراهيمية الثانوية ، فكانت هى التى تتكفل بالأكل لجميع الطلبة . وفرحت للأوضاع الجديدة الديمقراطية ، لكننى صدمت فى أنواع الطعام المطهوة بطريقة تثير التقزز كأكل الملاجىء والسجون والمستشفيات . وفوجئت بالطلبة يهجمون على طاسات الطعام يختارون منها قطع اللحم الكبيرة الخالية من « الشغت » ، ثم يتخاطفون الفاكهة التى يتخلى عنها صاحبها لسبب ما . وعيون الفراشين يقظة لمثل هذه السرقات حتى يحتفظوا بها لأنفسهم .

كانت تلك الأطعمة والتصرفات المثيرة للاشمئزاز تصد شهيتى

عن الطعام فاكتفى بالبرتقالة أو أصبع الموز، ثم أسكت معدتى بشطيرة « ساندويتش » فول أو طعمية من المقصف «الكانتين».
وهكذا انقلب الحال، وحاقت بنا نقمة إخواننا فى مدرسة العقادين، فأصبحنا نأكل مثلهم الفول المدمس والطعمية ، بينما هم يأكلون اللحم والخضار والأرز والمكرونة . أما فى يوم الاثنين فكنت استسيغ شطائر المربى والجبن ، وكانت من أنواع جيدة تشبه ما نأكله خارج السجن .. أقصد خارج المدرسة .

* * *

وفى مجال المقارنة أيضا بين مرحلة السعادة الإبتدائية ومرحلة الشقاء الثانوية ، أجد أن نشاطى المدرسى فى الأولى . ولو أنه كان ضئيلا للغاية ، إلا أنه كان لايخلو من رحلات مدرسية مفيدة رأيت فيها من معالم بلدى مالم أره من قبل ولا من بعد. فقد كانت المدرسة تنظم للمتفوقين بعض الرحلات العلمية المجانية . وكان والدى يسمح لى بالمشاركة فى تلك الرحلات لممارستى حقى فى التفوق ، ولأنها كانت تحت إشراف المدرسين . وزرنا فيها المساجد القديمة كلها ، وصعدنا إلى القلعة، وزرنا أهرام سقارة والجيزة والحديقة اليابانية فى حلوان ، ومعامل التكرير ومصانع الزراير الصدفية فى السويس ، والقناطر الخيرية . أما فى مرحلة التعاسة الثانوية ، فلم أشترك فى أية رحلة على الإطلاق ، وكيف لى أن أشترك مع ذلك الجو الملوث ، وأنا الذى كنت أتلهف على سماع جرس الانصراف

حتى أسرع بالعودة إلى بيتى حيث أستنشق بعض الهواء النظيف .

* * *

أما فى ميدان الصداقة ، فقد خرجت من العقادين بنخبة من الأصدقاء الحميمين مازلت أتصل ببعضهم حتى الآن ، وألتقى بهم من وقت لآخر . أما المدرسة الثانوية فلم أخرج منها بصديق واحد ، مما يدل على أنى لم أكن أنسجم مع البيئة التى عشت فيها ثلاث سنوات متواصلة . ولا شك أنى مسئول إلى حد بعيد عن عدم التوفيق فى إكتساب الأصدقاء ، فقد كان فيهم ولا شك شبان يمتازون عنى علماً وتهذيباً . لكن الفئة المنحدرة شحنتى بطاقة من القرف والكآبة جعلتنى أفضل العزلة ، وأتعفف عن مصاحبة السوقة ، ولا أتطفل على جلسات المترفين .

أما علاقتى بالمدرسين ، فكانت وطيدة فى المرحلتين، ولكنها كانت محدودة فى المرحلة الثانوية ، وفى مقدمة الأساتذة الذين أدين لهم بالفضل الكثير ، الشيخ حسين الشايب مدرس اللغة العربية والدين الإسلامى ، والأستاذ محمود سامى حافظ مدرس اللغة الانجليزية، وقد تكلمت عنهما من قبل بما يغنى عن الاسترسال ؛ ولكنى لاأحب أن أختم حديثى فى هذا المجال قبل أن أذكر بالخير مدرس الطبيعة والكيمياء الأستاذ عبد الرحمن مصطفى، الذى كان يشرح لنا مادته بطريقة مشوقة مسلية ، وكنت أنصت إليه بشغف وهو يكشف أمامنا أسرار الظواهر الطبيعية المثيرة، فكأنى أشاهد

ساحراً بارعا . وكنت أعود إلى البيت فأعيد إجراء تلك التجارب حسب إمكانياتى ، محاولا إستعراض معلوماتى أمام أفراد العائلة ، فآتى بوعائين من الزجاج وأضع فى أحدهما بعض الماء مذاباً فيه بضع نقط من صبغة اليود لا تكاد تظهر للعيان، وفى الوعاء الآخر نفس الكمية من الماء المذاب فيه قليل من النشا . وكلا المادتين موجودة فى كل بيت . وأسألهم أن يخمنوا ماذا يكون لون السائل الذى ينتج من خلط المحلولين . ومهما كانت فراستهم فلن يصل حدسهم إلى الإجابة الصحيحة ، وبحركة مسرحية أخلط محتويات الوعائين فإذا بالناتج لا يمت لأى منهما بصلة ، فإن المحلول الناتج بالطبع يكون لونه أزرق . كذلك كنت أهوى القيام بالتجارب والتوصيلات الكهربية، وكنت أشترى الميكروفونات والسماعات والبطاريات من الباعة المتجولين فى حى الأزهر، وكلها من مخلفات الجيش الإنجليزى . ثم أقوم بعمل التوصيلات اللازمة التى بواسطتها أتحدث مع أخى فى الحجرة البعيدة من خلال السماعات . وكانت هذه عملية ممتعة بالنسبة لأعمارنا فى تلك المرحلة المبكرة ، خاصة وأن بيتنا لم يكن فيه آلة تليفون بعد .

* * *

قراءاتى الأولى

بدأت هوايتى للقراءة فى سن مبكرة ، لكننى لم أجد فى البيت كتباً تروى غليلى . فقد كان والدى لا يقرأ إلا الجريدة اليومية . ولما كنت لا أهتم بالسياسة كما أسلفت ، فلم أكن يعنينى من الجريدة إلا صفحة الحوادث ، والصفحة الأدبية . . وكنت أشترى مجلة فكاهية إسمها « البعكوكة » وكانت أشهر مجلة شعبية ، تعنى بنشر الأزجال والقصص الخفيفة والنقد الفنى . وكانت تنشر فكاهات القراء مذيلة بأسمائهم . وهى أول مجلة تنشر إنتاجى وتحته إسمى كاملا بالبنط الأسود ، ولم يكن إنتاجى هذا سوى فكاهة قصيرة تتناسب مع عمرى حينذاك الذى لم يتجاوز العاشرة ، وكانت فرحة طاغية يتضاءل بجانبها إحساسى اليوم عندما أرى « كليشيه » إسمى على عمودين يتوسط إحدى قصصى التى تشغل صفحة كاملة من الجريدة اليومية .

وبجانب البعكوكة — التى كان ثمنها خمسة مليمات فى البداية ،

ثم قرش صاغ فيما بعد — كانت ميزانيتى تسمح بالاشتراك فى بعض المجلات الخفيفة مثـــل « الإثنين والدنيا » و « آخر ساعة » و « المصور » . وكنت أشترك مع إخوتى فى شراء هذه المجلات فيدفع كل منا خمسة مليمات . أما المجلات الأدبيـــة فلم يكن يشاركنى فيها أحد لأنها عسرة الهضم ، فكنت أواظب على قراءة « قصص للجميع » و « القصة » و « روايات الجيب » وروايات « جون سنكلر » . وكان أخى يشاركنى فى الروايات البوليسية مناصفة . كذلك كنا نستبدل الروايات التى نقرأها بنسخ قديمة من المكتبات نظير خمسة مليمات لكل رواية . ولا أعتقد أن نسخة من روايات الجيب أفلتت من يدى فى تلك المرحلة التى كنت أقرأ فيها الأدب البوليسى فى شغف ونهم .

وكان لى صديق فى مثل سنى يدعى « فرج عبد الشافى » ، هو الابن الأوحد لصاحب البيت الذى كنا نسكن الدور العلوى منه، وكان أبوه المتيسر يحقق له رغباته دون مناقشة أو تردد ، ويحيطه أهل بيته بجو من الرفاهية والتدليل ، ورغم هذا لم يفسده التدليل، فكان مؤدباً طيب القلب ، عاطفياً إلى حد بعيد ، يلح فى استضافتنا — أخى وأنا — حتى نمضى ساعات طويلة فى حجرته الخاصة الزاخرة بالكتب والمجلات وروايات الأطفال ذات العناوين المثيرة ، مثل : الأميرة والأقزام السبعة ، سندريللا ، مصباح علاء الدين ، السندباد البحرى ، ذات الرداء الأحمر ، إلى آخر

تلك المغريات التى كنا نندمج فيها بكل مشاعرنا ، فننسى أنفسنا ، ولا نفيق من استغراقنا إلا عندما يحين موعد الطعام ، فتستدعينا والدتى لتلقى علينا درساً فى الذوق ومراعاة الأصول . وفى اليوم التالى ندعو جارنا فرج إلى وليمة من روايات أرسين لوبين لا نفيق منها إلا عندما نسمع ضوضاء الملاعق والأطباق تتخذ مكانها على المائدة فيسرع بالهروب .

كان هذا يحدث طبعاً فى الإجازات الصيفية ، أما أيام الدراسة فكان محظوراً علينا تماماً أن نقرأ غير الكتب المدرسية ، لأن والدى كان يعتبر تلك القراءات الخارجية مضيعة للوقت ، فكنا نتعاطاها فى الخفاء كمدمنى المخدرات .

الواقع أن القراءات الخارجية فى نظرى ، لا تقل أهمية عن الكتب المدرسية ، التى تكون جافة غير مسلية ، فلا يرسخ منها فى الأذهان إلا قدر يكاد يسمح باجتياز الامتحان ، ثم تتبخر المعلومات غير المرغوب فيها . بدليل أن خريج الجامعة لا يستطيع أن يجتاز امتحاناً فى الشهادة الإعدادية مثلاً ، إلا فى بعض العلوم التى كان لها امتداد فى دراسته الجامعية .

والتثقيف الذاتى هو حصيلة معلومات مختارة ، يتناولها القارىء فى نهم فيستوعبها بسهولة ، واهتمامه بها يجعله يداوم على الإطلاع فى نفس الموضوع فينمى معلوماته ويثبتها ويؤكدها . وكما أن الإنسان يحتاج إلى مواد غذائية متنوعة لبنـــاء جسده وسد

احتياجاته ، كذلك القراءة المتنوعة ، والثقافة الموسوعية تساعد الإنسان على بناء شخصيته . فتراه فى كل مجلس يتدفق بالمعلومات ويتجاوب مع أفكار الآخرين ، ويتأقلم مع مختلف الأجواء ، بعكس القالب الذى كان والدى يود أن يصبنا فيه ، قالب التخصص المدرسى الإجبارى ، دون الإلمام بنواحى الحياة الأخرى . حقاً إن المدارس تلقن الطلبة معلومات مختلفة ومعظمها هام ومفيد بلا جدال، لكنها لا تغطى كل متطلبات الحياة العادية واهتماماتها . وقد تفرض على التلميذ فى إحدى المواد أكثر مما يجب ، بينما تقتر فى مادة أخرى بحيث لا تروى تعطشه إلى المعرفة . ومن هنا كانت القراءات الخارجية واجبة ، لأنها تسد تلك الفراغات التى تتركها المدرسة فى ثقافة التلميذ .

وفى الدراسة الجامعية تضيق حلقة التخصص ؛ وبالتالى تزداد حاجة الطالب إلى البحث عن اهتماماته المتعددة بين صفحات الكتب التى تحددها احتياجاته الروحية والذهنية .

وهناك تعريف مشهور يحدد الفرق بين الثقافة والتعليم ، فالتعليم هو أن تعرف كل شىء عن شىء واحد ، والثقافة هى أن تعلم بعض الشىء عن كل شىء . وبمعنى آخر التعليم هو المعرفة الرأسية ، وفيه يتعمق الإنسان فى بقعة ضيقة ، أما الثقافة فهى المعرفة الأفقية ، حيث يلم الإنسان إلماماً سطحياً بمساحة واسعة . والشخصية المتكاملة تحتاج إلى النوعين معاً ، ثقافة واسعة تنير له معالم حياته اليومية ،

وتخصص عميق فى مهنته يساعده على أداء رسالته كعضو منتج فى المجتمع .

بداية ثقافتى الجنسية :

عندما التحقت بالمدرسة الثانوية ، تفتحت فى أعماق أحاسيس جديدة حار فيها عقلى المراهق بحثاً عن تفسيرات معقولة . وكانت أذناى تلتقطان كلمات مبهمة وتعبيرات طائشة تثير فى رأسى كثيراً من علامات الاستفهام . وكان من العبث أن ألجأ إلى والدى كى يبدد من حولى الظلمات ، ففضلا عن ثقافته المحدودة ، لم يكن واسع الصدر بحيث يتحمل مناقشة صبيانية سخيفة . وفوق كل هذا كان حيائى يمنعنى من إثارة الموضوعات الجنسية أمامه ، وكان خجله هو أيضاً يحجز نصف الإجابة على شفتيه .

أذكر أنه عندما كان عمرى ثلاثة عشر عاماً، أن كان مدرس الدين الإسلامى يشرح لنا بعض آيات قرآنية تبين كيفية الوضوء وشروط الصلاة ، وجاء فيها ما معناه أن الصلاة لا تجوز مع « الجنابة » . وتعرض المدرس لتفسير الموضوع بألفاظ مقتضبة — منعا للإحراج — جاء فيها لفظ « الإحتلام » الذى لم أكن أعرف معناه ، وهممت أن أسأل فى معنى هذا « الاحتلام » ، وإذا بطالب مشاغب فى آخر الفصل يسأل عن نفس الكلمة بصوت مرتفع دون أن يرفع أصبعه . . وإذا بالفصل كله ينفجر فى

الضحك ، وحدجه المدرس بنظرة مرتابة ، وقال باسماً :

— وهل من المعقول أنك لا تعرفها يا عفريت ؟

وعز على المدرس أن يخدعه أحد تلاميذه الماكرين ، وركبه العناد فلم يشرح معنى الكلمة ، وانتهت المداعبة الخبيثة ببعض الضحكات والتعليقات المرحة ، وأنا جالس مكانى « كالأطرش فى الزفة » . وبالطبع لم أجسر على إعادة السؤال حتى لا أتهم بالجهل المطبق أو بإثارة الشغب . كذلك لم أشأ أن ألتمس الإجابة لدى واحد من زملائى حتى لا أكون موضع سخريتهم اللاذعة .

وظل السؤال يدور فى رأسى حتى عدت إلى البيت ، ولم أجد مناصاً من أن أسأل والدى . ولدهشتى رأيته يبتسم فى حياء ، ويتردد قليلا ، ثم وضع يده على كتفى فى اعتزاز بابنه الذى بلغ مبلغ الرجال ، وحان الوقت لاطلاعه على أسرار رجولته . والتفت إلى أخى الذى يصغرنى بعامين وأشار إليه كى يصحب ركب الرجال إلى الحجرة المجاورة حيث شرح لنا فى مزيد من الارتباك ، وفى تلميح يغنى عن التصريح ، أن الصبى عندما ينضج يحلم بأنه يمارس رجولته أثناء النوم ، وهكذا تهيىء له الطبيعة فرصة للتخلص مما اختزنه جسمه من مادة الإخصاب .

إذن فأنا رجل فعلاً منذ شهور كثيرة دون أن أعلم !.. وهذه العلامة اللزجة التى ظننتها مرضاً ليست إلا وثيقة مادية تثبت رجولتى ، ووجدت فى ذلك الشرح البسيط شعاعاً يبدد لى كثيراً

من الغموض الذى كنت أقف أمامه حائراً مهموما. وتطلع تفكيرى المراهق إلى مزيد من المعرفة والإيضاح .

نواة مكتبتى :

احتجت يوماً لشراء كتاب مدرسى ، فسمح لى والدى بزيارة إحدى المكتبات لأشتريه بنفسى . ولأول مرة وجدت نفسى محاطاً بآلاف الكتب المرصوصة على الأرفف فى مكتبة الوفد بباب اللوق . وجال بصرى مبهوتاً بين أسماء الكتب المغرية لمن كان فى مثل سنى. ولاحظ صاحب المكتبة شغفى ولهفتى ، فأعطانى كتيباً صغيراً يحوى نبذات مفهرسة لما تحويه مكتبته الكبيرة . وفى البيت عكفت على دراسة الفهرس[1] ، واخترت مجموعة كبيرة من الكتب فى شتى الموضوعات ، لكننى اضطررت إلى العدول عن بعضها للموازنة بين مدخراتى وبين هذا الكنز من المعرفة . وفى اليوم التالى عدت إلى البيت محملاً بأضخم وألذ مجموعة من الكتب يسيل لها لعاب المراهقين ، منها كتاب ضخم للرحالة محمد ثابت اسمه « الجنس اللطيف » يتكلم فيه عن نساء العالم كله موضحاً

---

(١) أصبحت فيما بعد اعتمد على مثل هذه الفهارس فى اختيار ما يحلو لى من الكتب بجانب اعلانات الجرائد ، أو ما أسمع عنه من أصدقائى .

بالصور ، وهو رحلة ممتعة حتى للكبار . وكتاب آخر عن المراهقة، احتلت على إخفائه فى مكان أمين بحيث لا يراه أبى . وكتاب عن التصوير الفوتوغرافى أردت أن أنمى به هوايتى فى التصوير « بالكاميرا » . وكتاب ضخم عن الرسم باللغة الإنجليزية اسمه « الفن والجمال » وفيه دراسة وافية لجسم الإنسان وحركاته ونسبه، وعشرات من الرسوم التى توضح ملامح الوجه فى مختلف انفعالاته . ومن تلك المجموعة كتاب عنوانه « ألعاب مسلية » وهو ملىء بالألغاز والألعاب السحرية الخفيفة التى تعتمد على النظريات العلمية ، وفصل من الفوازير الشعرية الطريفة . وكتاب كبير فى علم الكف مؤلفه قارىء كف كان مشهوراً فى ذلك الحين واسمه « العريف » . وقد درسته بإمعان عسانى أن ألم بأسراره . ولكنى اكتشفت بتجاربى الخاصة أنه علم اجتهادى لا يرتكز على قواعد ثابتة ، لذلك لم يعلق منه شىء بذهنى غير القشور . ومن الكتب الأدبية اخترت « المرأة لعبتها الرجل » و « الرقص على البارود » لأحمد الصاوى محمد ، و « حمار الحكيم » لتوفيق الحكيم ، وبعض الكتب الأدبية الأخرى التى لا أذكرها على وجه التحديد .

ومن إعادة القول أن أذكر كيف استقبل والدى تلك المعوقات عن دراستى ، ولم تهدأ ثائرته حتى وعدته بعدم قراءتها الا فى الإجازة الصيفية . ولم أحنث بالوعد إلا بالنسبة لكتاب المراهقة ، فقد كان إغراؤه لا يقاوم ، وكانت صفحاته لا تزيد

عن الخمسين مما جعلنى أستوعبه فى العطلة الأسبوعية .

كانت هذه المائدة المنوعة المذاق ، هى أشهى ما استوعبه رأسى فى تلك السن المبكرة ، وكان لها أثر كبير فى إثارة شهيتى ونهمى إلى المعرفة والنور الذى يبدد ظلمات عقلى .

ولم تكن رغبتى فى تنويع الثقافة فى مبدأ حياتى من باب حب الاستطلاع فقط ، أو البحث وراء إجابات شافية لعلامات الاستفهام التى كانت تحيرنى آنذاك ، فقد ظلت هذه الرغبة العارمة فى الثقافة الموسوعية تغطى على قراءاتى حتى الآن ، ولكنى بالطبع أركز على الأدب فى شتى فروعه ، وأزداد تعمقاً فى الفروع التى أمارسها فعلا ، وهذه لا أكتفى فيها بالمكتبة العربية ، بل ألتهم كل ما يقع تحت يدى منها باللغة الإنجليزية .

نعود إلى قراءاتى الأولى ، فأذكر أن قفزتى التالية فيها كانت وأنا أخطو نحو السابعة عشرة من عمرى ، حين تزوجت أختى الكبرى من شاب يهوى الأدب والشعر هو « عبـــد الملاك ميخائيل » ، وكان مثالاً للكفاح والطموح فى ميدان العلم ، حتى أنه أراد أن يدرس القانون وهو فى نهاية العقد الرابع من عمره . وعرف أن نظام الجامعة لا يقبل شهادة البكالوريا القديمة ، فلم ييأس ، ولم يستنكف من الحصول على الثانوية العامة مرة أخرى ، حتى تتيح له دراسة العلم الذى يهواه . وهكذا انتصرت عزيمته الجبارة والتحق بكلية الحقوق وهو فى سن الأربعين ، وتخرج منها

بعد أربع سنوات ، وبدأ يمارس المحاماة ويستعد لنيل الدكتوراه في القانون الجنائي ، لكن الموت عاجله قبل أن يحقق هدفه الكبير.

وكان لي بمثابة الأخ الروحي ، ومن خبراته تعلمت الكثير ، وكان متفائلاً مقداماً بعكس والدي ، وكثيراً ما كان يؤازرني عندما يحتدم الخلاف بيني وبين أبي .وكانت له مكتبة صغيرة، بددت حياة الأعزب معظم محتوياتها ، لكني وجدت فيما تبقى منها مادة دسمة رائعة . ومن خلالها تعرفت على جبران خليل جبران ، وطه حسين والشاعر على محمود طه ، وتوطدت صلتي بقلم توفيق الحكيم وأحمد الصاوي محمد الذي كان غزير الإنتاج حينذاك . ومن الكتب المترجمة تعرفت على تولستوي وفيكتور هوجو وشكسبير وبرنارد شو وغيرهم ممن لا تعيهم الذاكرة .

العلوم الروحية :

كان زوج أختي شغوفاً بالعلوم الروحية وما وراء الطبيعة وكانت مكتبته عامرة بكتب العالم الروحي المعروف أحمد فهمي أبو الخير ، وبعض الكتب الإنجليزية التي تبحث فيما وراء الطبيعة « ميتافيزيقا » . واستهوتني كتب الأستاذ أبو الخير ، فقد كانت بأسلوب علمي بعيد عن الشعوذة والدجل ، لأن مؤلفها عالم في العلوم الطبيعية ، وكان يمارس أبحاثه بعقلية علمية مدققة ، مستنداً في أبحاثه إلى علماء الغرب في هذا الميدان الذي وصلوا فيه إلى

نتائج محيرة . ومنهم أطباء وعلماء وأساتذة جامعيون لا يتطرق الشك إلى سمعتهم العلمية .

وكان زوج أختى عضواً عاملاً فى الجمعية الروحية التى يرأسها الأستاذ أبو الخير. وكذلك كان عضواً فى جمعية «الروز كروشان» العالمية التى تبحث فيما وراء الطبيعة ، وتنظم دراسات خاصة فى هذا الميدان ، ويتدرج فيها العضو بقدر ما يحصل من هذا العلم المثير . ومما يدعو للفخر أن هذه الجمعية العالمية، ومقرها الأصلى فى أمريكا، تعترف بأن المصريين القدماء هم الذين أرسوا قواعد هذا العلم الأصيل ، وكان الكهنة المصريون القدماء يستغلون خوارق الطبيعة فى السيطرة على الشعب بما نسميه نحن سحراً .

استهوانى هذا العلم ، الذى يجلو غوامض الأفكار التى تدور فى ذهنى . وكنت فى بدء حياتى شغوفاً بكل ما يجلو أمامى حقائق الكون وأسراره ، خاصة ما كان مبنياً على أساس علمى منطقى وتجارب معملية لا يتطرق إليها الشك . وقد عزفت عن التعمق فى علم قراءة الكف لأنه ليس مبنياً على أسس علمية ثابتة ، بدليل ما لمسته بنفسى من أخطاء وقع فيها كبار المشتغلين بهذا العلم ، إن صح أن نسميه علما .

أما العلوم الروحية، فيمارسها أساتذة جامعيون ، أمكنهم أن يحضروا أرواح الموتى ، حيث أدلت بمعلومات لا يعلمها إلا أهلوهم المقربون . بل وأمكن تصوير تلك الأرواح باستخدام الأشعة

تحت الحمراء وعدسات خاصة من حجر « الكوارتز » ، بل وأمكن للعلماء الروحيين أن يجسدوا أرواح الموتى ، أى أن الروح تستعير مادة « الاكتوبلازم » من الوسيط ، فتكسو به جسمها الأثيرى، وبهذا تبدو للحاضرين وتحدثهم وتلمسهم وتأكل قطعاً من « البسكويت » ، وبعد انصرافها يجدون مسحوق « البسكويت » على المقعد الذى كانت تجلس عليه .

والحديث عن تلك التجارب المثيرة لا ينتهى ، لكن المهم فى علم الروح أنه يفسر الحياة بعد الموت بطريقة منطقية مقنعة تؤيدها التجارب العلمية ، ولا تتعارض مع الأديان السماوية ، بل أن جلسات التحضير عادة لا تتم إلا بذكر الله ، والأجانب يرتلون صلوات خفيفة تهدىء الأعصاب وتزيل التوتر وتساعد على الطمأنينة والاسترخاء .

كل هذه المعلومات المثيرة كانت تبهرنى على صفحات الكتب، فلا أستطيع أن أرفضها بتعنت ، ولا أستطيع أن أسلم بها دون تطبيق أو مناقشة . وقد كانت لى تجارب ومغامرات فى هذا المضمار ، سأتحدث عنها فى حينها .

علم النفس :

وإذا كان علم الروح لا يتعارض مع الأديان ، فإنه يرفض بعض نظريات علم النفس الذى بدأت أقرأ فيه بشغف ، وأقارن بينه وبين النظريات الروحية .

وجدت ان نقطة الخلاف تتركز فيما يسميه هؤلاء « النفس » ويسميه معارضوهم «الروح» ، وكلا التسميتين تطلقان على مضمون واحد ، هو الذى يُرجعون إليه الخوارق البشرية . فظاهرة التنبؤ مثلا يرجعها علماء النفس إلى قراءة الأفكار أو «التليباثى» أى قراءة الأفكار على البعد ، أو الإيحاء كما فى التنويم المغناطيسى الذى يعترف به علم النفس ويؤكده . أما علماء الروح فيفسرون النبوءة بما يسمونه الإلهام الروحى بمعنى أن روحاً خارجية ألهمت الشخص أو لقنته النبأ ، إما بالإيحاء كأن تطرأ الفكرة على ذهن الوسيط ، أو يسمعها من الروح وحده دون الآخرين ، وهذا ما يسمونه بالجلاء السمعى .. وإما أن يتجسد الصوت ويسمعه الحاضرون فى البوق دون أن يروا صاحبه .

كذلك وجدت أن « الأحلام » موضع خلاف كبير بين علماء النفس وعلماء الروح . يقول الأولون أن الأحلام عبارة عن أحداث ومعلومات ورغبات ومخاوف مكبوتة أو مخزونة فى اللاشعور ، تظهر أثناء النوم . أما الروحيون فيعتقدون أن النائم يطرح روحه ، فتتجول فى أى مكان من العالم ، لا تعوقها العقبات ولا تحدها المسافات ، وتكون متصلة بالجسم بحبل أثيرى مطاط لا ينقطع إلا بالموت الذى يسمى طرحاً كلياً ، اما النوم فهو طَرْح جزئى . وعلى هذا فهم يؤمنون بأن الأحلام تنبىء عن المستقبل . لأن الروح المطروحة ترى مالا يراه البشر . أما علم النفس فلا يؤمن

بأن الأحلام تنبيء عن المستقبل . ورأيت أنى أميل إلى وجهة نظر علماء النفس فى نظرية الأحلام بالذات ، لأنى طبقتها كثيراً على أحلامى وأحلام الآخرين ، فكانت النتائج تتمشى مع علم النفس فى أغلب الأحيان . أما النبوءات التى تتحقق أحياناً فهى من قبيل المصادفة .. أو أن صاحبها يكون مهتماً بموضوع معين فيركز فيه تفكيره ، فيطفو هذا التفكير إلى سطح اللاشعور ، فيحلم النائم بتحقيق رغباته ، أو مخاوفه . ولما كانت معظم النبوءات تحتمل التحقيق بنسبة ٥٠ ٪ فإن دور المصادفة يكون يسيراً ، وحتى دون أحلام يستطيع أى إنسان أن يتنبأ بأحداث محتملة الوقوع بنسبة خمسين فى المائة . فأنا أستطيع أن أقول للتلميذ مثلاً إنه سينجح وللحامل بأنها ستلد بنتـــاً ، وللمريض أنه سيشفى ، إلى غير هذه الأحداث التى لا تحتمل إلا أمرين .. إما النجاح أو الرسوب .. والمولود إما ولد أو بنت ، والمريض قد يشفى أو يموت .

ومن جهة أخرى كان تفسير الروحية الأحلام يثير فى نفسى كثيراً من الاعتراض ، فإذا كانت روحى تتجول أثناء نومى وتقابل مثلاً صديقى أو زميلى فلاناً ، فمعنى هذا أن روحه هو أيضاً تجولت وقابلت روحى الهائمة ، وبالتالى فهو أيضاً يعلم بتفاصيل المقابلة . لكننا نقابل فى أحلامنا عشرات من الناس فى لقاءات مثيرة أو عنيفة دون أن يحس بها الطرف الآخر . وجال بخاطرى افتراض خبيث محتمل ، إذ كيف يكون إحساس نجمة سينمائية

مشهورة ، إذا ما حلم بلقائها عشرة شبان مثلا أو مائة فى ليلة واحدة، وكل منهم اختلى بها على انفراد ؟ !

وهكذا وجدت أن علم الروح يقف محرجاً فى تفسير هذا الفرض المحتمل ، بينما علم النفس يجد له تفسيراً منطقياً سليماً، بأن هؤلاء الشبان يحققون فى أحلامهم رغبة مكبوتة ، بينما النجمة المشهورة تحلم فى واد آخر من واقعها الخاص.

ثم . . الميتافيزيقا :

ثم رحت أجرى وراء الغيبيات فى كتب الميتافيزيقا ، التى تحويها مكتبة زوج أختى ، فوجدت أنها لا تتعارض مع علم النفس، بل إن دراسة « الميتافيزيقا » فى جمعية « الروز كروشان » تستلزم دراسة منهج مساعد فى علم النفس . وعلم ما وراء الطبيعة لا ينكر وجود الحياة الأخرى ، وما كان لعلم ابتدعه المصريون القدماء أن ينكر الحياة بعد الموت . بل إنه يؤمن أيضاً بنظرية « تناسخ الأرواح » ، وهى نظرية منطقية كنت أميل كثيراً إلى تصديقها لأنها تفسر لغز الأبدية.

تقول هذه النظرية إن الإنسان عندما يموت تنفصل روحه عن جسده المادى حيث يتحلل هذا الجسد إلى العناصر التى بنى منها ، ثم تدخل هذه المواد المتحللة فى تكوين النبات الذى يساعد بدوره على بناء جسد آدمى جديد ، وهكذا تدور مكونات التربة فى دائرة

مفرغة شأن كل ذرة حية أو جامدة على سطح الأرض ، أو فى الفضاء الخارجى . فقد أثبت العلم أن كل شىء يدور فى دائرة مفرغة حتى يحقق الأبدية أو اللانهائية . فالأرض تدور حول نفسها لتحدث تعاقب الليل والنهار إلى الأبد ، وتدور حول الشمس لتحدث الفصول الأربعة إلى ما شاء الله .

فإذا كان كل شىء يتحرك فى فلك دائرى خالد ، فلماذا لا تكون روح الإنسان أيضاً خالدة ، وهى أثمن ما فى الوجود . وبما أن الكتب السماوية جميعاً تؤكد خلود الروح ، فلم أكن فى حاجة إلى هذا التحليل المنطقى ، لكنى أسوقه لفئة من الناس يعتقدون أن الإنسان يفنى بموته ، وما أيأس هذه الفئة الضالة الذين لا عزاء لهم ولا أمل .

وإذا كانت فكرة خلود الروح لا جدال فيها ، لكنها كانت تقلقنى فى شبابى المبكر ، فإن طبيعة تفكيرى لا تقبل الأمور على علاتها ، وأظل أرهق ذهنى فى تعليل كل ما يعترض حياتى من أمور غامضة . فإذا صادفت آلة غريبة مثلاً ، أجد نفسى — دون وعى — أفكر فيها . مم تتكون وكيف تعمل ؟ وإذا شاهدت خدعة سينمائية ، أخرج عن اندماجى فى الفيلم ويسرح ذهنى فى كيفية تنفيذها . وهكذا لا يهدأ لى بال وفى رأسى أسئلة معلقة . فإذا كان عقلى يرفض الاستسلام دون اقتناع فى أمور الحياة العادية ، فإنه لا شك يعانى الكثير من مشكلة ضخمة تتعلق بسر الخلود .

وبالتالى كانت تستهوينى كثيراً نظرية تناسخ الأرواح ، التى تقول إن الروح تعود إلى الأرض بعد فترة تهذيب تقضيها فى عالم الروح ، وعندما تحتل جسداً بشرياً آخر تكون قد نسيت كل شىء عن حياتها أو حيواتها الماضيات . وبعد أن تؤدى رسالتها على الأرض تعود مرة أخرى إلى عالم الروح . . وهكذا تستمر الدائرة المفرغة إلى ماشاء الله .

وقد أزالت هذه النظرية الغموض عن بعض الأسئلة التى كانت تدور فى رأسى بلا جواب . . أين يذهب هؤلاء الموتى على مر الحقب والدهور ، وما مصيرهم ؟ ومتى تقوم القيامة ؟ وهل ينتظر المتوفى منذ خمسين مليون عام حتى تقوم القيامة بعد ملايين أخرى من السنين؟ ويتساوى مع الذين يدركهم الموت يوم الحشر ؟ وهل يدخل الأطفال الجنة لأنه لم يتح لهم الوقت الكافى لارتكاب الآثام ؟ إلى آخر هذه الأسئلة التى كادت تدفعنى إلى الكفر وتشككنى فى عدالة السماء !

وقد يتساءل معترض بقوله : وماذا يعنينى إذا ما عادت الروح إلى الأرض ، أو ذهبت إلى عالم آخر ، ما دمت مؤمناً بالحياة بعد الموت ؟ الواقع أن اقتناعى بفكرة تناسخ الأرواح ، فضلا عن أنها تعطينى تفسيراً معقولا يؤكد خلود الروح ، فقد أكدت لى عدالة السماء . . العدالة المطلقة فى أسمى صورها . . فالذى عانى من الفقر والجوع بحكم بيئته فى إحدى دوراته على الأرض ، يعوض

له فى حياة أخرى ما افتقده فى حياة سابقة ، والذى قاسى من آلام المرض وقيوده مثلى دون ذنب جناه ، قد يتقمص فى حياة أخرى جسد أحد أبطال الرياضة ، والذى ولد فى بيئة شريرة دفعته إلى الإجرام ، قد يهيأ له فى حياة أخرى جو من الطهر والفضيلة يعوضه عن دنسه السابق . وقد يكون فى هذا التعويض نوع من الثواب ، وقد يكون عكسه هو العقاب ، فمن يرتكب المعاصى فى حياته ، تعيده عدالة السماء فى إنسان تعس يكفّر عما اقترفت يداه ، والذى خان الأمانة أو استحل مال اليتيم قد تحتل روحه جسد طفل يتيم يعانى من ظلم ولىّ غادر لا يرعى ربه. وربما كنت أنا فى حياة سابقة إنساناً منحرفاً يبطش بالناس ويعيث فى الأرض فساداً ، فعدت فى حياة مقيدة تتخلص فيها روحى من أدران الماضى!

ليس هذا تفسيراً دقيقاً لنظرية تناسخ الأرواح كما قرأتها ، لكننى أخذت منها الهيكل العظمى وكسوته بأفكارى الخاصة التى ارتحت إليها حينذاك بعد قلق طويل .

ولكن الذى يجزم به معتنقو هذه النظرية التى اقتبسوها عن المصريين القدماء وطوروها بما يتفق والعلم الحديث ، أنه كلما زادت دورات الإنسان على الأرض ، فإن هذا يمنحه خبرات أعمق ويصقل روحه، ثم يحتل أجساد الأنبياء والعباقرة والمصلحين الذين يغيرون وجه الحياة على الأرض. وهذا يفسر لنا قبساً آخر من عدالة الخالق الذى لا يجعل العبقرية وقفاً على فئة من عباده دون الآخرين.

وخطر لى حينذاك سؤال وجيه . . كيف تعتبر الحياة القاسية عقاباً عن حياة لا نذكرها؟ وهدانى تفكيرى لتعليل معقول ، فإن الإنسان عندما ينسلخ عن جسده المادى بغرائزه وشهواته وقدراته المحدودة، فإن روحه تسمو وتشف ، وينكشف لها كل ماضيها بما فيه من خير وشر . وفى القرآن الكريم ما يثبت هذا المعنى فى آيات تؤكد ما معناه أن الإنسان عند الحساب تتحدث يده عما اقترفت ، ويتحدث لسانه بما قال ، وتذكر عينه ما رأت . . إلى آخر ماجاء فى الآية الكريمة (١) . وهذا يدل بوضوح على أن الروح تتذكر كل تصرفات صاحبها على الأرض ، فتثقل السيئات ضميرها وهو فى قمة يقظته بعد تحرره من ماديات الأرض . كما تنعش الطيبات الروح الخيرة ، فتنطلق فى سعادة غير مقيدة بالذنوب، وتهنأ بحياة روحية شفيفة سامية . ثم يؤذن لهذه الأرواح بالعودة إلى الأرض فى أجساد جديدة تتناسب مع مكانتها فى عالم الروح ، وهى المكانة التى اكتسبتها من حياتها السابقة . . وهكذا تدور الروح فى دائرة مفرغة لا نهائية خالدة .

كل هذه الغيبيات كنت أقرأ فيها بنهم فى فجر شبابى قبل أن أبلغ العشرين من عمرى ، فقد كنت مقبلا على حياة مظلمة يرهقها المرض ويصبغها الفقر والتخلف بيأس قاتم ، فوجدت فى علوم

---

(١) « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » سورة النور آية ٢٤

الغيب بعض العزاء ، فقراءة الكف تبشرنى بمستقبل عريض حافل بالسعادة ، وعلم الروح يفرش لى طريق الشفاء بالمعجزات ، والميتافيزيقا تفتح أمامى مجالات من القدرات الخيالية التى تعوض عجزى وقيودى ، وتحد نظرياته من إحساسى بظلم القدر ، وتعيد إلىَّ إيمانى بالعدل الإلهى ، وتلهمنى الصبر على الحرمان ، عندما أقنعتنى بأن الحياة الدنيا ليست إلا فترة عابرة فى سجل حياتى الخالدة ، وما أقاسيه على الأرض يخصم من رصيد أخطائى فى حياة سابقة ، أو يضاف إلى رصيد حسناتى فى حياة لاحقة .

وإن كنت فيما بعد قد انصرفت عن مثل هذه القراءات إلى ما هو أجدى وأكثر فائدة فى حياتى العملية ، فإنى غير نادم على الوقت والجهد اللذين صرفتهما فى دراسة هذه العلوم ، فقد قامت بدور كبير فى تخدير أعصابى المرهقة فى تلك الفترة العصيبة من حياتى ، حيث تجمعت فيها مشاكل المراهقة ، مع الحرمان من المدرسة ، مع شبح المرض الذى بدأ يكشف عن أنيابه بصورة خطيرة تنذر بمستقبل حالك مشئوم .

وإذا كنت قد عدلت عن تلك القراءات فى بداية حياتى العملية ، فقد صادفت بعض التجارب المثيرة فى العلوم الروحية ، وتحضير الجان ، وعلم اليوجا ، وقراءة الكف ، والميتافيزيقا ، وسأتناول بعضاً منها بشىء من التفصيل حسبما يتسع المجال .

.. فى السياسة :

فى مرحلة صباى المبكر لم أكن أفهم كثيراً فى الشئون السياسية إلا بقدر ما درسناه فى كتب التاريخ ، وما كنت أقرأ فى جريدة « الجهاد » لسان حال حزب الوفد الذى كان والدى يتحمس له من بعيد ، دون أن يتدخل فى نشاطه السياسى . وكان والدى يحب الزعيم سعد زغلول ، والمجاهد الكبير مكرم عبيد ، حتى أنه سمى أختى الكبرى « سعدية » وسمى أخى « مكرم » .

وعندما تفتحت عيناى فى بيت الأسرة ، كنت أرى بعض صور العائلة معلقة على الحائط ، ومن بينها صورة رجل عجوز وقور ذى شارب أبيض ، ونظرات حادة ، وظللت فترة طويلة أعتقد أنه أحـــد اقربائى ، ثم فهمت فيما بعد أنه الزعيم سعد زغلول . وكنت أعجب به ولو أنى لم أعاصره ، فقد مات بعد مولدى بستة أشهر ، لكنى عاصرت مكرم عبيد ، وكنت أعجب به لنزاهته وبلاغته وذكائه المفرط . كنت أعجب بصفاته الشخصية ، لكنى لم أكن أهتم بنشاطه الوطنى ، فقد كنت لا أهتم بالسياسة ولا المشتغلين بها ، بل انى لم أكن أتحمس كثيراً لقضايا بلدى ، لأنى فقدت إيمانى بمحترف السياسة الذين يشترون المقاعد فى البرلمان ، ويرثون المناصب العالية ، ويتظاهرون بالأعمال الخيرية مقابل ألقاب السادة التى تميزهم عن طبقة العبيد .

ولم اكره فى حياتى إنساناً قدر ما حقدت على الملك الفاسق فاروق ، كانت مخازيه ومغامراته الدنيئة تتناقل على ألسنة الشعب، الذى يسبّح بحمده ويمجده فى كل مناسبة وبلا مناسبة ، فكنت أنقم على رجال بلدى الذين يستبيح نساءهم وأموالهم ولا يجرؤ واحد منهم على التصدى له وإيقافه عند حده . وإذا زعيم الأمة حينذاك الذى نال ثقة الشعب ، وقبض بيده على أغلبية مقاعد البرلمان ؛ إذا به يقف شامخاً أمام الملك الفاجر ويهتف فى حماس : « لى مطلب يا مولاى لدى جلالتكم باسم الشعب » . . فيرتبك الملك ويتوجس خيفة من زعيم الأغلبية . لكن الزعيم يتقدم نحوه فى خنوع ويطلب باسم الشعب أن يلثم يد جلالته !!. يد السفاح . . يد اللص . . يد الفاجر الذى ورث البلد بمن فيها عن أجداده ، وكأنها ضيعة تحوى قطيعاً من الأغنام .

وكم كان يثيرنى منظره وهو راكع فى المسجد، وقد أطلق لحيته وأمسك فى يده مسبحة وقور ، ورسم على ملامحه آيات من الزهد والورع . وأتطلع إلى السماء وأتساءل فى عتاب . . لماذا لا يسخطه الله قرداً أو غوريلا وهو مندمج فى تمثيله المتقن ، فيجعله عبرة لكل من يخدع شعبه ويخون أمته؟ لكن السماء كانت تضحك من أمنيتى الساذجة ، فإن الشعب لم يكن مخدوعاً ؛ والسماء لم تكن غافلة ، بل كانت تعد له الرجل المناسب فى الوقت المناسب . ليثأر للشعب كله من هذا الطاغية الفاجر .

كيف كنت أشعر بالوطنية أو أتحمس لبلدى ، وأنا أرى نفسى غريباً فيها . الأرض تملكها عصابة يرأسها الملك ؛ شعارهم « حملى وأحملك » . المناصب الرئيسية تباع وتشترى فى سوق سوداء لها مواسم معينة تسمى « الانتخابات الحرة » . كل شيء له ثمن ما عدا الإنسان المسكين المكافح .

كان التفكير فى المستقبل يخنق طموحى ، ويشيع اليأس فى قلبى . لماذا أجتهد ؟ . . لماذا أرهق نفسى ؟ . . إن المستقبل ليس لأمثالى .. بل لهذا الزميل المتأنق الذى يحتل آخر الفصل ولا أحس به ، لكنه ساعة الإنصراف من المدرسة ؛ يجد فى انتظاره سيارة فارهة تكاد تسد الشارع ؛ ويسرع السائق الأسمر فيتخلى له عن مقعده ، فيقفز القزم الأنيق إلى مقعد القيادة ، ويندفع بالسيارة فى حركة استعراضية متهورة ، فيكاد يجرفنا فى طريقه ، لولا التصاقنا بسور المدرسة .

وأتطلع إلى السماء معاتباً : « عفوك يا إلهى . . إنى لا أعترض على حكمك . لكننى لا أفهم حكمتك . لماذا جعلت الرفاهية ميراثاً بين فئة من عبادك ، وجعلت الفقر إرثاً تتداوله فئة أخرى ؟ ! » .

ولم تكن السماء غافلة عن هذا النظام الجائر الذى فرضته فئة أنانية على بلدى الطيب المسالم . وكانت تعد لهذا البلد رجالا متحمسين من أبنائها ليحطموا الطغيان ويمحوا الاستعباد ، ويعيدوا للإنسان حقه وكرامته .

لقد كانت الرأسمالية — فى نظرى — نظاماً همجياً ظالماً ، تسود فيه شريعة الغاب . القوى يفترس الضعيف . وكان التطور الطبيعى لهذا النظام البدائى هو الاشتراكية الإنسانية ، التى تكفل الكفاية والعدل والمساواة بين البشر أجمعين . وتحمى الإنسان من الاستغلال والاذلال .

إنى أحسد أبناء هذا الجيل . . جيل الثورة والأجيال القادمة ، الذين سوف يجدون الطريق أمامهم ممهداً لكل مجتهد مكافح . الآن يستطيع كل مواطن أن يحلم مفتوح العينين ، ثم يحقق أحلامه ، فى وسع كل إنسان أن يخطط لحياته ومستقبله . يستطيع أن يكون وزيراً ، ورئيساً للوزراء ورئيساً للجمهورية . . الفرص متاحة للجميع ، والعدل مطلق فى أوسع صوره .

كنت فى طفولتى يعتصرنى القهر ويكسونى الذل وأنا أرى ثوراً جاهلا يحكم بلادى ، التى آلت إليه ضمن تركة أجداده الأجانب الذين لا تجرى فى عروقهم نقطة دم مصرية .

لهذا لم أكن أتحمس للمظاهرات الصاخبة التى يثيرها زملائى طلبه الابراهيمية الثانوية . ولم أشترك فى أى منها ، وما تكاد الهتافات تتعالى وتتحرك الكتلة البشرية إلى خارج المدرسة حتى أتسلل فى هدوء إلى منزلى . كانت الأحزاب تمول بعض الطلبة الهتافين حتى يقوموا بإثارة القلاقل والمظاهرات عندما تصدر إليهم التعليمات من أحزابهم ، ولم يكن الطلبة يتظاهرون دائماً معربين

عن مشاعرهم الوطنية الذاتية ، بل كثيراً ما كانوا ينقادون خلف زعماء الطلبة لإثارة الشغب بإيعاز من رئاسة الحزب . وكثيراً أيضاً ما كان الطلبة يتصادمون مع بعضهم البعض، إذا تعارضت الأهداف التهريجية التى تسعى إليها الأحزاب المتعارضة . تماماً كما يحدث الآن مع مشجعى نوادى كرة القدم ، مع فارق واحد ، هو أن عشاق الكرة يتعصبون عن حوافز ذاتية ، ومشاغبو الأحزاب كان معظمهم منقادين لفئة من المنتفعين المأجورين .

وأخيراً انزاح الكابوس عن صدرى ، واستعدت كرامتى الوطنية بعد أن أمضيت ربع قرن من عمرى غريباً فى بلدى، ضائعاً بين أهلى . أحسست أنى أملك مصيرى وأصنع مستقبلى ، وأن ثمرات جهدى تعود علىّ بالخير ، ولا تصب فى خزائن فئة متخمة من الناس. وأن كل لبنة أضعها فى صرح بلادى ترتفع بالبناء الشامخ وترفعنى معها إلى مصاف الآدميين الأحرار .

* * *

زيارتى للريف

فى اوائل صيف سنة ١٩٤٠ ، كانت الحرب العالمية الثانية قد بدأت تمتد إلى القاهرة والاسكندرية ، وفزع المواطنون الآمنون عندما ازدحمت سماؤنا الصافية بطائرات الألمان التى راحت تمطرنا بالموت والدمار . كان هذا الصراع المجنون غريباً على بلد مسالم كمصر ، وبدأ الأهالى يهاجرون إلى الريف الآمن من تلك الحرب الطاحنة التى لم يكن لنا فيها ناقة ولا جمل .

كنا فى بداية الأجازة الصيفية ، وكنت منقولا إلى السنة الثانية الثانوية ، بينما أخى يمتحن فى الشهادة الإبتدائية ، وبعدها يلتحق بالمدرسة الثانوية معى فى بداية العام الجديد . وبالتالى كان لزاماً علينا أن نسكن بالقرب من الإبراهيمية الثانوية . وبعملية حسابية اقتصادية قرر والدى أن ننتقل إلى الريف بكامل هيئتنا ، ومعنا ماتيسر من أثاث البيت بقدر مايملأ سيارة نقل ، اما بقية محتويات الشقة فقد أودعناها فى بيت الأسرة عند جدى .

وهكذا انتقلنا إلى بلدة أبو عوالى التابعة لمركز أشمون، وهناك حططنا رحالنا فى عزبة خال والدى أمين بك باسيلى الذى سبق أن تحدثت عن جبروته وسيطرته على الأسرة بما يغدقه عليهم مما أعطاه الله .

كانت العزبة عبارة عن أرض خصبة متسعة تتوسطها هضبة رملية مرتفعة ، وعلى قمتها شيد صاحب الضيعة بيتاً أنيقاً من طابقين كبيرين لا يشغل منها إلا حجرة واحدة . وكان قد رحب بإقامتنا لديه بكرمه المعهود لأجل غير مسمى حتى تصفو سماء العاصمة من الطائرات المعتدية .

وهكذا وجدت نفسى أسكن الريف لأول مرة فى حياتى ، وبهرنى هذا الهدوء الرائع ، والخضرة المنبسطة والنسمات المنعشة ، وارتحت للفلاحين البسطاء القانعين ، الذين منحونى لقب « البيه الصغير » بدون مناسبة . ولمست الفرق الشاسع بين روحهم الطيبة وتقديرهم لأقل جميل يسدى إليهم ، وبين نزعات الشر المتأصلة فى نفوس أبناء المدينة ، الذين حولهم صراع الحياة وسط الزحام إلى وحوش فى غابة ، يأكل القوى منها الضعيف ، ويتسلق المنافقون على أكتاف الشرفاء الكادحين ، وتطمس ضمائرهم مغريات الحضارة .

ولما كنت قد بدأت ألمس قسوة الحياة فى بيئة المدرسة الثانوية ، فقد ارتاحت نفسى كثيراً لجو الريف الهادىء ، وتمنيت

ان أقضى فيه حياتى بعيداً عن صخب العاصمة .

وأول من لفت نظرى هم أبناء الفلاحين ، الذين يخرجون إلى الحياة العملية فى سن مبكرة ، يكافحون ويكسبون أقواتهم وهم مازالوا فى مرحلة الطفولة ، بينما الشباب فى القاهرة يتعدون سن الرشد وهم يمدون أيديهم إلى ذويهم مطالبين بثمن السجاير التى يتعجلون بها مظاهر الرجولة . وكان يبهرنى الطفل الفلاح وهو ينطلق فوق حماره النشيط ، وكأنه فارس يمتطى جواده، وحاولت مرة أن أقلده فكاد يدق عنق ، لأن جسمى لم يكن مرناً كما ذكرت من قبل ، ولعل الطبيعة كانت تعدنى لوضع السكون التام، فلم تشأ أن تمنحنى نشاطاً عضلياً مفرطاً يضيق به جسدى الراقد فى القيود . وكان فشلى فى ركوب الحمار — وهو أسهل مايسمح لآدمى بارتقاء ظهره — مثبطاً لشجاعتى فى ركوب الحصان أو الجمل أو الجاموسة ، التى كان الولد عطوه يتسلق ظهرها كالقرد، ويتحكم فى قيادتها بمهارة وثقة ، فيبدو فى نظرى كمصارع الثيران .

بعد أيام من هجرتنا إلى الريف لحقت بنا أسرة عمى التى هربت بدورها من الغارات المدمرة . والتأم شمل صبيان العائلة فازدادت بهجتنا ، ورحنا ننطلق بين الحقول ، ونأكل البطيخ بطريقة بدائية متحررة ، ونتسلق أشجار التوت ، ونلتهم منه الكثير ، ونمتطى الحمير الهادئة ، وننعم بخيرات الريف الدسمة الزهيدة الثمن . فلم تكن الحروب قد أثرت بعد على الأسعار . وأتيح لى أن أشهد

العصر الذهبي حيث كانت البيضة بمليم، وزوج الحمام بثلاثة قروش، وأقة التفاح الأمريكانى الفاخر بثلاثة قروش ، ورطل اللحم الضأن بثلاثة قروش ونصف . ثم تكاتفت الحروب فى الخارج وسياسة الأرانب فى الداخل ، على رفع الأسعار . وإن لم يعدل شعبنا النشيط عن هذه التسلية الخطرة فإن ملايين الأرانب من الأجيال القادمة سوف تقرض خيرات الأفدنة المستصلحة ، بل وقد تنخر كالسوس فى جسم السد العالى نفسه وتشرب بحيرة ناصر إن لم يكفها ماء النيل . . ! وعندئذ يتحدث أبناء هذا الجيل لأحفادهم عن العصر الذهبي الذى نعيش فيه الآن .

ونعود إلى انطباعاتى الأولى عن الريف، فأذكر كيف تملكنى العجب من هؤلاء السذج القانعين فى استكانة وذل . كنت أراهم يكدحون تحت الشمس المحرقة ، ويروون الأرض بعرقهم ، ثم ينتحون فى ظل شجرة حيث يمضغون كسرات من الخبز الأسمر الجاف بلا آدام ، أو بفحل بصل أو اللفت المخلل أو أعواد السريس والجعضيض التى يقتلعونها مع الحشائش الضارة . أما الجبن القريش فلا يلجأون إليه إلا فى المواسم والأعياد .

ومن أسخف العادات التى آذت شعورى ، منظر السادة وهم يمتطون ظهور الحمير المسرجة ، ومن خلفهم يجرى الفلاح على قدميه بضعة كيلومترات .

وكان خال والدى يأمر بصنع خبز خاص لكلابه المتوحشة ،

من دقيق الذرة ، ويسمى « المصبوب » لأن العجين يصب داخل الفرن من شيء يشبه المعلقة لها يد طويلة ، ثم يخرج بعد قليل فى شكل أرغفة صغيرة قطرها حوالى عشرة سنتيمترات أو أقل، وكان منظره ورائحته ساعة خروجه من الفرن يثير شهيتنا ، لأنه لذيذ ونظيف، ولكنهم لم يكونوا يسمحون لنا بأكله لأنه فى عرفهم « عيش الكلاب » . وقد كان فى الواقع حين يجف بعد ايام لا تؤثر فيه إلا أنياب الكلاب ، لأنه يستعصى على أسنان الآدميين. ومع ذلك فقد كان المصبوب هو الغذاء الرئيسى للفلاحين .. وكلاب صاحب العزبة ! مع فارق بسيط ، فإن الفلاحين يأكلونه مع المشهيات المذكورة أعلاه ، من جبن قريش وسريس وافت مخلل ، وكلاب البك يأكلونه منقوعاً فى مرق اللحم مع ما تيسر من الاكل الدسم الذى يسقطه البك من فوق مائدته يميناً ويساراً أثناء تناوله الطعام. والويل كل الويل لمن يعبر بجانب أوانى الكلاب على جانبى البك الذى يأكل هو وكلابه فى شراهة عجيبة .

ترويضه الكلب :

وكان ضمن الحرس الأرمنتى كلب غبى متوحش، يدلله صاحب العزبة ، ويضحك كثيراً لشراسته عندما يهاجم عابر سبيل تجرأ على العبور فى أرض البك . وكان هذا الكلب بالذات ينغص علىّ هناء العيش فى الريف ، لكننى كنت أنتهز الفرص المناسبة لأنتقم

منه فى غياب سيده . وكان يحلو لى ان أروضه على طريقة اسود السيرك ، فأمسك بيدى اليسرى احد الكراسى الخيزران الخفيفة ، متخذاً منه درعاً واقياً من غدر الكلب ، أما اليد الاخرى فكانت تقبض على عصا طويلة أستفزه بها ؛ فيكشر عن انيابه بشكل مرعب ، لكنى أعاجله بساق الكرسى فى فمه فيجز عليها بأنيابه مفرغاً فيها كل غضبه وغبائه . وأظل أروضه هكذا حتى تهمد قواه من النباح والحركة والعقر فى خشب الكرسى . . عندئذ ينسحب ذليلا من المعركة ، وينزوى فى ركن بعيد ، وأنفخ صدرى فى شهيق عميق كما يفعل طرزان عندما يصرع أسداً .

والواقع أن هذه العملية لا تحتاج إلى شجاعة أو مهارة فائقة ، فإن الحيوان — سواء كان كلباً أو أسداً — ولو أنى لم أجرب الأسد ، لا يستطيع أن يخترق حصار الكرسى مهما كان جسمه مرناً رشيقاً ، ولا يستطيع أن يدور حول المدرب ليهاجمه من الخلف ، لأن أقل حركة من يد المروض تعوض عدة قفزات من الكلب ، والكلب يدور على محيط دائرة واسعة ، بينما المروض يدور حول نفسه .

لم يطل استمتاعنا بالعيش فى الريف ، فقد بدأنا نمل الهدوء والوحدة ، واشتقنا إلى القاهرة وما فيها من سينمات ودراجات وكتب ومجلات وجيلاتى وشيكولاتة وبنت الجيران !! وكان والدى قد ضاق أيضاً بغطرسة خاله وأوامره المستبدة ، فقررنا العودة

إلى القاهرة بالإجماع ، خاصة وأن بداية العام الدراسى الجديد كانت على الأبواب .

وعدت من الريف مشحوناً بتلك التجربة الجديدة التى حفرت ذكرياتها فى وجدانى ، وأصبحت فيما بعد أرضاً واقعية أقف عليها فى كتاباتى الكثيرة عن الريف . لقد استكملت بالطبع معلوماتى عن الريف من قراءاتى ومشاهداتى فى السينما والمسرح ، ومن الريفيين انفسهم ، النازحين إلى القاهرة ليحترفوا مهنة البيع والشراء ، والعمال الصعايدة الذين كانوا يعملون عند أبى فى الأعمال المعمارية . ولكن الانطباعات الأولى كان لها أعمق الأثر فى نفسى . وألهمتنى عشرات من القصص الريفية مثل « الجاموسة » و « كلب الباشا » و « الميه فى العالى » و « يستر عرضك » و « حالة مستعصية » و « الطاغية » وغيرها مما يعالج حياة الفلاح الذليل ، وجبروت الإقطاعى صاحب الأرض .

* * *

هواياتى الفنية

إن حياتى حافلة بالهوايات التى تهدهد أعصابى وتشغل فراغى. وهى رغم اختلافها النوعى على مدى مراحل حياتى ، إلا أنها جميعاً تتفق فى صفات رئيسية. أولاً أن معظمها يمت إلى الفن والابتكار بصلة. ثانياً ، أنى لا أميل إلى الهوايات التى تستنفد مالاً أو وقتاً دون عائد مفيد ، مثل لعب الورق والتدخين والخمر وجمع الطوابع، إلى آخره . وثالثاً ، فإنى أميل إلى دراسة هواياتى على أسس علمية كما سيأتى فيما بعد ، فى مرحلة النضوج .

ولنبدأ بالهوايات المبكرة . . .

تقليد الأصوات :

خلال الفترة التى قضيناها فى الريف ، كان عمى يملك بندقية صيد ممتازة ذات ماسورة مزدوجة ، وكان يعتنى بها كثيراً ، ويحفظها فى علبة مبطنة بالجوخ الأخضر ، وإذا ماخرج بها للصيد كنا نخرج معه لنحمل عنه الغنائم ، ونساعد فى الإرشاد عنها . كان

هو يمشى فى المقدمة ونحن خلفه نسترق الخطى فى هدوء حتى لا نزعج الطيور على أغصانها . وكان هدف « الحملة » فى الغالب مركزاً على طائر البوم الذى يكثر فى تلك المنطقة الهادئة ، ويزعج بنعيقه المتشائمين . وخطر لى والموكب يسير متلصصاً أن أقلد صوت البومة ، فتشاورت مع ابن عمى وانزوينا خلف حائط ، ورحت أحاكى صوت البومة فى تقليد متقن . وإذا بعمى — قائد الحملة — يشير لنا بالتوقف والتزام الهدوء ، وراح يجوس ببصره الحاد خلال الأغصان المتكاثفة ، فانفجرنا فى الضحك . فالتفت عمى نحونا فى عصبية وألقمنا حجراً من شتائمه المنتقاة .

وشجعنى إتقان التقليد على محاكاة بقية الطيور والحيوانات والآدميين والآلات ، حتى صارت فيما بعد إحدى هواياتى . وفى أرشيف تسجيلاتى الآن شريط سجلت عليه منذ سنوات قصة صوتية بعنوان «رحلة إلى الريف»، أقلد فيها حوالى ثلاثين صوتاً . وقد ربطتها جميعاً فى فكرة بسيطة لتسلية أولاد أختى . وهذا الشريط لا يجوز سماعه إلا الأطفال تحت عشر سنوات ، فهؤلاء هم الذين يستمتعون به دون أن يتطرق إلى أذهانهم الشك فى قواى العقلية !! إذ أنى اندمج فى التسجيل ما بين تقليد صوت القطار والسيارة ووقع حوافر الخيل ، إلى تقليد العصفور والكروان واليمامة والكتكوت. وعندما احتاج البناء الدرامى للقصة أن أقلد صوت الخروف والثور والحمار لم أجد بأساً من إتمام البناء حرصاً على استكمال الخط الدرامى !!

ولعله قد اتضح الآن سر تحريم هذه التمثيلية على أسماع العقلاء ؟

أما الكبار فلهم عندى تسجيلات أخرى أقلد فيها بعضهم فى نبرات صوته ولهجته ولوازم ألفاظه ، والتعبيرات التى يتميز بها . ولكن هذه التسجيلات لايسمعها إلا الخاصة من الأصدقاء .

تقليد الحركات :

وكما أهوى تقليد الأصوات ، فقد كنت شغوفاً بتقليد الحركات أيضاً قبل أن تتقيد حركتى . كنت فى طفولتى أقلد شارلى شابلن ، فأرخى بنطلون المنامة « البيجاما » قليلا حتى يبدو طويلا أكثر من اللازم ، وألبس فى قدمى حذاء أبى ، وأمسك بعصا رفيعة فى يدى ، وأرسم تحت أنفى شارباً مربعاً بقلم تخطيط الحواجب ، ثم أسير بخطوات شابلن القصيرة السريعة . مع تشكيل القدمين لزاوية منفرجة رأسها عندالكعبين . كذلك كنت أقلد فؤاد أفندى مدرس الجغرافيا ، الذى كان باحدى ساقية عرج ملحوظ يجعله يمشى بطريقة مميزة . وكنت أيضاً أقلد خالى، وكان محنى الظهر نتيجة التصاق عموده الفقرى ، وكان لايستطيع أن ينظر إلى أعلى إلاإذا ثنى ركبتيه ، ولايستطيع أن يلتفت يميناً أو يساراً إلا إذا دار بجسمه كله ، وهذا الالتصاق هو جزء من مرضى الذى ورثته عن عائلة والدتى كما سيجىء فيما بعد .

وكان والدى يخفى ضحكه من تقليدى المتقن ، ويقول معاتبا :

— حرام يا بنى أن تسخر من مصائب الناس ...

فكنت أقسم أنى لا أتعمد السخرية من عاهاتهم ، فقد كنت أحب شارلى شابلن كفنان عظيم ، وأحب مدرس الجغرافيا لأنه كان أول من شجعنى على الرسم وأهدانى نسخاً من المقتطف كما أسلفت. أما خالى فكان أحب الناس إلى قلبى ، وكان يفهمنى أكثر من الدى ويغدق على الكثير من عطفه وحنانه . ولم يكن يخطر ببالى قط أن أسخر منه أو أهزأ من عاهته ، لكنى كنت أشعر برغبة فى التقليد لا أدرى مبعثها . أما الآن فعندما أحلل شعورى هذا أجد أنه كان عملا فنياً بحتاً . فالمعروف أن الفن ينبع من عناصر ثلاثة : قوة الملاحظة ، ثم الانفعال ، ثم التعبير . وهل كان تقليدى للإنسان والحيوان يخرج عن هذه العناصر ؟ بغض النظر عن بدائية التعبير بالنسبة لسنى حينذاك ، ولو أنه لم يكن يخلو من لمسات كاريكاتورية ولم يكن تقليداً فوتوغرافياً .

هواية الموسيقى :

إنى أعتبر هواية التقليد بجانب هواية الرسم من أولى وسائل التعبير فى حياتى الفنية . أما هواية الموسيقى فقد بدأت أتعلق بها منذ سن العاشرة ، عندما اقتنيت آلة « أكورديون » صغيرة ، كانت هدية العائلة لى عندما إنتقلت من السنة الثالثة إلى الرابعة

الابتدائية . . وبدأت أتحسس النغمات على أزراره بجهودى الشخصى ، لكنى لم أصل إلى أكثر من مقاطع فولكلورية صغيرة. وكان استاذى الأول فى الموسيقى هو جارى العملاق الأسمر كمال المصرى الذى كان مثلى الأعلى فى الرسم ، وإن لم يعلمنى فيه شيئاً. لكنه فى الموسيقى دربنى على السلام الوطنى . وكان يسمى «السلام الملكى » حينذاك . كذلك دربنى على نشيد وطنى مشهور اسمه «بلادى بلادى فداك دمى » .

وعندما جرت أصابعى فى سهولة ويسر بهذين اللحنين ، تولد إرتباط قوى بين أعصاب أذنى وأعصاب أصابعى بحيث أصبحت تتحرك تلقائياً فتضغط على الزر المعين للنغمة المطلوبة ، كما يتحرك اللسان باللفظ المطلوب دون وعى بحركته العضلية . وهكذا أصبحت أعزف أى لحن بنفس السهولة التى أخرجه بها من فمى صفيراً . وكان الصفير بالفم هو وسيلتى البدائية فى العزف قبل أن أتعلم العزف على الأكورديون بالطريقة السماعية أى دون أن أدرس النوتة الموسيقية .

ولست أدّعى أنى وصلت إلى مهارة غير عادية فى العزف ، فكل هاوللموسيقى يستطيع أن يخرج أى لحن جديد من الآلة التى تمرن عليها . يكفى أن يتقن لحناً أو أثنين ويتمرن عليهما ، فيصبح السلم الموسيقى كله على أطراف أصابعه ، بل يستطيع أن يزحف على سلم ثان وثالث هابطاً إلى القرار أو صاعداً إلى الجواب..

ومن يعزف على الأكورديون يستطيع أن يعزف بسهولة على « الهارمونيكا » وهى الآلة الصغيرة التى تعمل بنفس نظرية الأكورديون مع الاستعاضة بالفم فى عملية النفخ بدلا من منفاخ الأكورديون . كذلك « البيانو » قريب جداً من هاتين الآلتين . وهكذا اقتنيت آلة « هارمونيكا » وأتقنت العزف عليها ، أما « البيانو » فلم تتح لى فرص كثيرة للعزف عليه فلم أتقنه .

وعندما التحقت بالمدرسة الثانوية ، خطر لى أن التحق بجمعية الموسيقى كى أتعلم العزف على الكمان على أسس سليمة من النوتة الموسيقية .. والتحقت بها فعلاً ، واشترى لى أبى آلة كمان جديدة ، كان ثمنها جنيهاً واحداً ، وبدأت أدرس النوتة الموسيقية مع الطلبة على يد الموسيقى المعروف أحمد رمزى ، وعندما كان يدربنا على « العفق » على عنق الكمان قال لى جملة لا أنساها .

— إن أصابعك خلقت للكمان يابنى . . لأنها طويلة ورفيعة ومرنه . .

كان هذا الإطراء من أستاذ له خبرته فى الموسيقى كفيلاً بأن يشجعنى على متابعة التدريب على النوتة والكمان ، لكنى هجرت جمعية الموسيقى بعد الدرس الثالث غير آسف.لأن الجو بين أعضاء الجمعية لم يرق لى ، فقد كان منهم طلبة كبار فى السنة الرابعة والخامسة ، وكنت أنا فى بداية السنة الأولى ، وكان هذا أول وآخر نشاط مدرسى قمت به فى المرحلة الثانوية كما ذكرت من قبل .

أردت أن أتعلم على الكمان بالطريقة « السماعى » لكنى لم أجد من يعلمنى إياها . وحاولت أن استنطقها الألحان وحدى فلم أنجح. كان لابد أن يعلمنى شخص ما قطعة أو أثنتين حتى تتدرب أصابعى على مواضع الضغط على أوتار الكمان ، وبعدها أنطلق فى العزف وأجعلها تنطق بما أريد . وظللت أنتظر الهاوى الذى يتطوع بارشاد أصابعى إلى اللحن الأول ، ولكن المرض كان أسبق منه إلى مفاصلى ، وانزوت الكمان فى ركن مهجور حتى باعها والدى بأربعة جنيهات ، أى بأربعة أضعاف ثمنها ، فالمعروف أن الكمان القديمة يرتفع ثمنها لأن خشبها يزداد جفافاً ، فيصفو رنينها، وتزداد نغماتها رقة وعذوبة .

وهكذا أخذت أتخلى عن الآلات الموسيقية واحدة بعد الأخرى كلما ازدادت قيودى وضاق نطاق حركتى ، حتى عدت الآن إلى وسيلتى الموسيقية البدائية الأولى . . الصفير بالفم .

هواية الاصلاح :

كانت ميولى وأهدافى فى الحياة محددة وواضحة ، وذلك منذ بداية المرحلة الثانوية . كانت آمالى تتركز فى كلية الهندسة ، فإن طابعها يتمشى مع مواهبى وميولى فى الرسم والعلوم الرياضية ، التى أظهرت فيها تفوقاً ملحوظاً ، فضلا عن أن مهنة والدى « كمقاول معمارى » جعلتنى أنظر إلى مهنة الهندسة بعين الإكبار . فعندما

كنت أذهب مع والدى إلى العمارات الضخمة التى يقوم بتنفيذها تحت أشراف المهندس ، أتصور هذا المهندس عملاقاً خالقاً لأنه استطاع بمجهوده الفردى أن يصمم ذلك الصرح الضخم ، وماالعمال والمقاولون إلا آلات يحركها عقل المهندس المبتكر الخلاق . وصفة الإبتكار بالذات هى إحدى مميزات شخصيتى التى ظهرت بوضوح منذ صباى المبكر . وكنت شغوفاً بالأعمال اليدوية والابتكارات الصغيرة التى تتناسب مع سنى ، فى طفولتى كنت أفك أية لعبة وأعيد تركيبها بعد أن أدرس طريقة عملها وحركتها الآلية . فإذا ما أصابها عطب أصلحها بسهولة . وهكذا احتفظت بلعب طفولتى فى حالة جيدة حتى أهديتها إلى أبناء أختى بعد عشرين عاما . فلم تلبث أن لقيت مصيرها التعس على أيديهم .

واشتهرت فى محيط الإسرة بميلى إلى إصلاح الأشياء المعطوبة أياً كان نوعها . ولم أكن أتعفف عن اصلاح أى شىء . . قفل حقيبة السيدات ، قلم حبر ، جلدة حنفية ، ضلفة دولاب ، كرسى مطبخ ، شنبر نظارة مكسور ، توصيلات كهربائية ، انشاء عشة للدواجن ،طلاء الأبواب والشبابيك بالزيت بعد المعجون والصنفرة، أو تلميع الأثاث بالجملكة،ترقيع الحوائط التى تساقط منها البياض، بالمونة والمحارة . . إلى آخر هذه الأعمال اليدوية ، التى كان يحلو لى أن أمارسها بغرض الإصلاح ، فقد كان — وما يزال — يضايقنى جداً أى أرى شيئاً معطوباً أو منفراً . ولا أطيق أن أرى

ثقب مسمار فى حائط ، فأسارع بسده. وإذا رأيت سلكاً كهربائياً يشوه جمال الحائط أعجل بنزعه أو الاستعاضة عنه بسلك مغلف داخل الحائط . وإذا لمحت بقعة فى باب أو منضدة لا أرتاح حتى أعيد طلاءها . وذلك فى حدود وقتى وامكانياتى .

وكان يساعدنى فى تيسير هذه الإصلاحات أن والدى كان يقتنى — بحكم تخصصه المعمارى — معظم أدوات النجارة والحدادة والبناء والطلاء والكهرباء . . حتى أدوات الحلاقة كان يحتفظ بها جميعاً ، من الماكينة إلى المقص إلى المشط حتى الفوطة ، فقد كان يخشى العدوى من أدوات الحلاق . وقد أغرانى وجود هذه الأدوات على استعمالها ، فكنت أغرى ابن عمى حتى يرضى بالمثول بين يدىّ لأشذب له شعر رأسه ، لكن هذه الهواية لم تدم طويلا ، فقد أراد أخى أن يجرب حظه فى تلك الهواية ، فأكل جزءاً من جلد أذنه بالمقص ، فأقسم ابن عمى ألا يستسلم لكلينا .

. . حتى ماكينة الخياطة ، كنت أغافل والدتى ، وأحاول إدارتها حتى اتقنتها بدرجة جعلت والدتى تعهد إلىّ بجلابيب أولاد مربيتى « نعيمة » ، بعد أن تقوم والدتى بتفصيلها ، فكنت أقوم وحدى بحياكة الجلابيب بأكملها ، بما فى ذلك الياقة والأساور والمردْ ، وهى عُقَدْ الرداء فى عرف العارفين.

وكنت أحياناً أتعرض للذعات الساخرين الذين يرون فى ممارسة أعمال النساء ما يتنافى مع رجولتى ، لكنى لم أهتم بتقدهم . فإذا

كانت «ماكينة» أمى لا يقربها إلا النساء، فهناك مئات من الخياطين المحترفين الذين يصنعون الجلابيب والقمصان وما إليها . بل أنى لم أتورع عن تعلم تخصصات النساء ، من باب العلم بالشىء ، كحبك الصوف « التريكو » فقد كانت تبهرنى مهارة الجنس اللطيف فى تحريك الإبرتين الطويلتين ، ودفعنى الفضول والغيرة إلى تعلم هذا الفن النسائى ، حتى صنعت لنفسى «كوفية» من الصوف ، ثم زهدت فى هاتين الإبرتين اللتين تبعثان على السأم بحركاتهما الرتيبة المملة.

وقد ذاعت شهرتى فى التصابيح حتى تعدت حدود الشقة ، فقصدتنى بنت الجيران لأجرى عملية تجميل لدميتها المبتورة الأطراف المفقودة العينين ، وتمت العملية بنجاح مما أغرى جارة أخرى مسنة أن تحضر لى ذات يوم موقداً بترولياً « وابور جاز » وهى تسألنى فى سذاجة أن أفحصه لأكتشف لها مكان الخلل !! وبالطبع اعتذرت فى رقة بأنى لست متخصصاً فى وابورات الجاز.

هواية الابتكار :

وإذا كان الإصلاح يحتاج إلى شىء من التفكير وحسن التصرف فإنه لا يرقى إلى مستوى الابتكار والاختراع . ولى فى هذا الميدان جولات بسيطة تتناسب مع تفكيرى فى مختلف مراحل العمر .

بدأت محاولاتى فى الثالثة عشرة من عمرى ، حيث صنعت ،

ولا أقول اخترعت مظلة هابطة «باراشوت» ، استوحيت فكرتها من الحرب الطاحنة حينذاك سنة ١٩٤٠ . وكانت بالطبع صغيرة الحجم ، ووضعت بدلاً من الجندى الهابط علبة من الصفيح ، ملأتها بالزلط ، وكنت ألقى مظلتى الهابطة من سطح البيت ، وأتمتع بمنظرها الجميل وهى تتهادى سالمة إلى أرض الشارع . وبعد نجاح الفكرة وهبوط المظلة مفتوحة ، خطر لى أن أضع بدل العلبة قطة صغيرة حتى تضفى على اللعبة شيئاً من الواقعية ، لكنى خشيت أن تنتهى التجربة الحية بمأساة بشعة ، فعدلت عن المحاولة .

وعندما أصلحت دمية بنت الجيران ، كنت قد درست دقائق أجزائها ، فخطر لى أن أصنع دمية كبيرة متحركة ، لكن هذه المهمة تحتاج إلى مكابس وقوالب ومواد معينة . وهنا تضطرنى الحاجة إلى التصرف بوسائلى البدائية لتحقيق الغرض المطلوب بإمكانياتى المادية المحدودة .

صنعت الجسم والأطراف من القماش ، وحشوته بالقطن ، وطليته من الخارج ببوية الزيت عدة طبقات ، حتى أصبح جسد الدمية « العروسة » له ملمس ناعم طرى ، أقرب إلى جسم الإنسان من الدمى الأخرى . أما الرأس فقد حرت فيها قليلا ، فإذا صنعتها من القماش فلن أستطيع تشكيلها بملامح إنسان متقنة ، وإذا صنعتها من الجبس أو مادة صلبة فسيكون وزنها ثقيلاً ويسهل تحطيمها . وأخيراً ، اهتديت إلى فكرة بسيطة ، فأتيت بشريحه من القطن

الطمي وبللتها بالصمغ ، ووضعتها على وجه دمية قديمة — كانت عندى — بعد أن دهنته بالزيت حتى لا يلتصق به القطن . وبقطعة خشب ناعمة رفيعة رحت أضغط على طبقة القطن برفق حتى أخذت ملامح الوجه الذى تحتها ، وتركتها ساعات لتجف ، ثم نزعتها بسهولة فأصبحت كقناع متقن ، وصار من السهل تكوين الرأس . أما مشكلة الشعر فكانت سهلة ، لأنى استخدمت شعراً حقيقياً كان منذ سنوات طويلة يشكل ضفيرة تتدلى من رأس أمى ، ولما شاعت بدعة قص شعور النساء ، جرزت ضفائر أمى ذات الشعر الأسود الناعم الغزير ، فاحتفظ بها أبى كتذكار ، وجئت أنا بعد ثلاثين عاماً كى أعيده للحياة مخلداً إياه على رأس دميتى الجميلة . ثم استكملت اللمسات الأخيرة على الشفاه والعينين والحواجب بالألوان الزيتية .

وبعد حوالى شهر اكتملت عندى « عروسة » متقنة متحركة ذات شعر آدمى يسيل لها لعاب الأطفال الذين يرونها عندى حتى الآن . . ومنذ أكثر من عشرين عاما . وقد عرض على بعض الآباء شراءها بمبالغ لا بأس بها ، لكنى رفضت أن أبيعها . . رغم أنها لم تكلفنى سوى بضعة قروش . . . لأنها تحمل شعر أمى .

ومنذ سنوات قليلة حاولت إحدى الصديقات العمليات أن تغرينى بإنشاء مصنع صغير لإنتاج هذا النوع من العرائس ، لكن أعمالى الأدبية لا تتيح فرصة لهذا العمل المربح .

أما اختراعى التالى فجاء فى سن السابعة عشرة . وكان جريئاً .. مفرطاً فى الجرأة . إذ صور لى غرورى أن أحقق معجزة يتطلع إليها علماء العالم كأمل بعيد المنال . وهى فكرة « الحركة الذاتية » . فالمعروف أن أى محرك لابد له من طاقة تحركه . . كالبترول أو الفحم أو الكهرباء أو مساقط المياه، أو الطاقة الشمسية، أو المروحة الهوائية ، أو الزنبرك كما فى الساعة ، إلى آخر هذه الوسائل التى تحتاج إلى تكاليف وجهود بشرية كالبترول والفحم ، أو أنها غير دائمة كالمروحة الهوائية والطاقة الشمسية والزنبرك ، والمساقط المائية لا تتوافر فى كل بلد . أما المحرك الذى ينتج الحركة الدائمة الذاتية دون أى وقود أو مؤثر خارجى فهذا هو الذى فكرت فى اختراعه .

وإذا كانت قوانين الطبيعة تؤكد أنه من المستحيل أن نحصل على أية حركة من محرك إلا إذا استخدمنا لذلك طاقة أكبر ، أى أن الطاقة المستهلكة فى المحرك تكون دائماً أكبر من الحركة الناتجة عن المحرك. رغم هذا فإنى مقتنع بفكرتى التى تنتج الحركة بلا وقود، لأنى فى الواقع استخدم فى اختراعى طاقة من نوع غير مألوف ، وهذه الطاقة هى الجاذبية الأرضية .

لا تظن يا أخى القارىء أنى جننت ، أو أن المرض زحف إلى عقلى كما كان يقول المرحوم والدى عندما يشطح بى الخيال . كما أنى لست مصراً على صحة فكرتى ، وقد ناقشت فيها ثلاثة

مهندسين متخصصين فى الميكانيكا خلال العشرين السنة الماضية ، فتناول أحدهم الفكرة بفتور مستبعداً احتمال نجاحها ، وآخر تحمس لها ، ثم لم يجد من ذاته الدافع على تنفيذها عملياً ، وثالث بدأ ينفذها متحمساً ثم ابتلع الكسل حماسه . لكن الثلاثة اقتنعوا بمنطق الفكرة كتصميم على الورق ، أو على الأقل لم يجدوا فيها ثغرة غير معقولة . وهذا يكفى لاثبات أنى لست مجنوناً .

بقيت فى سجل اختراعاتى أفكار أخرى أعتز بها.أحدها تصميم العمارة التى أسكنها الآن ، والأخرى اختراع مفاصل صناعية يستعيض بها الإنسان عن مفاصله التالفة . وقد أشاد بها أساتذة الجراحة فى لندن ، كما نوهت عنها الصحف المصرية فى حينها .

أما الفكرة الثالثة ، فهى تصميم «إنسان آلى» يساعدنى على القيام من السرير إلى الكرسى المتحرك .. وبالعكس ، وسوف أتكلم عن كل منها بالتفصيل فيما بعد .

* * *

قد يدهش القارىء لهذه الاهتمامات العلمية ؛ رغم أن مهنتى التى اخترتها بمحض اختيارى هى ممارسة الأدب، وإن تعددت قوالبه وأشكاله إلا انه لا يمت إلى العلوم الطبيعية والرياضية بصلة ؛ وقد سبق أن ذكرت أنى أحب الجبر والهندسة، والواقع أنى لا أدرى تعليلاً واضحاً لهذه الظاهرة ، خاصة إذا أضفنا اليها الرسم الذى احترفته فترة من عمرى .

وقد يكون الثقافتى الافقية الموسوعية دخل كبير فى تشتيت هواياتى . كذلك عندما أتأمل مواهبى الحقيقية التى أمارسها فى لذة واندماج ؛ أجد أن رغبتى الأصيلة تتركز فى الابتكار والخلق. فالأدب القصصى نوع من الابتكار، بل هو خلق شخصيات وأحداث وحيوات كاملة لم يكن لها وجود قبل أن يخطها القلم . والرسم كذلك خلق وابداع فى مناظر الطبيعة وملامح الكائنات الحية وفى مزج الألوان، بل ان الرسم الكاريكاتورى الذى احترفته بالذات عبارة قصيرة ساخرة بأسلوب مرئى مجسم. والهندسة النظرية وما يتبعها من ارقام حسابية فيها مجهود عقلى خلاق لا يعتمد على الحفظ والاستظهار . والهندسة العمليه فيها خلق وابتكار . لهذا فان الديكورات التى تزين بيتى كلها من تصميمى . كذلك قطع الأثاث التى تضمها جدران مسكنى ، صممتها كلها وفقاً لاحتياجاتى وميولى. ولم أشتر شيئًا جاهزاً إلا أثاثات المطبخ . ولو وجدت من ينفذ تصميماتى بالصاج على مستوى متقن لما ترددت فى وضع أفكارى موضع التنفيذ .

والسبب فى أنى لا أشترى أثاثًا جاهزاً ، هو أنى لا أحب أن أعتمد على أذواق الآخرين فى اختيار حاجياتى ، فالأمزجة تختلف ، ومايراه غيرى جميلاً قد لايجد هوى فى نفسى، حتى ولو كان الوسيط يفوقنى خبرة وفناً . فالخبرة تساعده على اختيار الخامات الممتازة والصناعة المتقنة ، أما الذوق فقد لايوافق الصورة التى

فى خيالى . وبما أنى مجبر على الاحتفاظ بالأثاث اسنوات طويلة فلابد أن أكون راضيـًا عنه ، وأن يكون متلائمًا مع ميولى . ولأنى لا أستطيع أن أجوس خلال الأسواق بحثاً عما يروق لى . لهذا كنت مضطراً أن أصب رغباتى فى تصميم مفصل دقيق. وأعهد به إلى أحد النجارين . واتفق معه على نوع الخامات : فلا يلبث أن يجسم خيالى إلى واقع ملموس يرتاح له بصرى .

وأحياناً احتاج لمواصفات خاصة تتناسب مع وضعى الأفقى الاضطرارى. وهذه المواصفات لشذوذها لا تتواجد فى الأسواق، فالجأ إلى هوايتى استحثها على تذليل العقبات . مثال ذلك عندما اقتنيت جهازاً للتليفزيون . فقد واجهتنى مشكلة وضعه فى مكان يتناسب مع نظرى المعلق فى السقف حتى لا يرهقنى التطلع إليه . . فكان علىّ أن أصمم فكرة لدولاب خاص مرتفع يستقر التليفزيون فوقه فى وضع متناسق وكأنه جزء لا يتجزأ منه . وراعيت انسجام الخطوط الخارجية للتليفزيون مع خطوط الدولاب، الذى استخدمت باطنه فى حفظ الكتب فى تنسيق جديد مبتكر .

وإذا كانت الحاجة أم الاختراع كما يقول المثل ، فإنى أدين بكثير من أفكارى لهذه القيود التى تدفعنى إلى التخلص منها أو الحد من قسوتها . وسوف أتحدث عن هذا فى الوقت المناسب . حتى لا أسبق الحوادث .

* * *

بداية المأساة

إنى لا أومن بالنحس والحظ ، وأعتقد أنهما مترادفان لمدلول واحد ابتكره إنسان فاشل أراد أن يلقى عن كاهله مسئولية الفشل، ولا شك أن لكل مجتهد نصيب على الأرض . ومن يزرع لا بد أن يحصد، وقد يتأخر موسم الحصاد قليلا أو كثيراً لكنه آت حتمـًا لا ريب فى ذلك . أما الذى لا يزرع فلن يحصد أبداً .

لكن هناك عوامل أخرى لا يستطيع أن ينكرها الإنسان . المتأمل . وإن كان العقل العلمى لا يؤمن بها بسهولة . ومن خصائص تفكيرى المتفائل أنه لا يستسلم لليأس ، وبالتالى فهو دائب التأمل فيما يعترض حياتى ، ويحاول دائماً أن يجد تفسيراً منطقياً لكل ما ألاقى من خير أو شر . ويظل تفكيرى يقظاً مرهفاً لكل ما يدور حولى مدققاً ومحللاً لكل ما يصادفنى. وأحاول — بقدر طاقتى — أن أتحكم فى حياتى ومصيرى ، ولا أدع الأمور تجرى

فى أعنتها وأنام خالى البال كما يقول الشاعر المتواكل . وإن كانت هذه الطريقة تريح صاحبها ، فينعم ببلادته، وتتقاذفه أمواج الحياة، وتحرك المصادفات دفة قاربه ، فتلقى به تارة على جزيرة الأحلام وتارة إلى وادى الشقاء ، وقد يغوص إلى القاع لو صادفته صخرة ضخمة لا يستطيع التغلب عليها .

إننى مثلا إذا شعرت بصـــداع ، لا أكتفى بأن أتناول قرصين من الأسبيرين فتزول الآلام وأنسى هذا العرض الذى يحدث لكل إنسان . لكنى أدقق فى البحث والتأمل وأحاول أن أستنجد بمعلوماتى الطبية ، وأستعيد حوادث الساعات الأخيرة لأجد سبباً لهذا الصداع . هل هو ناتج عن ارتفاع فى ضغط الدم فآخذ قرصاً من « السربازيل » ، أم ناتج عن انخفاض ضغط الدم — والصداع قد ينشأ عن كلتا الحالتين — فأشرب قدحاً كبيراً من القهوة ، أم هو ناتج عن الإرهاق فى القراءة ، أو عن إمساك ، أو . . . أو . . . إلى آخر هـــذه الخواطر التى قد تصل إلى حد الوسوسة ، لكنى لا أستطيع أن أتخلص منها ، فليس المهم عندى أن يزول الألم ، ولكن المهم أن أعرف سببه حتى لا يخدعنى التخدير فيخفى عنى سبب العلة فتتفاقم ، أو أستعمل علاجاً مضاداً فتزداد الحالة سوءاً .

الواقع أن أسلوبى هذا فى الحياة أكثر إرهاقاً ، لكنه أسلم عاقبة . كذلك إذا ما لاحظت بحاستى المدققة المتأملة أن جهودى المضنية

تتحطم على صخرة مجهولة إسمها النحس ، فإنى لا أستطيع أن أغفل هذه الظاهرة وتبرز أمامى علامات الاستفهام فى تساؤل ملح ، ثم أبدأ من جديد وكلى ثقة فى كفاءتى ، فإذا بالفشل يتكرر ، مرة وعشرة ومائة ، دون ما سبب واضح منطق مقبول .

لقد آمنت فى فترة ما من حياتى بأنى إنسان منحوس ، وأن نحسى يمتد إلى كل من يتعامل معى أو يحاول أن يساعدنى على تحطيم هذا النحس . واست أسوق الحديث جزافاً دون تجربة أو دليل. لكنى لا أريد أن أسبق الحوادث وأقفز إلى نتائجها . ولنبدأ قصة كفاحى مع النحس من أولها .

أستطيع أن أحدد بسهولة نقطة التحول فى حياتى من السعادة والنجاح والصحة الموفورة ، إلى التعاسة والفشل وقائمة الأمراض. ثم أستطيع كذلك أن أحدد بسهولة نقطة التحول الثانية التى انتهى عندها كابوس النحس وأشرقت لى الحياة بعد عبوس طويل دام سبعة عشر عامـًا كاملة .

كانت نقطة البداية يوم هجرنا البيت الذى كنا نسكنه بجوار كوبرى الملك الصالح بعد أن قضينا فيه جميعاً أحلى وأسعد أيامنا . وبعد أن عدنا من هجرتنا إلى الريف، اتخذنا لنا سكنـًا آخر فى ميدان فم الخليج ، بحيث نكون قريبين من مدرسة الابراهيمية الثانوية، وبحيث لا نخرج عن هذا الحى الآهل بالعمال، حيث يستطيع والدى أن يجمع منهم من يريد عندما يشاء . كما أن إيجاره كان لا يزيد عن

جنيهين ، وهو المبلغ الذى كان والدى يصر على ألا يدفع غيره إيجاراً للمسكن الذى يأوينا .

كان البيت قديماً ، يتراقص بمن فيه إذا مرت أمامه سيارة نقل، لكنه كان متسعاً ويطل على ميدان ، ومن بعده متنزه كبير ، ثم فرع سيالة النيل،أى أن أمامه متسع من الفضاء لا يحده البصر ، وهذه هى ميزته الكبرى .

كان ذلك فى نهاية صيف سنة ١٩٤٠ .

منذ ذلك التاريخ بدأت الأزمات المالية تضغط بشدة على ميزانية أبى لكساد النشاط العمرانى فى البلاد بسبب الحرب كما أسلفت . ثم انفصل عنه شريكه المعلم محمــــد سليم الذى ذكرته فى حديثى السابق عن الوالد ، وقلت إنه كان يسد الثغرات فى شخصية أبى ، كفرط الخجل وفرط الحساسية بالكرامة لدرجة المرض . وعنه ورثت هاتين النقيصتين للأسف ، ولو أنى استطعت أن أروضهما كثيراً فيما بعد . وهاتان النقيصتان تفيدان الغير ، ولكن على حساب صاحبهما . وهكذا كان الحال مع والدى ، فقد أفاد الكثيرون من خبرته وسمعته الناصعة فى السوق ولدى الشركات الكبرى ، وأصبح بعض عماله من المقاولين الكبار ، واحتلوا الميدان وبرعوا فيه . وكان فيهم من الوفاء ما جعلهم يمدون أيديهم إلى أبى ، لكن مرضه المزمن المسمى بالكرامة كان يأبى عليه دائماً أن ينحنى للقدر .

وظلت الأزمة المالية تزداد سوءاً.

كانت هذه أولى حلقات النحس التى ظللنا نرسف فيها سبعة عشر سنة كاملة كما ذكرت وكما سيجىء فيما بعد .

وفى أكتوبر سنة ١٩٤٠ ، تابعت دراستى الثانوية فى السنة الثانية حيث بدأ إحساسى الحقيقى بالقرف من تلك البيئة الهمجية .

وهكذا أسلمتنى حلقة من النحس إلى حلقة أخرى أقسى وأبشع ، هى ذلك المرض اللعين الذى أقعدنى فى الفراش منذ ربع قرن . ولو أن المرض بدأ فى منتصف هذه المرحلة ، أى فى الأجازة الصيفية بين السنة الثانية والثالثة ، وبالتحديد يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٤١ ، ذلك التاريخ الذى لن أنساه ، لأنه الحد الفاصل بين منتهى الصحة والعافية ، ومنتهى الألم والعجز الجسمانى . ومن نعم الخالق أنه ابتلانى فترفق فى بلواه ، فقد تسرب الداء إلى مفاصل جسمى تدريجياً ، بحيث كان يطفىء طاقتى الحركية شيئاً فشيئاً ، ولولا هذا لتعرضت لصدمة نفسية لا يحتملها بشر .

وقد يصاب بعض الناس بالشلل المفاجىء ، فيحتملونه صابرين أو صاغرين ، ولكن الشلل يختلف تماماً عن مرضى ، فالشلل يصيب عادة كبار السن بعد أن يفقدوا جزءاً كبيراً من حيويتهم ويميلون بطبيعة شيخوختهم إلى السكون والهدوء . لكن مرضى يختار ضحاياه من المراهقين الذين يفيضون بالحيوية والحركة . والشلل يصيب نصف الجسم ، ويترك النصف الآخر ليشعر صاحبه

أنه مازال على قيد الحياة . أما مرضى فقد تسرب إلى جسدى كله ولم يترك لى غير جزء ضئيل من المرفقين مع حركة الأصابع التى يهددها من وقت لآخر ، ولو أنى أعتقد أن عدالة السماء لن تتركه يحتل هذا الجزء الحيوى من جسمى . كذلك فالشلل يترك الجزء المصاب ليناً بلا ألم ولا إحساس، أما مرضى اللعين فينهش المفاصل فى ضراوة مؤلمة . وأخيراً فالشلل نذير بموت وشيك يريح صاحبه ويفك قيوده بعد أن تنطلق روحه الحبيسة من جسده المقيد ، أما مرضى فهو — للأسف — لا يتعامل مع عزرائيل ، وينفرد بالضحية فيفتك بها بلا رحمة ولا يغيثها منه أقصى ما وصل إليه الطب الحديث . وهو لا يترك — كمعظم الأمراض الخطيرة — منفذاً لعزرائيل الرحيم ليضع حداً لهذه المعركة غير المتكافئة، والتى يخرج منها المرض اللعين منتصراً دائماً ، بعد أن يقيد ضحيته . . تماماً كما يفعل العنكبوت بفريسته .

لهذا قلت إن السماء كانت رحيمة بى لأنها لم تفاجئنى بالجرعة المريرة دفعة واحدة ، فإن احتمالها يفوق طاقة البشر .

* * *

فى مساء ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٤١ ، كنت ألعب مع أخى وأبناء عمى مباراة فى كرة القدم مع بعض جيران بيت عمى فى الروضة . وكانت هذه عادتنا فى معظم أمسيات الإجازة الصيفية ، فقد كنا نعتبر شارع البسطامى ملعباً لنا، وكانت شوارع الروضة هادئة جداً

فى ذلك العهد ، نحدد فيها المرمى ببعض الحجارة ، أما الكرة نفسها فكانت أحياناً كرة قدم وأحياناً كرة تنس ، لكنها لم تكن أبداً « كرة شراب » ، فقد كنا نخجل من اللعب بها أمام بنات الجيران.

بعد أن أنهكنا اللعب فى ذلك اليوم ، عدنا كالعادة سيراً على الأقدام — أخى وأنا — من الروضة إلى بيتنا إياه فى ميدان فم الخليج ، وهى مسافة هينة بالنسبة لفتيان مثلنا . وفى منتصف الطريق شعرت بألم فى كعب قدمى اليمنى كأن مسماراً ينفذ فى حذائى كلما وطئت قدمى الأرض .

لم أكن أعلم أنه فى تلك اللحظة قد تحدد مصيرى ، وانقلبت كل خططى وآمالى رأساً على عقب . لم أكن أعلم أن هذه الوخزة البسيطة هى الشرارة الأولى التى سوف تندلع منها نار متأججة تسرى فى عظامى وتلتهم مفاصلى . لم أكن أعلم ساعتها ، وأنا أستهين بهذا الألم المحتمل ، بأنه نذير بقيود أبدية رهيبة تفرض علىّ السكون فى عالم متحرك مجنون ، يجرف فى طريقه كل ساكن مستكين .

حمداً لله أنى لم أكن أعلم ، فإن ما حدث بعد ذلك يفوق احتمال البشر ، ولو كنت أعلم لما وجدت فى نفسى الشجاعة الكافية لخوض المعركة . ولأنهيت حياتى قبل أن يكتنفها هذا الكابوس الأسود الطويل .

* * *

لم يكن الروماتيزم ضيفاً جديداً على العائلة، فقد كانت والدتى تشكو منه على فترات متباعدة ، فتتعاطى له شيئاً من الاسبرين أو الساليسيلات فتخف حدته . لكنه والحمدلله لم يقس عليها بعنف أو يحد من حركتها يوماً ما. وإن كان ينغص حياتها بزياراته المتفاوتة.

وقد وعيت لنفسى منذ طفولتى وأنا أردد دعائى لأمى بالشفاء من الروماتيزم ، ودعائى لوالدى بالشفاء من الصداع ، الذى كان يعاوده فى نوبات قاسية من وقت لآخر ، حتى أصبحت هـــذه الدعوات جزءاً من صلاتى التى أرددها قبل النوم .

اصطحبنى والدى إلى طبيب الحى ، الذى وصف لى الأدوية التقليدية للروماتيزم، على اعتبار أنها وعكة عادية لن تلبث أن تزول، لكن الأخطبوط بدأ يمد ذراعه إلى ركبتى اليمنى ، ثم إلى الركبة اليسرى ، ثم إلى الفخذ الأيمن ...

لم تعقنى هذه الآلام المحتملة عن متابعة دراستى الثانوية فى أكتوبر سنة ١٩٤١ مستعيناً بالأدوية المعروفة والوصفات البلدية، وأدوية الوحدة العلاجية للطلبة . وفرضوا على نظاماً خاصاً فى الأكل امتنعت فيه عن أحب الأطعمة إلى نفسى وهى اللحوم والمخللات .

ولما لم تجدِ الأدوية البسيطة فى دحر المرض عند بدايته ، فقد أبدى ابن عمتى — وكان طالباً بكلية الطب — تخوفه من هـــذا الروماتيزم المتنقل الذى من خصائصه أن يمتد إلى القلب .

انتفض والدى فى جزع ، وأدرك أن المسألة ليست عادية كما كان يتصور ، وسحبنى من يدى إلى أستاذ الأمراض الباطنية الدكتور أنيس سلامه ، وكان من أكبر الأخصائيين فى أمراض القلب . فأكد لنا أن القلب سليم تماماً ، وليس معرضاً لأى خطر ، لأن نوع الروماتيزم الذى أعانى منه لا يؤثر على القلب . وخرجنا من عنده فرحين بهذا التأكيد المطمئن ، وبقائمة من الأدوية الحديثة — حينذاك — للآلام الروماتيزمية .

وقد صدقت نبوءته بالنسبة للقلب ، الذى مازال يخفق فى صحة وشباب ، أما الأدوية الأخرى فلم تستطع أن توقف زحف الأخطبوط .

مضى شهران والحالة تزداد سوءاً ، وبدأ الداء يزحف إلى العمود الفقرى ، مما أرعب والدى وألقى مزيداً من الأضواء على الخطر الداهم . وراح يفكر فى طبيب آخر على مستوى الأساتذة الجامعيين ، وبدأنا بالدكتور عبدالعظيم يوسف سلامه أستاذ الأمراض الروماتيزمية ، وكانت عيادته الرهيبة مليئة بأجهزة الكهرباء والأشعة . . فأمر بإجراء تحاليل كثيرة ، وطلب صوراً بالأشعة للمفاصل المصابة . ثم أوصى بعلاجى بالموجات الكهربية القصيرة ، وبقائمة أخرى من الأدوية . وأشار بالإقلال من الحركة ما أمكن . فاستصدرت أذناً كتابياً من الوحدة العلاجية المدرسية يسمح لى بالتخلف عن حصص الألعاب الرياضية . ولا أنكر أن هذا الامتياز قد أسعدنى إلى

حد ما من الناحية النفسية ، لأنه كان يمنحني نوعاً من الحرية لا يتمتع بها زملائى ، ولو أن هذه المتعة كان ينغصها شعورى بالعجز عن حركاتهم الحرة الفتية . لكن الانطلاقة الروحية كانت تعوض بعض الإحساس بالعجز الجسدى .

وتحضرنى بهذه المناسبة قصة أليمة مازالت تحز فى نفسى رغم انقضاء ربع قرن عليها ، هى قصة صفعة رعناء أصبت بها ظالماً وعدواناً لغير ماسبب جنيته . ومما يزيد أثرها فى نفسى أنها كانت نتيجة تسرع أرعن من المعتدى بسبب عجزى عن الحركة السريعة.

كان الفصل هائجاً يموج بعشرات من الطلبة المراهقين ، وقد اندمجوا فى لحن تهريجى ، يسلون به أنفسهم فى انتظار المدرس الذى تأخر بضع دقائق، وهذا أمر مألوف خاصة إذا كانت الحصة بعد الفسحة . فالمدرس حينئذ يترك فرصة للتلاميذ حتى يصعدوا إلى حجراتهم . . وكنت أجد صعوبة فى ارتقاء السلم ، فأتحامل على نفسى فى خطوات بطيئة ، فأصل متأخراً إلى حجرة الدراسة . وما كدت أخطو بداخلها فى ذلك اليوم المشئوم ، حتى فوجئت بأحد المدرسين يقتحم الفصل كالثور الهائج ، وراح يصفع كل من يقابله فى قسوة ووحشية . وكان من نصيبى صفعة قوية ألهبت خدى ، وألصقتنى مبهوتاً بالسبورة . وأسرع الباقون إلى أماكنهم مشيعين بالركلات واللكمات . . ثم خرج الثور الهائج وهو يدمدم وسط السكون الذى أطبق على المهرجين .

لم يكن هذا الثور — وإنى آسف إذ لا أجد وصفاً غير هذا يناسب جسده الضخم وشراسة ملامحه واندفاعه المتسرع — لم يكن مدرساً للفصل، بل إنه لم يدرّس لى قط لحسن الحظ خلال السنوات الثلاث التى قضيتها فى تلك المدرسة . ولم يكن مشرفاً منوطاً به حفظ النظام . ولا أدرى حتى الآن ما الذى أثار حفيظته إلى هذا الحد. لعله كان نائماً فى حجرة المدرسين القريبة من حجرتنا ، فأزعجته الأغانى التهريجية ، وأقلقت أحلامه السعيدة ، ولعله يومها خرج مهزوماً من معركة فى بيته ، فأراد أن يثأر منا لكبريائه المهدرة .

وهكذا أمضيت السنة الثالثة الثانوية متحاملاً على نفسى أكافح المرض والبيئة العفنة ، حتى انتهى العام الدراسى مكللاً بالنجاح . وانتهت معه صلتى بالمدارس النظامية إلى الأبد ، وإن لم تنقطع صلتى بالعلم ذاته .

* * *

فى صيف ١٩٤٣ بدأ علاجى يتخذ طابعاً جدياً مستميتاً حتى استقبل العام الدراسى الجديد وقد تخلصت من الكابوس الثقيل . ولجأنا إلى قمة طب العظام فى مصر — حينذاك ولا يزال — الدكتور محمد كامل حسين . وكان صريحاً منذ البداية فقال لوالدى :

— هذا المرض بصراحة ليس له علاج . . وليس له سبب معروف . . قد يصيب الإنسان دون مقدمات . . فيغزو مفصلا أو اثنين . . أو أكثر . . ثم يخمد فجأة وبدون علاج . . .

ثم التفت نحوى وقال وهو يربت كتفى مشجعا :

– وأعتقد أن المرض قد استنفد قواه معك . . وسوف يجلو قريباً عن المفاصل التى احتلها جسدك . . .

لم ألحظ النظرات المتبادلة بينه وبين أبى الحزين، الذى خرج معى مطأطئاً رأسه فى يأس وكمد . وما كدنا نركب « التاكسى » الذى سيعود بنا إلى البيت ، حتى هز والدى رأسه بشدة كأنما ليبعد عنها اليأس والاستسلام . وأشار إلى السائق بأن يتجه إلى عيادة صديقه الدكتور سيد عفت[1] ، أستاذ الأمراض الباطنية بالقصر العينى ، وكنا لم نلجأ إليه حتى هذه المرحلة ، فقد كان والدى يتحرج من استشاراته الطبية ، لأنه كان يرفض فى كرم وإصرار أن يتقاضى أتعاباً . وأمام الحالة اليائسة التى وصلنا إليها ، اضطر أبى إلى زيارته فى ذلك اليوم عساه أن يستنشق فى رحاب علمه نسمة من الأمل . لكنه لم يشأ أن يخدرنا بأمل كاذب ، فهمس لأبى فى غفلة من أذنى مؤكداً تشخيص الدكتور محمد كامل حسين ، ثم أضاف :

– ولو أن هذا لن يمنعنا من المحاولات المستمرة ، فإرادة السماء فوق كل حكمة أرضية .

---

(١) الدكتور سيد عفت هو الذى تحدثت عنه فى بداية هذا الكتاب ، وقلت انه صديق والدى منذ أن كان طالبا فى كلية الطب، وهو الذى شهد مولدى ، وعاصر مرضى منذ البداية . وظل يحاول بكل ما وصل اليه الطب الحديث ، رغم تأكده من عدم جدوى العلاج .

لم أسمع أنا بالطبع نعى مستقبلى الضائع ، وإنما عرفته فيما بعد من والدى . لأن الدكتور سيد عفت يومها أتقن دوره فى التظاهر بالأمل العريض أمامى ، حتى لا يحطم معنوياتى بانفجار مفاجىء ، وترك للقدر مهمة هدمها لبنة بعد أخرى .

الحمى الصناعية :

كانت أولى محاولاته فى علاجى تنطوى على فكرة غريبة ، هدفه منها أن يسبب لى حمى شديدة صناعية مؤقتة ، لهذا لجأ إلى حقن مصل التيفود فى وريدى بنسبة ضئيلة فى البداية ، ثم ارتفع بها تدريجياً على مر الأسابيع حتى يظل مفعولها على الجسم ثابتاً . ولشد ما كانت دهشتنا بعد أول حقنة عندما بدأت آلامى تزول مع ارتفاع درجة الحرارة ، حتى إذا مابدأ جسدى ينتفض بالحمى كانت آلامى قد زالت تماماً ، وبدأت أحرك ساقى تحت الأغطية الثقيلة فى حرية تامة . وغلبتنى الفرحة حتى دمعت عيناى ، وخطر لى أن أقفز من سريرى وأجرى منطلقاً فى أنحاء الدار ، لكنهم منعونى حتى لا أصاب بالتهاب رئوى نتيجة تعرضى للهواء . وفى اليوم التالى هبطت الحرارة نسبياً ، فقمت أتجول فىالشقة دون أن أستند إلى عصاى التى كانت تلازمنى فى الشهور الأخيرة .

ذهلنا للمعجزة، واعتقدنا أنه قد آن الأوان لينجلى الكابوس الجاثم على صدورنا . لكن خاب فألنا بعض الشىء عندما بدأت

الحرارة تجلو عن جسدى تدريجياً ليعود الألم كى يحتل مراكزه القديمة . وقبل أن يحين موعد الحقنة الثانية كان الأخطبوط يقهقه فى شماتة لفشل المحاولة .

جاءت الحقنة الثانية لتحيي الأمل فى عظامى ، وتراجع الألم أمام الحرارة الزاحفة ، ثم عاد إلى قواعده فى نهاية الأسبوع ليسلمنى إلى الحقنة الثالثة . . وهكذا إلى أن وصلت كمية المصل المحقونة فى دمى إلى سنتيمتر مكعب كامل فى مرة واحدة ، وهذا قدر ضخم إذا عرف ان المليمتر الواحد يجعل الجسم كبر كان محموم ينتفض تحت الأغطية الثقيلة . وانتهت التجربة بالفشل ، لكنها أسعدتنى فترات قصيرة كنت أعقد فيها هدنة مؤقتة مع الألم ، وأعيش فيها كإنسان سليم .

إنى أدفع راضيـًا عشر سنوات من عمرى الآن ، لأسعد بهدنة كهذه أتحرر فيها من قيودى ، لأنطلق سيراً على قدمىّ ، أجوب أنحاء بلدى لألقى نظرة سريعة على معجزات الثورة التى غيرت معالم وطنى . أزور مصانع حلوان ، وأطير إلى السد العالى وأتنزه على كورنيش النيل ، وأزور مبنى التليفزيون . وأطير إلى بور سعيد بلد الأبطال ، وأقطع قناة السويس فى زورق بخارى ، أتنسم فيه عبير الحرية بعد أن أصبحت القناة ملكـًا خالصاً لنا . ثم أعود إلى مخدعى قبل أن تنتهى الهدنة بلحظات فأستسلم لقيودى

راضيا قرير العين غير آسف على السنوات العشر التى ستقتطع من عمرى ، رغم أنى أحب الحياة .

لكن هذه الحقن لم تعد تجدى فى القيام بدور همرشيلد فى عقد هدنة مؤقتة بينى وبين الأخطبوط اللعين ، فإن جسدى لم يعد فيه مفاصل . . لقد دمر المستعمر الدخيل مواقعه قبل أن يجلو عنها.

ولكن . . مالى أنفعل فأسبق تسلسل الحوادث . . فلنعد إلى حيث كنا .

* * *

لم يبق على افتتاح المدارس غير شهر واحد لتستقبلنى السنة الرابعة الثانوية . . وما زلنا نسابق الزمن ، حتى أستطيع أن أترك العصا من يدى وأتابع دراستى . لم أكن أتصور أن تضطرنى أية قوة للتخلى عن التعليم ، أو أتعثر فيه فيلحق بى فتيان العائلة الذين كنت أسحبهم ورائى . وكان والدى يتطلع إلى التقويم « النتيجة » المعلق على الحائط فى رعب وقلق جعله ينفـــذ كل رأى مقنع أو غير مقنع .

البؤر الصديدية :

بدأنا أولاً برأى أجمع عليه الأطباء ، وهو أن نستأصل أية بؤرة صديدية مختفية فى ثنايا جسدى . ومن أبرز القواعد الاستراتيجية التى تصلح لهذه البؤرات هى الأسنان ، التى ينخر فيها السوس ،

واللوزتان اللتان يعاودهما الالتهاب من وقت لآخر .

بدأنا بالأسنان ، فحصها الطبيب بعناية فوجدها سليمة متينة ومن النوع الصدفى الذى لا يتآكل بسهولة ، لكنه اشتبه فى ضرسين ينذران بالتسوس، ولا يمكن أن يؤديا إلى مثل حالتى الروماتيزمية. لكنه شاء أن يحسم الموقف ، ويقطع الشك باليقين ، فأعمل فيهما إبرته الحفارة حتى اطمأن إلى نظافتهما . ثم حشاهما بمادة فضية صلبة. ومنذ ذلك الحين ظللت عشرين عامًا لم تضطرنى أسنانى إلى استشارة طبيب . إذن فلم تكن أسنانى هى السبب فى الحالة الروماتيزمية. ولم يعد أمامنا غير استئصال اللوزتين . وعلى نفس مستوى الاهتمام الذى كان يوليه الوالد لعلاجى ، اتفق مع أستاذ أمراض الأنف والأذن والحنجرة الدكتور محمد فطين على استئصال اللوزتين من حلقى .

كانت هذه أول مرة أدخل فيها حجرة العمليات ، وكنت متماسكًا أمام التجربة الجديدة ، فقد كنت — كما ذكرت من قبل — كتوماً لآلامى ومخاوفى وكل مشاعر الضعف. وهذا يزيد من وطأة الأحداث على نفسى المرهفة . وكان والدى على العكس يبالغ فى الصراخ إذا واتته نوبة صداع ، ويبالغ فى ادعاء الفقر والخراب إذا ألمت به أزمة مالية ، ولعله كان فى الحالتين يستدر عطفنا واهتمامنا . وأحمد الله أنى لم أرث عنه هذا الاستضعاف ضمن ماورثته من نقائصه وحسناته . ولعل عدم رضائى عن هذا العيب

جعلنى أقاومه فى نفسى . ولو أن تصرفه فيه تنفيس عن أحاسيسه بينما كتمانى وكبتى لمشاعرى يضاعف من وقعها على نفسى ، ولا عبرة باعترافاتى الصريحة فى هذا الكتاب ، فإنى مسئول فيه أمام ضميرى أن أسجل الحقائق، وأنا واقف على الحياد خارج نفسى ، فإحساسى بالواجب هنا يغلب طبيعتى ، أو هكذا أحاول وأرجو أن أكون قد وفقت .

كان والدى لا يخفى جزعه الشديد من الإقدام على هذه العملية. فقد كانت تجرى — حينذاك — بطريقتين ، إحداهما تسمى « الجلوتين » أى المقصلة ، وفيها يدخل الجراح آلة قاطعة فى حلق المريض تحيط باللوزة ، وفى حركة واحدة يقطعها من جذورها ، كما كانت المقصلة تفصل الروؤس فى الثورة الفرنسية . . وهذه الطريقة لها مضاعفات ، أهمها النزيف الذى قد يودى بحياة المريض ، خاصة إذا كان قد تعدى سن الطفولة . أما الطريقة الثانية فهى طريقة التشريح ،وهى المتبعة الآن ، لكنها كانت حينذاك طريقة حديثة لا يجيدها إلا الأساتذة ، وفيها يسلخ الجراح اللوزة عن غشائها الخارجى،ويربط أوعيتها الدموية بعناية ثم يستأصلها ، وبهذا يتفادى النزيف حتى فى كبار السن .

ورغم أن والدى قد استودع فلذته فى يدى أستاذ بارع ، فقد كان شاحب الوجه سارح الذهن ، يكثر من ملاطفتى ومجاملتى، مما جعلنى أرثى له وأضاعف من تجلدى أمامه ، حتى أخذنى الحماس

رغم قلق وخوفى بالطبع — فجعلت أعابثه ضاحكًا متندراً من خوفه وقلقه . وعندما أعدت غرفة العمليات بعيادة الطبيب، جاء الممرض يستدعينى ، وكانت لحظة رهيبة فعلاً ، كدت أنسى فيها خوفى أمام حالة أبى المسكين الذى كان يخفى عنى دموعه حتى لا يضعف مقاومتى ، فشجعنى هذا على أن أقوم بتمثيلية مرحة على حساب أعصابى المشدودة . وعندما حاول أن يسندنى فى طريقى إلى الغرفة الرهيبة ، تخلصت منه فى رفق ، وناولته العصا ، وشددت قامتى وهتفت بصوت حرصت على ألا يخرج مهزوزاً :

— دعك عنى يا أخى . . هل تظننى طفلاً . . إبنك رجل فلا تخف عليه .

وكما كانت الحرارة الشديدة تطرد الألم مؤقتًا عن مفاصلى ، فقد كان كذلك الحياء المحرج ، والرهبة الشديدة ، والرعب الهائل ، والفرحة الطاغية ، واللذة العارمة . . كل هذه الانفعالات العنيفة المفاجئة ، كانت تخدر آلامى إلى حد كبير ، ولا يلبث أن يزول التخدير بزوال المؤثر أو ضعفه . ولست أدرى سبباً قاطعاً لهذه الظاهرة ، لكنى أعتقد أن غدة معينة تتأثر بالحالة الانفعالية الشديدة ، فتفرز هرموناً له مثل هذا التأثير المخدر على الجسم كله ، فتستجيب له الآلام الجسدية بما فيها المفاصل . والدليل الذى أستند إليه فى هذا التخمين ، أن الإنسان أثناء المعركة الحامية لا يكاد يحس بإصاباته ، وقد يفاجأ بها عندما يفيق من انفعاله النفسى . وهناك

حقيقة علمية تقول إن الغدة فوق الكلى « الادرينالية » تفرز مادة الادرينالين فى الدم عند الغضب أو الرعب الشديد، لتكسب الجسم خصائص معينة تهيئه للدفاع عن نفسه . ولعل من هذه الخصائص تحمله للألم أو عدم إحساسه بالألم .

وهكذا كانت الرهبة هى المخدر الذى جعلنى أترك العصا لأبى ، وأخطو داخل حجرة العمليات متصنعاً المرح والشجاعة ، التى لم تكن فى الواقع تعوزنى تماماً فى مثل هذه المواقف ، لكنى فقط كنت أستكمل فيها مايجعلنى أبدو بمظهر البطل المقدام . ويبدو أن مالقيته من استحسان وإعجاب قد نمى فى نفسى هذه النزعة حتى صارت طابعاً مميزاً لشخصيتى يعرفه عنى المحيطين بى، ويضربون به المثل للصغار، حتى تورطت فعلا فى هذا الموضوع ، وأصبح من العسير أن أتراجع عن الصورة التى رسموها لى فى مخيلتهم !

أول عملية جراحية :

كانت التجربة ممتعة حقاً ، فقد تم كل شىء بسرعة فائقة ، حتى أن ما أعيه عما حدث فى غرفة العمليات لايتعدى دقيقة أو اثنتين، لم تكونا كافيتين لأتبين وجوه الواقفين أو أتأمل معالم الحجرة . ففى ثوان أرقدونى على « الترابيزة » ، وفى اللحظة التالية إمتدت يدان من خلفى فوضعت على وجهى كله قناعًا من القطن حجب الرؤية عن عينى ، وأغلق فمى ولم يعد ظاهراً من خلال تجويف

فى وسط القناع غير أنفى . وفى اللحظة التالية كان رذاذ بارد يغمر أنفى من نفاثة « بخاخة » سمعت صوتها دون أن أراها . وكان الرذاذ كثيفاً ذا رائحة نفاذة ، فتوقفت عن الشهيق حتى تخف الرائحة ، فأحسست أنى سأختنق ، وتحركت ذراعاى بحركة لاشعورية كى أرفع هذا القناع الخانق ، وفى تلك اللحظة الرهيبة التى لا أنساها أحسست بيدين من فولاذ تقيدان حركتى، حاولت أن أهز رأسى ، لكنهم كانوا مستعدين لمثل هذه الحركات المتمردة. وشعرت فعلاً بأنى كالغريق الذى اضطر للتنفس داخل الماء . وأحمد الله أن هذه اللحظة الرهيبة مرت خاطفة ، ويبدو أن طبيب التخدير قد أدرك أنه أسرف فى الهجوم برذاذه الخانق ، فتوقف قليلا حتى يتيح لى فرصة التنفس . وكان أحرى به أن يبدأ رفيقاً من البداية .. فالأمر لايحتاج لأكثر من ثوان سريعة يشعر المرء بعدها بأن يسقط فى غيبوبة سحيقة . وأذكر أنى لحظتها كنت أحاول أن أتيقظ لما حولى ، ولعل حالة الاختناق نبهت حواسى لبرهة خاطفة . ثم أحسست وأنا مغمض العينين ، بأن شيئاً كالضباب يكتنفنى ويحجب عنى كل احساس بما حولى ، وخيل لى أن روحى تنسلخ عن جسمى المادى وتعلو فى الهواء فى شكل كرة رمادية بلون السحاب، أخذت تبتعد عنى بسرعة حتى صارت كالذبابة ثم تلاشت، وتلاشى معها كل تفكيرى الواعى . وكانت هذه الذبابة هى آخر ما أذكره قبل أن أسقط فى الغيبوبة .

عندما أفقت من المخدر ، وجدت نفسى ما زلت على «ترابيزة» العمليات ، وكأنى لم يمض على إغفاءتى لحظات ، وسألتهم فى دهشة: « ما هذا .. هل انتهت العملية ؟ .. » فجاءنى الرد من أبى بالإيجاب، وهزتنى فرحة طاغية لانتهاء كل شىء بهذه السرعة والبساطة، ورأيت أبى يلاحق الطبيب بأسئلته القلقــــة ، فهتفت فى مرح حقيقى هذه المرة :

— إذا كانت العملية بهذه السهولة فأنا مستعد لإجراء عملية أخرى الآن . . .

وما كدت أنقل بهجتى واطمئنانى إلى قلب والدى حتى فاجأتنى نوبة قىء من تأثير المخدر ، وذعر والدى إذ رآنى أتقيأ دماً ، وكاد يغمى عليه رعباً ، لكن الطبيب أسرع يشرح له أن هذه الدماء تسربت إلى معدتى أثناء العملية ، وهذا أمر مألوف ومعروف ولا يعنى انفجاراً فى موضع العملية كما كان أبى يظن .

ثم نقلونى إلى حجرة داخلية مفروشة كحجرة استقبال ، وأرقدونى على كنبة عريضة مريحة . وقال الدكتور فطين لوالدى :

— تستطيع أن ترتاح فى بيتك وأنت مطمئن . . وسوف يسهر الممرض على راحته هنا .. وإن شئت أن تبقى معه فلا مانع..

ثم التفت إلى الممرض وقال :

— سأسهر الليلة فى سينما ستراند.. وسأعطيك رقم المقعد حتى تستدعينى إذا لزم الأمر . . وبعد السينما سأكون فى البيت . . .

دهش والدى لهذه الاحتياطات المريبة ، وقدّر أن معناها احتمال نزيف خطير . لكن الطبيب أفهمه أنها مجرد احتياطات تقليدية . ولما رأى من ملامح والدى أنه لم يقتنع قال يطمئنه :

ـــ إذا تقيأ دماً قاتماً فلا تخف .. فهذا مما تسرب إلى المعدة، بدليل أن لونه تغير من اختلاطه بعصاراتها . . أما إذا تقيأ دماً أحمر . . فعليك أن تستدعينى على الفور . . لأن هذا يكون نزيفاً جديداً من مكان العملية .

نمت فى هذه الليلة نوماً عميقاً وإن كان متقطعاً ، لكن أبى بات مستيقظاً على مقعد مريح بجانبى . وفى الصباح حضر الطبيب مبكراً ، واطمأن إلى حالة العملية ، وصرح لى بالعودة إلى البيت، ولم تمض إثنتا عشرة ساعة على إجراء العملية .

وفى البيت لزمت السرير مترقباً جلاء المرض عن مفاصلى بعد أن استؤصلت البؤرة الصديدية . ولكن طال ترقبى وانتظارى ، واستفحلت آلامى حتى لم تعد العصا كافية لحفظ توازنى عندما أذهب لقضاء حاجة . وفوجئت يوماً بجدى يدخل حجرتى ومعه عكاز خشبى قدمه لى ، بينما اختلجت عيناه اللتان تجمعت فيهما عبرات حزينة .

وأحسست بقبضة قاسية تعصر قلبى ، وأنا أرى العكاز لأول مرة ، بعد أن رفضت مراراً ألا أسمح بدخوله البيت ، فقد كان وجوده فى نظرى دليلاً على الاستسلام لمصيرى الموحش . ولكن

عندما قدمه لى جدى الحنون ، لم يسعنى أن أرفضه ، فقد كنت فى أشد الحاجة إليه .

بكيت لأول مرة :

وفى أكتوبر ١٩٤٢ بدأت السنة الدراسية ، وأنا طريح الفراش تماماً . وكان يوم افتتاح المدارس من أتعس أيام حياتى ، لم أحتمل الفراش ، فتساندت على عكازى، وخرجت إلى الشرفة ، وجلست متطلعاً إلى عشرات التلاميذ القاصدين مدارسهم فى خطوات نشطة متفائلة . ولمحت من بينهم بعض من أعرفهم ، لكن أحداً لم يلتفت نحوى فى مكانى المنزوى من زاوية الشرفة . وما كان يخطر لهم أنى سأكون فى هذا المكان فى مثل هذا اليوم .

يومها بكيت حسرة وكمداً ، لأول مرة ، منذ بدأت معركتى مع المرض والألم . يومها عرفت أنى خسرت الجولة الأولى مع هذا المستعمر الدخيل الذى احتل مواضع الحركة من جسدى .

ورأيت من مكانى فى الشرفة ، الرجال يغادرون بيوتهم إلى أعمالهم واحداً بعد الآخر ، حتى النساء العاملات كن يقطعن الطريق أمامى فى قوة وعزم . ولم يبق خلف الأبواب الموصدة غير العجائز والحاملات والأطفال الذين لم تدركهم سن المدرسة الإبتدائية . . وأنا .

وحز فى نفسى أن أرتبط مع هذه الفئات بقاسم مشترك . .

حو الضعف والخمول . . مع فوارق نسبية ليست فى مصلحتى . فالعجائز يميلون بحكم شيخوختهم إلى الخمول والسكينة ، والأطفال لا يعدمون وسيلة لتصريف طاقاتهم داخل البيت وأينما كانوا ، وربات البيوت لديهن من الواجبات ما يقطعن بها الساعات الطويلة المملة بين الجدران . أما أنا فقد كانت لى طاقة الأطفال ، وعجز الشيوخ ، الأولى تدعونى إلى الإنطلاق والأخرى تقيد جسمى وتخنق روحى .

حاولت أن أقرأ فلم أستطع تركيز أفكارى ، حاولت أن أستمع إلى الراديو ، فلم تطاوعنى أحزانى ،وتراءت لى ساعات اليوم طويلة مملة ، فدخلت حجرتى ،وألقيت بنفسى على سريرى أو زنزانتى الانفرادية ، واستسلمت لنوبة من اليأس قاتلة .

مع الدجل والمشعوذين :

بدأنا مرحلة جديدة ، تتسم بالمحاولات المستميتة اليائسة التى اتخذت طابع الشعوذة والجهل والعشوائية ، بعد أن أعلن العلم يأسه من علاجى فى صراحة وأسف . ولم يكن من المعقول أن نتوقف عن المحاولات . . أية محاولة وأية تجربة وأية قشة يتعلق بها الغريق . . فإن الاستسلام معناه الموت ، الموت فى أبشع صورة ، ذلك الموت الذى يحطم النفس ، ويشل الحركة ويعرقل التقدم ، ويطفىء الحيوية ويثبط الهمة .. ثم لا يدع للضحية إلا أنفاساً

واهنة تتردد فى يأس ، لتعلن فى استخذاء أن صاحبها ما زال على قيد الحياة ، ويالها من حياة تافهة خير منها الموت .

هكذا بدأنا نتخبط بين أفكار السذج ومدعى المعرفة . وفى بلدنا عادة سخيفة هى فى الواقع نابعة عن شعبنا العاطفى الودود . فإن كرمهم يأبى إلا أن يتدخل فى حيـــاة الآخرين بمعلوماتهم العلاجية ، ولا أقول الطبية ، فإن الطب برىء منها ومن ادعيائها . وكم قاسيت الأهوال من هذه الفئة التى تتطوع بالتشخيص والعلاج فى ثقة وإصرار ، بل وفى الحاح وحماس ، ثم فى تأنيب ولوم لإهمال العلاج الذى أفادوا منه شخصياً ، عندما كانوا يعانون من نفس الأعراض . وهم فى هذا غالباً ما يجافون الحقيقة عن جهل أو سذاجة ، لا عن تضليل متعمد . كان كل ألم فى الساق أو الكتف هو روماتيزم فى رأيهم ، وكل روماتيزم يجب أن يستجيب بداهة للعلاج الناجع الذى أبرأهم .

عشرات وعشرات من الوصفات البلدية السخيفة كانوا يقترحونها ويلحون فى تجربتها ، ويتحمس لها أهلى رغم عدم اقتناعى بها ، لكنى اضطر إلى التسليم لإجماعهم عندما يشهرون فى وجهى سلاحهم المعتاد :

ــ طبعاً .. أنت ترفض العلاج لأنك مستريح هكذا .. لا مذاكرة ولا تعب .. يبدو أنك استعذبت الراحة والكسل ...!!

كانت هذه الكلمات تعذبنى وتحرجنى وتحطم عنادى فى رفض

العلاجات السخيفة ، التى كان يتعطف علىّ بها أدعياء الطب من الهواة والمحترفين . وحجتهم القوية فى الاقناع ذلك المثل القديم الذى ورثناه من العصور الجاهلية « اسأل مجرباً ولا تسأل طبيباً ».

لقد حرت فى هؤلاء المجربين الهواة ، وحاولت أن أفهم سبب اضطهادهم لى واستخدامى حقلاً لتجاربهم الفاشلة ، لاشك أنهم لا يضمرون لى حقداً أو عداء ، بل العكس هو الصحيح غالباً. ولكن هناك عوامل أخرى تدفعهم إلى مثل هذا التطوع المؤذى .

إن الإنسان بطبيعته ميال للشكوى واستعراض آلامه وأمراضه وتجسيمها ، إما ليستجدى عطف الناس عليه ، أو ليثبت بطولته فى تحملها . ومن هنا نلاحظ أنه إذا اجتمع بعض الناس ، فقد يبدأ أحدهم بالشكوى من نوبة البرد « الفظيعة ! » التى أقعدته فى الفراش ثلاثة أيام كاملة ! كان الله فى عونه . فينبرى له أحد الجالسين بشرح مفصل عن وعكة الزكام التى إنتابته فى الشتاء الماضى وكادت تودى بحياته لولا ستر من الله ! وهنا يتذكر أحد الحاضرين مأساته مع البرد الملعون الذى أصابه بالكساح منذ يومين، مع أنه جاء من بيته البعيد سيراً على ساقيه « الكسيحتين !! ». ويظل الحاضرون يتلقفون أطراف الحديث ذى الشجون ، كأنهم فى مباراة يتباهون فيها بمواهبهم الفذة فى مراوغة أشباح المرض وعزرائيل الموت، ولا ينسون بالطبع أن يذكروا وسائل العلاج مؤكدين توصياتهم بالاستفادة من خبراتهم الباهرة .

وإذا كان بينهم مريض فالويل له من الحاحهم . حينئذ يتذكر كل منهم وجيعته السابقة ، وقد يتذكر حالة مشابهة لأحد معارفه أو أقربائه ، فيتطوع مشكوراً بسرد قصته بالتفصيل ، محاولا أن يجعل منها صورة طبق الأصل من حالة المريض الذى يوجه إليه النصيحة ، ومتجاوزاً عن كثير من الفروق التى قد توحى للمريض بأن حالته تختلف فيتشكك فى العلاج الموصوف .

هكذا كانت تتكاتف على أعصابى عقد الثرثرة، والمباهاة، وإدعاء المعرفة ، واستجداء العطف أو الاعجاب . وكنت أضطر إلى الرضوخ للتجارب السقيمة حتى لا أتهم بأنى استمرىء حياة الكسل والراحة .

ما أقسى تفكيرهم ، وهل يستمرىء السجين حياة القضبان ؟.. وكيف كانوا يحسون ما بى ، وأنا أكبت أحزانى فى صدرى حتى لا أبدو مستضعفاً يستجدى الرثاء ، حتى أن والدى كان ينخدع أحياناً بمظهرى السعيد ، عندما يسمعنى أترنم بأغنية مرحة فى صفير مرتفع ، ويتهمنى ببلادة الشعور .

كنت أثور أحياناً ، وأحقد على الذين لم يفهمونى ، وأحياناً أكظم غيظى وأتطلع إلى السماء متمتماً : « ربى أغفر لهم .. أنهم لا يعلمون » .

* * *

بدأنا بأفكار معقولة عبارة عن دهانات حريفة تحدث التهاباً

موضعياً وسخونة فى الجلد ، ثم تبرز على سطح الجلد فقاعات مائية مصحوبة بحكة شديدة. وهذه الفكرة يعترف بها الطب ، وجربها معى بعض الأطباء ظناً منهم أن آلام مفاصلى نتيجة برد عابر ، لا يلبث أن تطرده الحرارة الموضعية الناتجة من اندفاع الدم وتجمعه عند المفصل الذى توضع عليه المادة الملتهبة . وتسمى هذه الطريقة « الحراقة » بكسر الحاء وتشديد الراء . ورغم أن الطب أعلن فشله معى فى هذه الطريقة البدائية ، فقد صمم « المجربون » بأن أعيدها بمواد أخرى من العطارين ، أرحمها الفلفل الأسود والشطة والخردل « المستردة » .

الحمصة :

ولما لم تُجْدِ هذه الالتهابات السطحية، أشار أهل الخبرة والمعرفة بتجربة عملية «الحمصة» ، التى بدأت بتشريط بقعة صغيرة من ساقى اليمنى بشفرة حلاقة عادية ، ثم وضعوا فوقه فص ثوم مدقوق كالعجينة، ثم ربطوا عليه لليوم التالى. وأوصونى بألا أفك الضمادة مهما حدث . ويبدو أنهم كانوا يعرفون ما يسببه الثوم الحامى على جرح جديد ، لكنى تحملت لليوم التالى ، وعندما رفعت الضمادة صاح النطاسى خبير الحمصة فى زهو وحماس لنجاح الخطوة الأولى، وهى ظهور صديد على الجروح التى أحدثها بشفرة الحلاقة . وهذا

طبيعى جداً فى جرح ملوث مهترىء ، لكن الخبير قال بلهجة العالم الواثق :

— أنظروا . . ها هوذا الصديد الذى يسبب الألم ...

ومصمصت إحدى النساء الحاضرات وقالت فى دهشة وأعجاب:

— يا سلام !.. ألم أقل لكم إن هذا المرض لا يفهمه الأطباء؟.. ليتكم ما ضيعتم الوقت والمال وراء الأطباء ..!

فقال خبير الحمصة بتواضع :

— لا بأس .. لا بأس .. كل شىء بأمر الله .. وقد آن الأوان وسوف نخرج كل الصديد الموجود فى جسمك من هذا الثقب ...

وأخذ يشرح فى لهجة العالمين ببواطن الأمور كيف أنه سيضع حبة من الحمص الجاف فى هذا الثقب المهترىء ، حتى لا يلتئم قبل أن يستخرج منه كل الصديد المنتشر فى جسدى والذى يسبب لى هذه الآلام المفصلية !!

كدت أنفجر غيظاً من هذا الدعى الجاهل ، الذى استطاع أن يقنع الموجودين بنظريته الساذجة . وكانت معلوماتى المتواضعة من قراءتى الخاصة تؤكد لى أن أى جسم سليم تجرى فيه مثل هـــذه القرحة الملوثة لابد أن يفرز صديداً ، وحاولت أن أشرح لهم هذا الرأى لكن والدتى قالت فى عتاب :

— يابنى استهدى بالله ودعك من المكابرة والعناد . . هذه

وصفة مجربة .. وإذا لم تنفع .. فهى لن تضر ..

واستسلمت كالمعتاد ،خاصة وأن استمرار العملية لم يكن مؤلماً إلا عند استبدال الحمصة كل يوم بحمصة جديدة جافة ، حتى هذا كان ألماً محتملا ، فلم أر بأساً من مسايرتهم فى تلك العملية المقرفة. ومع الوقت كانت الحمصة تغوص فى ساقى حتى أصبحت تختفى فى لحمى بأكملها ، ولا يستطيعون أخراجها إلا بالضغط على جانبى الثقب لأنها تكون محشورة فيه بعد أن تتمدد بفعل الرطوبة فيتضاعف حجمها . ومن قواعد تلك العملية أن توضع ورقة خضرا من نبات الخروع على الثقب فوق الحمصة ، فإنها تعمل على « تشغيل » القرحة المتقيحة ، التى استمرت حوالى شهر تؤدى دورها بنجاح. أقصد أنها لم تلتئم ولم تبخل على الخبير المدعى بالصديد الذى ينشده ، لكنها بالطبع لم تكن لها علاقة بمرضى ، فاقتنعوا أخيراً بإغلاق هذا الثقب الذى لم يوصلهم إلى بيت الداء .

وفى أيام قلائل . أمكن تطهير الجرح ، فانقطع الصديد ، لكن الحفرة لم تلتئم حتى الآن . . بل تكونت فوقها قشرة سميكة لا تلبث أن تنفصل عند أى احتكاك فتنزف دماً ، وأعالجها بالوسائل الطبية المطهرة ، فتتكون فوقها قشرة جافة تسدها إلى حين . . وهكذا . . ولم يصدق للأسف ظن والدتى حينما قالت إنها إن لم تنفع فلن تضر .

حلقة زار :

كانت منذ بداية المرض تتردد فى الأفق كلمات عن الحسد والعين والنظرة ، والأسياد . وتعددت نصائح الخبراء الهواة بعمل جلسة زار نسترضى فيها الأسياد . وما أكاد أسخر من أسيادهم هؤلاء حتى يتمتموا فى إشفاق وخوف : « اللهم أجعل كلامنا خفيفاً عليهم . . سامحوه والنبي يا أسيادى . . إنه صغير جاهل » .

ورغم أنهم كانوا يؤيدون وجهة نظرى فى معارضة فكرة الزار أساساً ، إلا أنهم لم يروا بأساً من أن أنتهز أول فرصة متاحة لأحضر جلسة زار فى مكان آخر ، حتى يكون هذا بمثابة اختبار لجسمى . فإذا كان « ملبوساً » بالعفاريت أو الأسياد كما يسمونهم ، فإننى سأنفعل « بالدقّة » المناسبة وتحضر علىّ الأسياد ، أى تنطق بلسانى وتطلب مشتهاتها . ثم بإرضائها وتلبية طلباتها نعقد معها صلحاً دائماً ، بموجبه ترفع غضبها عنى !

وجاءت الفرصة عندما عقدت جارتنا فى نفس البيت حلقة زار بكامل اجراءاتها ولوازمها . ورغم أن مثل هذه الجلسات لا يحضرها الرجال — إلا فريق أبو الغيط المحظوظين — فقد سمحوا لى بالحضور بصفة استثنائية ، إكراماً للجوار ، أو لأنى لم أكن قد بلغت بعد مبلغ الرجال ، فقد كنت مازلت أتعـــثر فى العام الخامس عشر من عمرى .

أفسحوا لى مكاناً بجوار الباب حتى لا أخوض فى أكوام الحريم المرصوصة على الأرض . ودخلت أحجل على عكازى ، يدفعنى الفضول لمشاهدة الجلسة العفاريتى المثيرة بطقوسها الغريبة وطبولها التى تستهوينى دقاتها إلى حد بعيد . وما كادت ترتفع حولى مصمصة الشفاه ، وكلمات الرثاء ، حتى دفع الحياء إلى رأسى بدماء ساخنة ، فتفصد جبينى بالعرق واشتعل وجهى بحمرة الخجل . واتخذت مكانى بين التعليقات المشفقة من طراز « ياكبدى على شبابه » و « ياقلب أمك ياحبيبى » إلى آخر هذه التعبيرات التى أمقتها ولا أطيق سماعها . . حتى الآن . . لأنى ماتخيلت يوماً أنى أضعف من هؤلاء المشفقين ، حتى لو اقتنعت بوجهة نظرهم فإنى لا أحب أن أكون موضع شفقة إنسان .

كانت « الكودية » الزنجية تقود التخت المتواضع المكون من حوالى خمسة عازفين بعضهم من النساء ، أحدهم يدق على البندير ، وآخر يدق على الرق ، وثالث يعزف على الناى ، وآخر حالك السواد يلف عجزه بقطعة عريضة من القماش تتدلى منها كمية ضخمة من حوافر الأغنام المفرغة ، يصدر عنها صوت موسيقى رتيب عندما يهز العازف وسطه فى حركة ترددية متكررة ، فيعطى اللحن طابعاً بدائياً رهيباً ، نقلتنى ايقاعاته إلى أواسط أفريقيا . أما الكودية نفسها فكانت تدق على الطبلة وتغير اللحن من وقت لآخر . هذا سودانى ، وهذا مغربى ، وهذا تركى . . إلى آخر هذه الألحان الراقصة

ذات الإيقاع العنيف .

ثم حمى وطيس الحفل عندما خلع راقص فرقة أبو الغيط « طاقيته » فإذا تحتها شعر نسائى طويل ينساب على قفاه وكتفيه ، ثم راح يدق الصناجات « الصاجات » وهو يتراقص فى حركات تشنجية حتى يثير صاحبة الزار ، التى راحت تتثاءب وتختلج ، ثم قامت تتهادى فى ثوبها الأبيض الملوث بدماء الذبيحةالتى استرضوا بها الأسياد . وراحت تتراقص أمام أبو الغيط وتقلد حركاته ، ثم ازدادت سرعة الإيقاعات وتسارعت معها الحركات المتشنجة ، حتى سقطت صاحبة الزار هامدة من الأعياء . وبدأت المدعوات يستجبن واحدة بعد الأخرى للدقة التى تستهوى كلاً منهن ، فإما أن تتراقص فى ميوعه ودلال ، أو تأخذالموضوع مأخذ الجد فترهق نفسها فى حركات عنيفة تهد كيانها .

كل هذا وأنا قابع فى مكانى ، مأخوذاً بما حولى ، مذهولا من تصرفاتهم الجنونية ، مستمتعاً بالإيقاعات الموسيقية العنيفة . لكنى للأسف ولدهشتهم لم أستجب لأية دقة حتى يكتشفوا نوع العفاريت التى تحتل جسدى العليل .

كانوا يسألونى من وقت لآخر إذا ماكنت قد شعرت بشىء فأصدقهم القول وأجيب بالنفى . ويلحون فى السؤال فأقول إنى فى الواقع منسجم ومنتش بالموسيقى فقط . فيظنون أن هذه هى

البداية المبشرة لاستجابة الأسياد . . . حيث يستنطقونها بلسانى ، ومن ثم يسترضونها بالإستجابة لطلباتها فتفك عنى القيود .

لهذا كانت الكودية تركز علىّ نشاطها وتوحى لضاربة الدف بالاقتراب منى حيث تزداد حميتها فى الدق عالياً فوق رأسى مما يزيد فى إحراجى وحيائى ، ولما كانت بشرتى أقرب إلى البياض ، فقد كانت حمرة الخجل تفضح ارتباكى ، فتعتقد الكودية أنى بدأت أستجيب لدقاتها ، فيلوح لها أمل فى أن نستدعيها لتقيم لى حفلة خاصة . وتدفعها حاستها الخبيرة لتركيز جهودها على الصيد الجديد . فقامت من جلستها على الأرض وكانت غير بعيدة عنى ، واتجهت نحوى وفى يدها مبخرة يتصاعد منها دخان معطر ، وراحت تطوف بالمبخرة فى حركة دائرية فوق رأسى ، وهى تتمتم بتعاويذ مفرداتها كلمات مفهومة ، لكنها فى مجملها لا تعطى معنى مفيداً . ولما رأتنى لم أتحرك أو أهتز تناولت الوشاح « الطرحة » الكبير من فوق رأسها ، وصنعت منه شبه خيمة تضم تحتها رأسى ورأسها والمبخرة ، كأنها تريد أن تنفرد بأسيادى حتى يأمنوا لها فى السر . لكنى لم أشعر بشىء سوى الخجل والارتباك الممتزج بنشوة ورهبة من تلك الدفوف التى تقرعها الأيدى فى عنف متزايد .

الواقع أنى رغم إنكارى لفكرة الزار بالذات ، كنت أود فى تلك اللحظة أن أشعر بشىء غير طبيعى فأستسلم له راضيا دون عناد . وراودنى أمل باهت فى أن أكون على خطأ فى سخريتى من

هؤلاء العفاريت ، بل اعترف بأنى فى تلك اللحظات الرهيبة رحت أعتذر فى سرى ، لما بدر منى فى حق العفاريت . . اللهم احفظنا واجعل كلامنا خفيفاً عليهم . . !

انتهت التجربة بالفشل طبعاً . وندمت عن اعتذاراتى . وظللت بعدها فترة طويلة أصب عليهم سخريتى ولعناتى حتى أشفى غليلى . أما رد الفعل بالنسبة للمتحمسين للزار فقد كان لدهشتى ممعناً فى التبجح ، فقد واجهونى بالرد التقليدى الدائم :

— طالما أنت غير مؤمن بالعلاج فلن يفيدك بشىء ...

مامعنى الايمانه ؟

الإيمان .. هذه الكلمة التى يفسرها كل إنسان وفق هواه . . فبعض الناس يذكرونها مرادفة للتسليم بفكرة دون تفكير أو إعتراض . وبعضهم يذكرونها فى مجال العقيدة بمعنى التدين الذى أساسه الإيمان بالله عز وجل . وآخرون يذكرون الإيمان بمعنى الثقة . فاذا آمن الشخص بشىء أو بإنسان فمعنى هذا أنه يقدره ويحترم صفاته الطيبة . والذى يؤمن بفكرة أو عقيدة أو نظرية يعنى أنه مقتنع بها وبصحتها ، إلى آخر مفاهيم الإيمان فى أذهان الناس .

وفى اعتقادى أن أعلى مراتب الإيمان هو الذى يأتى على مراحل متعاقبة بترتيب معين . تبدأ بالشك والانكار ، ثم تجىء

التجربة والإختبار، ثم الاقتناع والإيمان الراسخ الذى لا يتزعزع. فان الشك فى البداية يكسب الحذر والتدقيق وامعان الفكر اثناء مرحلة التجربة. والثقة فى البداية تدفع إلى التهاون والتسرع فى التجربة.

وهذا المفهوم هو قمة الإيمان فى رأيى، الذى أطبقه فى القضايا العلمية، إذا مابزغت أمامى فكرة غريبة ينكرها عقلى لأنها لا تتفق مع ميولى وخبرتى. فإن منهجى العلمى فى الحياة يحتم علىّ مرحلة التجربة والإختبار التى توصلنى إلى الاقتناع والإيمان الراسخ.

أما العلاقات الشخصية، فأنا لا أقابلها بالشك والظن السيء، بل أقف منها موقفاً حيادياً حتى تحدد التجربة مصيرها. وأحياناً افترض الجانب الخير حتى يثبت العكس، عملا بالمبدأ القانونى الذى ينص على أن يظل المتهم بريئاً حتى تثبت إدانته. وهذا مايوقعنى فى بعض المآزق بسبب إفتراض حسن النية فى الآخرين، وإن كان هذا المبدأ يجر علىّ المشاكل، فانه يكفل العدالة وراحة الضمير، فليس أقسى على نفسى من أن أظلم إنساناً بريئاً.

وإذا كنت أفترض الخير فى الإنسان ذاته، فإنى لا أستطيع أن ألغى عقلى أمام نصائح الجاهل الدعى. فانى أفترض الخطأ فى معلوماته، مع إحتفاظى لنفسى بحق التجربة إرضاء لضميرى المحايد، مالم يكن الأمر أتفه من أن يستحق التجربة.

وهكذا كنت أقف موقف التحدى والعناد من هؤلاء الدجالين

والجهلة وادعياء الطب ، والمشعوذين ، والخبراء الهواة وأقصد بهم ذلك النوع الذى يلح فى النصيحة الضارة وهو لجهلة مؤمن بفائدتها. وهذه الفئة الأخيرة أكثر إرهاقاً لأعصابى . فان الدجال المحترف يسهل علىّ إيقافه عند حده ، أما الدعى الجاهل ، فلا سبيل إلى تجريحه لأنه يهدف فعلا لمصلحتى .

لذلك كانت كلمة الإيمان تثيرنى ، فهى تعنى من وجهة نظرهم التسليم بلا تفكير أو اعتراض ، والثقة البلهاء فى فكرة متوارثة دون مناقشة . والواقع أن هذا الإيمان الساذج قد يفيد أحياناً كعلاج نفسى. فان هؤلاء النسوة اللاتى يلتمسن الشفاء من جلسات الزار ، لا شك أن الإيمان العميق قد يفيد فى تحسين أمراضهن العصبية ما لم تكن لها مضاعفات عضوية ملموسة .

واذكر بهذا الصدد تجربة نفسية قام بها أحد الأطباء على مجموعة من الناس ليختبر تأثير الوهم والإيمان الكاذب على أعصابهم. وكانوا جميعاً ممن يلازمهم الأرق إذا تناولوا القهوة فى المساء ، ويغطون فى النوم إذا شربوا كوباً من اللبن الساخن ، وهذا هو التأثير الطبيعى فى الإنسان العادى . وفى إحدى الليالى قسّمهم الطبيب إلى مجموعتين ، أعطى فريقاً منهم أكواب اللبن الدافىء بعد أن أذاب فيه — خفية — كمية كبيرة من مادة الكافيين ، وهى المادة المؤرقة فى القهوة ، ثم أعطى المجموعة الأخرى أقداحاً من القهوة بعد أن نزع منها — خفية — مادة الكافيين الفعالة . وكانت النتيجة

مثيرة حقاً ، فقد نام شاربو اللبن رغم ما فيه من المادة المؤرقة ، وانتاب الأرق شاربى القهوة حتى بعد أن انتزع منها الكافيين . . وهكذا تغلب الوهم والإيمان الكاذب على المؤثر المادى الملموس.

الكى بالنار :

ومن التجارب القاسية التى لم أكن أؤمن بها الكى بالنار . وكانت لهذه العملية شهرة عريضة فى شفاء الروماتيزم والصداع وغيرهما من الأمراض . وقد عولج والدى بعملية الكى بالنار عدة مرات على مدى ثلاثين عاماً كان يقاسى خلالها من نوبات الصداع العنيف ، ولكن عمليات التعذيب تلك لم تسفر عن أدنى تحسن يذكر . ورغم هذا كان متحمساً لعلاجى بالكى لما كان يسمعه من معجزات تمت بواسطة الكى فى علاج مرض عرق النسا والروماتيزم على اختلاف أنواعه . . وراح يلح على سمعى بروايات مختلفة لأشخاص معينين كتب لهم الشفاء بذلك الحديد المحمى فى النار ، حتى كدت أصدق تلك المعجزات التى لا يتطاول إليها الطب!.

وبعد محاولات طويلة ، وترديد لاسطوانة « جرب يابنى . . أنت استحليت القعدة فى البيت » أضطررت أن أستجيب للنصائح الملحة ، وأنا أشفق على نفسى من تلك التجربة القاسية .

من المعروف أن هذه العلاجات البدائية ، مثل الكى بالنار

والخزام[١] والحجامة[٢] والدفن فى الرمل ، والديدان مصاصة الدماء . معظمها مأخوذ عن العرب ، وما زال يمارسها بعض الأعراب الذين يستوطنون منطقة الأهرام وغيرها من القبائل العربيـــة .

وكان فى قرية « نزلة السمان » بالهرم عائلة متخصصة فى مثل هذه العلاجات تسمى عائلة الكرش . كان شيخهم حينذاك يسمى الشيخ على الكرش ، طويلا نحيلا ، ذا ملامح صارمة ، فى نظراته ثقة واعتزاز ، وفى حديثه وقار العالم المتمكن من عمله .

ما كدت أراه حتى تملكتنى رجفة كأنى أرى جلاداً من العصور الوسطى سينفذ فى جسدى عملية التعذيب . وجلسنا فى حجرة الاستقبال التى بجوار السلم ، بينما هرب أفراد العائلة إلى حجرة بعيدة فى آخر المسكن حتى لا يتألموا لصرخاتى . ولم يكن معى بالغرفة سوى الجلاد ومساعده ، ووالدى الذى كان وجهه محتقناً وملامحه تنطق بالجزع الشديد .

---

(١) الخزام : يتم بتمرير خيط متين تحت الجلد فى أماكن تختلف باختلاف المرض ويحركونها من وقت لآخر فتخرج صديدا من الجسم نتيجة تلوث الجرح وهى فكرة مشابهة للحمصة التى ذكرتها من قبل .

(٢) الحجامة : هى عملية فصد لدماء المريض ، وتتم بحلق مساحة مستديرة من رأسه ، ثم يحدثون فى الجلد عدة جروح سطحية ، ثم يضعون عليها كأسا مفرغة من الهواء فتسحب الدماء من رأس المريض . وكانت هذه العملية ضمن تجارب أبى لعلاج الصداع ، لكنها لم تكن مجدية .

وخرجت الكلمات مرتعشة من فمه وهو يطمئننى إلى بساطة العملية التى لن تستغرق سوى ثوانى معدودة . وكان معنا أيضاً أحد أصدقاء والدى اسمه فؤاد عوض[١] ، وهو ضخم عريض الصدر مفتول الذراعين . وقد حرص والدى على استدعائه حتى يقوم بتقييدى فى اللحظة الحاسمة ، لأن والدى لم يكن يقوى — نفسياً — على تلك المهمة الصعبة .

جلست على كرسى ذى ذراعين « فوتيل » ، وكشفت ساقى ، وجلس الشيخ « على الكرش » القرفصاء أمامى ، وراح يفكر بإمعان، ويتحسس بأصابعه مواضع الداء ، ويهز رأسه فى تؤدة ووقار ، ثم التفت إلى والدى وقال فى عظمة :

— هذه مسألة بسيطة جداً . . وقد عالجت حالات كثيرة مشابهة . . ولن يحتاج سوى مسمارين ومحوارين . . يقوم بعدها كالحصان . . .

كنت حتى هذه اللحظة أحاول أن أبدو متماسكا قدر طاقتى ، لكنى ارتجفت وهم يتفقون على أربع عمليات لا عملية واحدة كما اتفقت مع والدى ، فأبديت إعتراضى على هذه المؤامرة . لكن والدى — قد استبد به القلق — راح يستعطفنى ويرجونى أن أتحمل هذه المحنة حتى تنقشع الغمة وأعود إلى صحتى ودراستى . وراح

(١) فؤاد عوض كان جارنا ، وأصبح فيما بعد زوج أختى الثانية « عايدة » التى تكبرنى بعامين .

الجلاد يشرح لى ضرورة الكى فى أربعة أماكن حتى يحاصر المرض فى « مجمع العروق » !

ولم يعجبنى هذا التشخيص الساذج من رجل لا يفهم الفرق بين الأوعية الدموية والأعصاب والأوتار ، كلها — فى عرفه — عروق ! ولم أشأ أن أجعـــل من نفسى حقلا لتجارب جاهلية لا أهضمها . لكن التصميم الذى كنت أقرأه فى عيونهم أكد لى ألا سبيل إلى التراجع ، وإلا اتهمونى بأنى طفل رعديد يستمرىء الكسل وقعدة البيت ، وسمعت فؤاد يقول للشيخ على :

— اتكل على الله يا شيخ على .. صبحى رجل .. وسوف يتحمل هذه العملية البسيطة .. حتى يتخلص من كابوس المرض ..

وكان الشيخ على الكرش قد حدد مواضع الكى على الركبتين مستعملا فى ذلك قلم كوبيا بلله بلعابه . وأشار إلى مساعده كى يحمى المسامير والأسياخ الحديدية . وحتى لا يثيرنى منظر الحديد المتوهج أحضروا له موقداً بترولياً « وابور جاز » خلف باب الحجرة ، لكن صوته كان يصل عالياً إلى مسمعى فيركز تفكيرى فى تلك النار المتأججة تحت أسياخ الحديد . وبقدر ما كنت أتمنى أن تطول الدقائق بينى وبين الألم ، بقدر ما كنت أخشى ازدياد توهج الحديد مع مرور الوقت . وجاءتنى فكرة يائسة فقلت :

— ألا يمكن أن نستعمل مخدراً موضعياً حتى يخفف إحساسى بلسعة النار ؟

فقال الشيخ على مستعيناً بخبرته الطويلة فى هذا المجال :
— لا مانع من أن نضع قطعة من الثلج على الجلد قبل الكى.. فيكون لها مفعول المخدر . . .

ولاقى الاقتراح موافقة بالإجماع . فأسرعوا بإحضار قطعة من الثلج لفها فى منديل أمسك به من أطرافه ، وترك الثلج على جلدى عدة دقائق ، ثم رفعه وجفف الجلد ، وأشار إلى مساعده بإحضار المحوار . وهو قضيب طويل من الحديد قطره حوالى نصف سنتيمتر ، كان يمسكه من طرفه بقطعة سميكة من القماش ، بعد أن اكتسب من النار لوناً أحمر مشعاً .

حانت اللحظة الحاسمة ، فأشاح والدى بوجهه ، وهو يتمتم فى لهفة وإشفاق : « لا تخف يا بنى . . لا تخف . . تحمل . . » واقترب منى فؤاد وهو يحاول جاهداً أن يرسم بسمة على وجهه المتألم . وأراد أن يقيدنى كما يحدث دائما فى مثل هذه الحالات . فأخذت لهذه المباغتة ، وشعرت أنى سأختنق إذا قيد حركتى ، فاستجمعت كل ما فى نفسى من عزة وإباء وقلت فى عزم وإصرار .

— دعنى يا فؤاد . . لست محتاجا لأحد يقيدنى . . .

وإذ رأى أبى أن فؤاد لم يقتنع بوجهة نظرى ، هزه الحنان فى هذه اللحظة الحاسمة وهتف منفعلا :

— دعه يا فؤاد . . أنا عارف إن صبحى رجل . . وسوف يتحمل . .

زادت هذه التوريطة من حماستي ، وتشبثت بذراعي الكرسي في قوة ، وأشحت بوجهي حتى لا يرعبني منظر الحديد المتوهج . وأحسست برعشة خفيفة في ساقي فقلت لفؤاد :

— إذا كان ولا بد .. فلتمسك بساقي حتى لا تتحرك أو تهتز فلا يصيب المكان المحدد للكي . . .

رحب فؤاد بالفكرة ، ومال على ساقي وثبتها في مكانها بقبضتيه الضخمتين ، وتعمد أن يحجب عني ركبتي بكتفه ، فلم أعد أرى شيئاً ، وتركز كل انتباهي في موضع الكي متوقعاً لسعة سريعة تستغرق لحظة واحدة كما أفهمني .

وفجأة شعرت بالحديد الملتهب يلمس جلدي في خط طويل منحن مع دوران الركبة . وكان يميل بالمحوار يميناً ويساراً عدة مرات حتى يصل إلى أطراف الخط المشوي .

لم تمر العملية في لحظة كما أوهمني ، بل استغرقت لحظات حتى « يسوّي » الكي على حد تعبيره ، كأنه ينضج قطعة من اللحم . وفي تلك اللحظات الرهيبة التي مرت بي كأنها ساعة كاملة ، كنت أحس بألم حاد مميت ، يضاعف من حدته ضغط الحديد الذي يطفئه في جلدي . والتقطت أذني صوتاً يشبه طشطشة قطرات الماء على المكواة الساخنة ، وتصاعدت إلى أنفي رائحة الشواء ، المنبعثة من جلدي الذي أنضجه ذلك النطاسي البارع ..!

وعندما رفع عني يده الآثمة ، نظرت إلى مكان الكي ، وكنت

أتوقع أن أرى جزءاً مسلوخاً من اللحم الأحمر الدموى.. ولا أدرى لماذا خطر لى هذا المنظر ، ربما لأن لسعات المواد الساخنة فى حياتنا العادية ينتج عنها عادة مثل هذه التسلخات المحمرة اللزجة . لكنى رأيت شيئاً يختلف عما تصورت . كان هناك فوق ركبتى خط بنى اللون طوله حـــوالى سبعة سنتيمترات غائراً فى الجلد لبضعة ملليمترات . وكان جافاً تماماً وحوله شىء من الأحمرار فى المنطقة السليمة من الجلد .

وما كدت التقط أنفاسى ، وأسترخى فى المقعد المريح ، حتى جاء المساعد بمسمار كبير قطر رأسه حوالى سنتيمتر ونصف، وقبل أن اعترض هتف الشيخ على مبسطاً الأمور :

ــ لا تخف . . هـذا أسهل من المحوار . . فلن تلمس جلدك سوى دائرة على قد رأس المسمار فقط ...

وهكذا تكررت المأساة الجاهلية مرة.. واثنتين .. وثلاثه . . وأربعة ، حتى عبقت الحجرة برائحة الشواء ، وتسربت الرائحة إلى الحجرة الداخلية ، حيث كانت أمى وأخواتى ، فقبضت قلوبهن واستدرت دمعات من مآقيهن . وارتفعت فى حجرة التعذيب كلمات التشجيع والأعجاب لصمودى أمام الحديد المتوهج دون صراخ أو بكاء أو مقاومة . وهتف الشيخ على الكرش فى حماس .

ــ بسم الله ماشاء الله . . نحن دائماً نقيد الرجال فى مثل هـذه الأحوال .. لكن ابنك شجيع وزين ...

ونطق «شجيع» بكسر الشين ، فصارت من ألقابى الرسمية التى ظلوا يتندرون بها فى البيت لفتره طويلة.ولم أكن أدرى أن إعجاب الشيخ على يحمل وراءه مؤامراة جديدة ، فقد سمعته يهمس لأبى :

— ما رأيك فى ثلاثة مسامير أخرى نحزّمه بها ..؟

فخرجت عن وقارى المصطنع ، وصرخت معترضاً ، وقد أحسست أن استسلامى أطمع الجلاد فى التمادى فى تجاربه العشوائية القاتلة ، وتصورت أنى لو طاوعته لطمس جسدى كله بحديده المحمى ، لكنه راح يشرح لوالدى كيف أن الكيات الثلاث المقترحه سوف تحزم وسطى وتؤكد الشفاء .

وبدا والدى المذهول كأنه مسلوب الإرادة ، بعد أن تورط مع هذا الدعى الجاهل ، وخشى أن يرفض اقتراحه الأخير فتهتز أمامنا فرصة النجاح الكامل للتجربة . وبمثل هذا المنطق راح يقنعنى ويسترضينى ويستنجد بشجاعتى ورجولتى . وهكذا أرضى غرورى ، وأوقعنى فى حرج ، فلم أستطع أن اخيب رجاءه،وعدت استسلم للحديد والنار تعبث بهما يد جاهلة فتدمغ جسدى بمزيدمن البصمات الخالدة ، التى تحكى أبشع صور الجهل والغباء .

ولم يكن الكى فى حد ذاته هدف العلاج ، فقد كان لابد من تشغيله بورق نبات الخروع أيضاً كفكرة «الحمصة» . وظلت جروحى السبعة المتقيحة تذرف الصديد أربعين يوماً ، فتثير فى نفسى القرف والغثيان ، وتملأ قلبى حسرة ومرارة على تلك

التضحيات الغالية التى أحرقها هباء على مذبح الجهل والتبجح. ومازال جسدى حتى الآن يحمل بوضوح آثار سبعة أختام نارية ، كتلك التى يميزون بها الماشية فى البلاد المتمدينة ، والتى كانوا يدمغون بها الآدميين فى بلادى .

« شيك » بدون رصيد:

أوشك العام الدراسى آن ينتصف ، ومازلت عاجزاً عن الذهاب إلى المدرسة ، وإن كنت أستطيع أن أنتقل بين السرير والكنبة ودورة المياه متكئاً على عكازين . وذات يوم عاد أبى من الخارج والهم العميق يكسو وجهه المكتئب . ودون أن نسأله ، أخرج من جيبه مظروفاً أصفر حكومياً ، معنوناً باسم ولى أمر الطالب صبحى عزيز الجيار ، وأخرج منه ورقة صغيرة مطوية على سطور قليلة، ناولنى إياها فى صمت حزين . ما كدت أقرأها حتى تهللت فرحة ، فقد كانت إخطاراً ، من المدرسة بأن طلب مجانية التفوق الذى قدمته منذ بداية العام ، قد وافقت عليه وزارة المعارف .

دهشت لوجوم أبى وكآبته ، وظننت أنه نادم على تسرعه فى دفع المصروفات المدرسية ، وكان قد بادر بسدادها فى أول السنة حتى أصرف الكتب المقررة . والحق أنه لم يندم يوماً على مال دفعه فى سبيل تعليمنا . ولم أعرف ساعتها أنه كان حزيناً لأنى

لن استمتع بذلك الحق الذى حصلت عليه بكفاءتى . وكانت متعتى النفسية نتيجة إحساسى بالتفوق أغلى عنده من الجنيهات التى سيوفرها بعد اعفائى من المصروفات المدرسية . ولم يشأ أبى أن يصارحنى بسر كآبته ويأسه من عودتى إلى المدرسة . وأسرع ينسحب من حجرتى ، تاركا الورقة بين يدى ، أعيد قراءتها مراراً وتكراراً فى نشوة طاغية ، دون أن يساورنى الشك بأنها كالإذن المصرفى « الشيك » ، الذى بدون رصيد .

كان من العسير أن أدرس بمفردى علوم السنة الرابعة ، دون مدرس أو شرح . ولم يكن لى أصدقاء — كما ذكرت — يمكننى أن استرشد بكراساتهم فى تحديد المواد المقررة . وتتابعت الأيام المجدبة رتيبة مملة ، تسحق فى سيرها الوئيد ما تبقى من أمل فى اللحاق بركب طلبة المدارس. ثم فوجئت ذات يوم برسالة أخرى صفراء عليها خاتم المدرسة ، وفيها الصيغة الرسمية القاسية ، التى تحيطنى علما بفصلى نهائياً من المدرسة لتكرار تغيبى بدون عذر مقبول !

لم يكن ضياع سنة من عمرى هو فقط الذى يشقينى ، فإن طبيعتى المتفائلة كانت كفيلة بأن تقنعنى بإمكان تعويضها ، ولكن الذى لا يعوض هو أن تخلفى فى السنة الرابعة ، سيتيح لأخى وابن عمى — وهما أصغر منى سناً — أن يلحقا بى فى موكب العلم الذى كنت أتصدره فى العائلة بحكم السن ، ولم تكن كرامتى

تسمح لى بالتراجع إلى صفوفهم بحكم السن أيضاً .

انقضى العام، والكتب المقررة أمامى كالطلاسم الهيروغليفية ، لا أكاد أفهم منها إلا القشور التى لا تسمح لى بالتفكير فى الامتحان خاصة العلوم العملية كالطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعى، الذى كان علماً جديداً لم أدرسه من قبل .

دفنونى فى الرمال :

ومن العلاجات التى لها أصل علمى ، لكنها تنفذ بطريقة بدائية ، هى الدفن فى الرمال الساخنة . وهى قد تفيد فى الآلام الروماتيزمية الناتجة عن لفحات البرد ، وهى فى ذلك تقوم بعمل حمامات البخار تقريباً .

كانت المشورة فى تلك المرة ، من شريك أبى ، الذى ألح فى تنفيذ التجربة على أيدى أخصائيين من عربان منطقة الهرم . ولما تأكدت أنهم ليسوا من عائلة الكرش لم أمانع فى المحاولة ، خاصة وأنها لا تسبب ألما أو تشويها .

بدأ الإستعداد للتجربة باعداد حفرة فى الرمال الجافة على هيئة القبر ، وتركوها معرضة لأشعة الشمس المتقدة يوما كاملا ، ثم أخذونى إليها فى اليوم التالى وأنزلونى فى الحفرة الساخنة بعد أن جردونى من ثيابى إلا من قطعة واحدة تمسكت بها حياء . ثم أهالوا على جسدى الرمال ، فلم يعد بارزاً إلا رأسى ، فغرسوا

عندها مظلة تقيني من ضربة الشمس ، وأسرعوا جميعا يحتمون من لظاها تحت سقيفة مهجورة على بعد حوالى عشرين خطوة منى، بحيث إذا ناديت يسمعونى ويسرعون لنجدتى .

كان الدفء فى البداية محتملا بل مستحباً ، لكنى مع الوقت أحسست أنى سأختنق ، وكان العرق يسيل من وجهى وينحدر من مفرق شعرى ، فأشعر بميل إلى حكه ، ولكن ذراعى كانتا مقيدتين تحت كومة الرمال . فكان أبى يأتى من وقت لآخر فيمسح رأسى النابتة من الأرض مثل الكرنبة ، مستعيناً فى ذلك بمنشفة كبيرة .

وبعد نصف ساعة كنت أحرك لسانى الجاف بصعوبة من فرط ما تفصد جسدى بالعرق . لكن أوامر الخبراء كانت مشددة فى عدم إرواء ظمأى ولو بقطرة واحدة ، حتى بعد إنتهاء حمام الرمل . لكنهم سمحوا لى بأن أتناول بعد التجربة بعضاً من الحساء الدافىء الدسم الذى «يرمم العظام» على حد تعبيرهم الجاهلى .

وفجأة لمحت سحلية تقترب منى فى حركتها السريعة ، فأجفلت، وابتلعت ريقى حتى أهيىء فمى الجاف للصراخ إذا ما اقتربت السحلية من وجهى بدافع من الفضول لاستكشاف هذا الكائن الكروى الراقد على الرمال . ولعلها كانت تجـــد فى فمى مخبأ مناسباً إذا ما فتحته صارخاً .. أو عندما يتحرك الآدميون الواقفون على بعد عشرين خطوة منى .

وأنا بطبعى أخاف من السحالى والفيران والخفافيش والصراصير الطائرة ، وكل كائن صغير يتحرك بسرعة ، والعجيب أنى لا أخاف الحيوانات الكبيرة كالكلاب والقطط والثعابين ، رغم أنها أكثر إيذاء من المجموعة الأخرى التى لا تؤذى بقدر ما تثير القرف لقذارتها ، وتثير الفزع لحركاتها السريعة العشوائية . وهذا الخوف ورثته عن والدى الذى كان يقشعر من الفأر حتى وهو ميت . وقد ضاعفت من هذا الخوف قيودى الجسدية التى تمنعنى من مطاردة أو تفادى تلك الحيوانات السريعة .

وتذكرت الخفاش الذى دخل شقتنا ذات ليلة . وراح والدى وأخى يطاردانه فى الردهة فهرب منهما إلى حجرتى التى أرقد بها، فأصابنى ذعر شديد ، فالخفاش يشبه الفأر الطائر . وإذا كنت أقشعر من الفأر الميت ، فما بالك بفأر طائر ؟ !! .. وأسرعت أسحب الغطاء على وجهى، وكانت ذراعاى لازالتا تقدران على هذه الحركة ، وإذا بأخى يقول :

— لا تخف .. لقد وقف الخفاش على حافة الباب المجاور لك.. وسوف أصوب نحوه البندقية وأسقطه من أول طلقة ...

فصحت من تحت الملاءة البيضاء :

— كلا . لا تفعل هذا حتى لا يسقط فوق رأسى . . .

فانفجر ضاحكاً هو وأبى من فرط تشاؤمى ، فقد كان بينى وبين الباب الذى يقف عليه الخفاش حوالى متر . وأسرع أخى

إلى بندقية الرش ، وصوبها بإحكام نحو الخفاش فكتمنا جميعاً أنفاسنا ، ثم إنطلقت البندقية الصغيرة فى هدأة الليل فأحدثت دوياً عالياً ، وأصابت جناح الخفاش ، ففزع من مكانه وراح يدور فى الحجرة وقد فقد السيطرة على أعصابه . وفجأة سقط الخفاش يتخبط فى دمائه .. فوق رأسى تماماً !! كأنما لم يجد النحس فى الحجرة كلها مكاناً لسقوطه أفضل من رأسى . ! صرخت طبعاً وأنا أرتعد تحت الغطاء ، فأسرعوا يرفعون القتيل من فوق الملاءة البيضاء بعد أن خضبها بدمائه .

خطرت فى رأسى هذه الحادثة وأنا أرقب السحلية وهى تزحف على الرمال مقتربة نحوى . ولم استكثر على النحس أن يجرب معى إحدى دعاباته الثقيلة فيدخلها فى فمى هذه المرة !! لكنها مرقت تحت ذقنى بسلام . لعلها خافت من العاصفة الرملية التى هبت نحوها ، فقد كنت أنفخ بشدة ، لأن أنفاسى كانت الشىء الوحيد الذى استطعت أن أحركه فى تلك اللحظة .

مرت الساعة المقررة ، فأخرجونى من تلك المقبرة وأنا فى حالة أعياء شديد من كثرة مافقدت من العرق ، وراحوا يزيلون من فوق جلدى طبقة سميكة من الرمال المعجونة بعرقى . وحملونى لاهثاً إلى السقيفة التى كانوا يحتمون تحتها ، وأخذوا يبللون فمى الجاف ببعض الحساء الدسم الساخن الذى كان منظره فى الزجاجة يثير الغثيان ، بما يعلوه من طبقة الدسم العائم . وبالطبع لم يكن هذا

السائل الكريه ليروى ظمأى فى ذلك الوقت ، الذى كانت فيه كوب الماء البارد تساوى فى نظرى كنوز الأرض!.

ومنذ ذلك اليوم القائظ أصبحت أعشق الماء وأشربه بنهم غير عادى ، ولم تستطع السنين الطويلة أن تروى غليلى حتى أصبت بمرض جديد بعد عشرين عاما جدد حرمانى من الماء ، وسوف أتكلم عنه فى حينه .

مع اليأس والكآبة :

بدأت أضيق بالحياة ، وأحاطنى اليأس من كل جانب، وتراءى لى المستقبل قاتماً مخيفاً . وتراكمت الهموم على نفس الغضة، فضاق بها صدرى ، وتوترت أعصابى ، فأصبحت أثور لأتفه سبب ، وبغير سبب . وكنت أصرخ وألعن من يساعدوننى إذاما استهتروا فى حركة عنيفة تؤلمنى ، أو تباطأوا فى قضاء أحد طلباتى الكثيرة ... كوب ماء ، ورقة وقلم ، مجلة ، مبولة ، افتحوا الراديو ، اطفئوا النور ، ارفعوا الوسادة . . إلى آخر هذه الطلبات الصغيرة التى ما كنت أتعجل تنفيذها لوكنت أستطيع قضاءها بنفسى ، وقد أتباطأ أو أتكاسل عنها تماماً . ولكن الأمر يختلف كثيراً عندما يشعرون — باستهتارهم — أنى عاجز عن قضاء أبسط حاجاتى بنفسى ، حينئذ تمر الثوانى بطيئة ثقيلة على كرامتى . ويزداد الطين بلة إذا ما رفض طلبى لعدم تمشيه مع مزاج المطلوب منه، أو أبدى امتعاضاً

من أدائه ، أو أجل تلبيته لعذر سخيف أو أراه أنا غير مقنع . عندئذ لا أجد إلا إحدى وسيلتين أنتقم بهما لكبريائى المجروحة ، فإما أن تنطلق الشتائم والسباب من فمى قاسية لاذعة ، وإما أن أضرب عن قبول الطلب إذا لم يقض بطريقة ترضى عزة نفسى .

كانت بالطبع تصرفاتى هذه توغر صدورهم، ويتهموننى بالعقوق وعدم الاعتراف بجمائلهم وخدماتهم ، التى أعتبرها أنا واجباً مقدساً يتحتم عليهم أداؤه دون مَن أو اعتراض . ألا يكفيهم أن القدر لم يعدل بيننا فقيد جسدى وجعلنى أحتاج إليهم ، بينما أطلق سراحهم وأغناهم عن ذل الحاجة ؟ لعلهم يظنون أن خدماتهم لى ميزات أتمتع بها! إذن فهل يفضلون أن يرقدوا فى سجنى وأتولى أنا خدمتهم ؟ .

هكذا كان تفكيرى الذى لم يخطر لهم على بال .. فلم يفهمونى وإن كانوا أحياناً يتحملوننى فى غيظ مكبوت، دون اقتناع بوجهات نظرى ، أو يلتمسون لى العذر بعفو أقسى من العقاب حين يقول أحدهم فى لهجة متسامحة :

ـ أنت معذور لأنك مريض ...

فأصرخ محتجاً :

ـ أنا لست مريضاً ... أنا أقوى منكم جميعاً ...

فتأخذهم الحيرة ويظنون أنى جننت ، وأخيراً يحسم والدى المناقشة بقوله :

ـ مسكين .. الظاهر المرض طلع على عقله ...

ليتهم أدركوا مشاعرى ، ليتهم حاولوا أن يفهمونى، ويقدروا حساسية مركزى .

هكذا كانت علاقتى بأهل البيت ، تدور فى حلقة مفرغة من سوء التفاهم ، تبدأ بعدم تقديرهم لنفسيتى المتأزمة المرهفة ، فأجيب على تقصيرهم بثورة ناقمة أنفس بها عن قيودى ، فيفسرون ثورتى بالعقوق ونكران الجميل ، فتفتر نخوتهم ويزداد تقصيرهم فأثور.. وهكذا تستمر الدائرة المفرغة ، تشكل بداخلها دوامة عاتية تجذبنى إلى قاع التعاسة .

ومما جعل المشكلة تتفاقم أنهم كانوا يقارنون فظاظتى بطباع أخى الهادئة . والواقع أن أخى كان — وما يزال — رزيناً بطبعه عزوفاً عن التدخل فيما لا يعنيه حتى يجنب نفسه المشاكل ،لهذا كان يتخذ فى بيتنا ركناً حيادياً . كذلك كانت دراسته — فيما بعد — فى كلية الطب تشغل معظم نهاره خارج البيت ، وكانت ساعاته داخل البيت لا تكاد تكفى لطعامه ونومه ومذاكرته ، مما أمعن فى إبعاده عن مشاكل البيت وتجنيبه الانفعالات والإثارة، مما أظهره كالقديس بجانب تصرفاتى الشيطانية . ومع الوقت شاء كرمهم أن يسبغوا علىّ نعوتاً وتسميات حقودة بشعة ، مثل . . المجرم ، والمفترى ، والشرير !! حتى أنهم كانوا أحياناً يستعيضون بها عن إسمى المدون فى شهادة الميلاد .

ثم كانوا لا يتورعون عن التندر بعقد المقارنات بينى وبين

أخى الأصغر أمام الأهل والجيران والأصدقاء ، غير مبالين بحرجى الشديد أمام الناس . وكنت فى البداية أخجل أمام لوم الأصدقاء وعتاب المحبين ، وأحرج أمام شماتة الحاقدين . ولكن مع الوقت أصبحت تلك الاتهامات فى حكم الحقائق الثابتة ، التى لا يؤثر فيها دفاعى أو إنكارى ، حتى كدت أنا شخصياً أن أصدق هذه النعوت والافتراءات . وفى النهاية لم يعد هنالك اى مبرر للدفاع أو الإنكار أو التبرير ، مادام القضاة قد أصدروا حكمهم فعلا بإدانتى .. ولم تعد الاتهامات سراً أخشى إفشاءه .

كانت النتيجة الحتمية لتلك السمعة السيئة التى دمغونى بها ، أن بدأت أتمرد فعلا على كل القيم الخيرة ، وأتعمد افتعال المشاكل حتى أثأر منهم بعد أن دفعت الثمن مقدماً . فالمسجون ظلما الذى يقضى مدة العقوبة ، من حقه أن يرتكب الجريمة التى أدين فيها ، وليس للقانون أن يتعرض له ، لأنه لايجوز أن يعاقب المذنب مرتين على جريمة واحدة .

الصديق الوحيد

هكذا كنت أعيش غريباً منبوذاً بين أفراد عائلتى ، وكان من الممكن أن أكره أخى أو أحقد عليه ، لكنى لم أشأ أن آخذه بذنب لم يرتكبه . . وكان بحكم عزلته ورزانته لا يحتك بى كثيراً ، فلم نتصادم . وكان إدراكه لموقفى يفوق إدراك أفراد البيت جميعاً ، رغم أنه أصغرهم سناً . لهذا وجدت فيه الصديق الوحيد الذى

اركن إليه وارتاح إلى تصرفاته النبيلة فى المواقف الحساسة . وكان يربطنى به تفاهم قوى ، فقد كانت بيئتنا واحدة وأعمارنا متقاربة ، وقراءاتنا واحدة وأفكارنا وآمالنا مشتركة ، حتى أنه كثيراً ما كان ينطق أحدنا بنفس الألفاظ قبل أن ينطقها الآخر . وكان يحكى لى كل أحداث يومه ونوادر أساتذته وطرفاً من آرائهم العلمية ، وعلاقاته العفيفة المهذبة بزميلاته فى الكلية ، وصداقاته القوية الوطيدة بزملائه الذين كان كثيراً ما يدعوهم جماعات إلى بيتنا ، فيقدمهم إلىّ فى غرفتى ، واندمج معهم فى مرحهم واستمع إلى مغامراتهم ، ويثلج صدرى تقديرهم وحبهم لأخى . ويسعدنى أن أسمع اطراءهم لمواهبى ترديداً للدعاية التى كان أخى يمتدحنى بها فى غيابى ، مما يشعرنى بأن أخى يعتز بأخوتى . وكنت أحرضه على مشاهدة الأفلام التى تغرينى إعلاناتها ، فيعود منها ليروى لى تفاصيلها الشيقة فأستمتع باندماجى فى أحداث الرواية ومشاهدها ، حتى لكأنى رأيتها بعينيه .

ولا أنسى أول عيد عبر حياتى وأنا مثقل بقيود المرض . كنت يومها اجتاز ازمة نفسية تعتصر قلبى ، ولكن لا يظهر منها شىء على ملامحى ، بل حاولت أن أتمادى فى التهريج لى أبدو مرحاً غير متخاذل . ولاحظت أن الوقت يمر دون أن يستعد أخى للخروج فى مثل هذا اليوم الذى كنا نعتبر زيارة السينما فيه عادة مقدسة . وما لبث شباب العائلة أن أقبلوا فى ثيابهم القشيبة حيث

اعتادوا ان يتجمعوا فى بيتنا ، ثم تدور مناقشة قصيرة يستقر رأينا بعدها على الفيلم المفضل . وعندما وجدوا أخى مازال فى منامته « بيجامته » أبدوا دهشتهم من تأخيره ، وأظهروا قلقهم على موعد عرض الفيلم . لكن أخى قال لهم وهو يضحك حتى لايشعرنى بتضحيته :

ـ اذهبوا أنتم ياجماعة .. فإنى أنتظر أحد أصدقائى . . .

وأدركت كذبته النبيلة ، فألححت عليه فى الخروج معهم ، لكنه صمم على البقاء معى . ولمحت واحداً منهم ينتحى به جانباً ويهمس إليه بإغراء معين كان كفيلا باجتذابه ، وسمعت أخى يهمس دون أن يفطن إلى آذانى المصغية :

ـ ولو..أنا لا أستطيع أن أترك صبحى وحده فى هذا اليوم...

ورأيت قريبى يلكزه بمرفقه مؤنباً وهو يقول :

ـ دعك منه ياأخى .. ولا يهمك . . .

آلمتنى تلك اللهجة الجافة من قريبى الذى كان يدّعى صداقته لى قبل أن يعيقنى المرض عن صحبته . وكان يتعالى على أخى لأنه أصغرنا سناً . وإذا به يتنكر لصداقتى ويتودد لأخى، بل ويحرضه على التخلى عنى . وبقدر ما حز خنجر عقوقه فى فؤادى ، كان رد اخى عليه بلسماً أبرأ جرحى ، لكنه ترك مكانه ندبة تذكرنى بتلك الفئة من البشر التى لاتهتم بإنسان إلا بقدر ما تستفيد منه .

الواقع أن أخى ظل يملأ ركناً هاماً فى حياتى وقلبى ونفسى

بما كان يضفيه على ، من صداقته واخوته وخدماته .وقد ترك فراغاً كبيراً فى حياتى بعد أن تخرج من الجامعة ، وعمل طبيبا بالأرياف منذ عام ١٩٥٥ .

عنى والدى ! :

تحول أبى الحنون إلى إنسان قلق حزين ؛ وراح يصرف بسخاء على علاجى لإنقاذ أمله المتفتح الذى يذوى بين يديه .. وأشاع فى البيت كآبة قاتمة . وكانت ظروفه المالية قد بدأت تسوء ، وعزف عن عمله . وبدأ يتابع رصيده الهزيل فى البنك وهو يتضاءل شيئا فشيئا ، فتزايد حرصه على المال ، وانقبضت يده إلى درجة الشح فى تكاليف المعيشة ، لكنه لم يكف عن سخائه فى سبيل علاجى .

كان يردد فى يأس قاتل جملته المأثورة . «خذ من التل يختل» .

وازدادت المشاحنات بينه وبين أفراد البيت جميعاً . حتى والدتى ، وهى كمعظم النساء غير العاملات ، لم تكن تعبأ بهبوط خانة الإيراد فى رصيد أبى . بل كانت تؤنبه فى مناسبات كثيرة لتكاسله واستكانته دون البحث عن عمل . ولم يحتمل المعلم محمد سليم — شريك أبى — هذا الكساد ، فانفصل عنه . وعمل بإحدى شركات المقاولات الكبرى . وبذلك فقد أبى اليد التى كانت تطرق أبواب العمل . ومنعه حياؤه الشديد — كما ذكرت

من اللجوء إلى منابع الرزق . وأحال نفسه إلى المعاش وهو لم يتعد الخمسين . ولم يعد يقوم بتنفيذ العمارات الضخمة ، بل ينتظر حتى يطرق بابه أحد معارفه ليبنى له طابقاً أو مقبرة .

وزاد الأمر سوءاً أن أحد الأشرار أرسل خطاباً مغفلاً من الإمضاء إلى مصلحة الضرائب ، يدّعى فيه أن والدى متهرب من دفع ضرائب أرباحه طوال فترة اشتغاله بأعمال المبانى . وهنا انهار أبى تماماً ، وتملكه رعب شديد ، وأوقف نشاطه كلية ، مدعياً خوفه من الضرائب . وعبثاً حاولنا وحاول أصدقاؤه أن يثنوه عن إحجامه ، ويقنعوه بأن يبدأ من جديد ، لكنه استسلم لليأس ، وراح يصرف بقايا مدخراته على علاجى الفاشل عساه أن يحى العظام المتآكلة ، ويبعث الحياة فى أمله المنهار . وأحدثت قضايا الضرائب ثقباً آخر فى ميزانية أبى استنزفت آخر قرش فى جعبته .

كان لهذه الهزات العنيفة تأثير قوى على نفسية أبى ، الذى كان بطبيعته قلقاً ، متردداً ، يرتعد إذا ما تسلم رسالة صفراء ، وترتعش أصابعه وهو يفتحها وقد احتقن وجهه واستبد به الفزع . وكان إذا تصادف وطلبه شخص فى التليفون وناديته لمحادثته ، يضطرب أشد الاضطراب ، ويمسك السماعة فى ذهول وهو يسألنى فى ارتباك .

— خير ؟ .. من الذى يطلبنى ؟ .. وماذا يريد ؟ ..
ثم ينقلب هذا الخائف المرتجف إلى أسد هائج لأتفه سبب

يصدر من أحدنا . وأصبح ينفث كل غضبه وضيقه المكبوت فى أفراد البيت ، خاصة أنا ووالدتى . أما أختاى فقد تزوجتا واحدة بعد الأخرى ، ثم تخرج أخى من الجامعة ورحل إلى مقر عمله ، فلم يبق أمامه من يمارس معه دكتاتوريته المستبدة فى السنوات العشر الأخيرة من حياته غيرى أنا . . وأمى .

لقد انقلب الإنسان الحنون الذى كان يتعبد فى محرابى .. إلى وحش كاسر يتربص الفرص كى ينال من كرامتى وكبريائى ، بل يتعمد إهانتى . وتبلور حقده على الدنيا ومن فيها فى شخصى الضعيف . كان يتصورنى مبعث شقائه ، كأننى كنت المسئول عن نكبتى . وكان يحاول تحطيم معنوياتى بشتى الوسائل ، حتى أنه كان يتضايق جداً عندما يرانى أضحك أو أستمع إلى الراديو .

وجاءتنى والدتى يوماً وكنت أكافح الأفكار الكئيبة بأن أصفر لحن أغنية محببة ، وطلبت منى أن أتوقف عن الصفير لأن والدى سمعنى من الحجرة المجاورة ، وصاح غاضباً :

— أنا هنا أحرق دمى . . والولد يصفر هناك ولا يبالى . .

وكان هذا « الولد » عمره يزيد عن ربع قرن فى ذلك الوقت!

ذهلت للتحول العجيب الذى طرأ على طباع أبى ومعاملته لى . ولم أجد مبرراً لانقلابه إلا أن حبه السابق لم يكن لشخصى . . بل لتفوقى . وعندما انقطع هذا الأمل المنطلق ، أصبحت عبئاً على كاهله ، بعد أن فقد الأمل فى الأوزة التى ستبيض ذهباً . وكان

إنفاقه على علاجى ، هو فى الواقع علاجاً الأوزة ، وليس لشخصى المهدم المقيد الذى لا نفع فيه .

كنت أعاتبه أحياناً ، وتعز علىّ نفسى فأصطدم به أحياناً أخرى . وسألته ذات يوم لماذا يضطهدنى ويتحرش بى بلا أسباب معقولة . فانطلق يقول .. وأنا أذكر ألفاظه حرفياً ، وليحاسبنى الله إذا كنت أفترى عليه :

— لا أعرف . . ولكنى عندما أدخل البيت وأراك راقداً أمامى ، يخيل لى أنى أرى عزرائيل الموت .

فقلت معاتباً فى احتجاج :

— وماذا جنيت حتى تنعتنى بهذه الصفة . ؟

قال وهو يهز رأسه فى حيرة :

— لا أعرف . . المهم أنك سبب نكبتى . . أنت خربت بيتى . . .

بهذا المنطق الجائر كان يعاملنى والدى . ولا أنسى يوماً كنت أتناقش معه حول مشكلة عائلية ، وأبديت رأياً لم يرق له ، وهذا شىء طبيعى ، فأنا أفكر فى المستقبل بتفاؤل ، وهو يرى أنه انتهى . فإذا به يلتفت إلىّ ويقول فى تهكم واحتقار :

— أسكت انت . . الظاهر إن المرض طلع على عقلك . . .

وكانت الجملة الأخيرة من عباراته المأثورة المتكررة .

كان عمى حاضراً هذه الجلسة ، فاحتميت به ، وقد أثارتنى لهجة أبى الهازئة فقلت :

— هذه مشكلتنا جميعا . . ومن حقى أن أبدى رأيى . . .

فإذا ثورة أبى تحتدم ويصيح فى غضب .

— لما تبقى تكسب قرش يبقى لك رأى فى البيت . . لكن طالما أنا أصرف عليك . . كلامى لازم يمشى . .

ولما لفت عمى نظره إلى قسوة كلماته ، أجابه محاولاً تبرير قسوته :

— ماذا يفهم هذا من الدنيا . . وهو راقد هكذا فى البيت ؟

هكذا كان والدى يزن الرجال بميزان عقده الشخصية . الرجل فى نظره هو من يكسب مالا ، ولو كان تافهاً عديم الشخصية ، والناجح هو من يحصل على شهادات دراسية ولو كان عديم الثقافة.

هكذا كانت قيمتى فى نظر والدى ، وعمرى حينذاك سبع وعشرين سنة . وكنت يومها سكرتير تحرير مجلة ادبية أكتب وأرسم وأترجم فيها ، ويتتلمذ على يدى بعض الجامعيين ، لكنى لم أكن أتعاطى أجراً « لأسباب سأذكرها فيما بعد » ولم أكن حاصلا على شهادة جامعية رغم أنى درست أضعاف الكتب التى يقرؤها الجامعيون .

لم يكن أبى يعترف بأى جهد أبذله ، فلم يقرأ يوماً قصة كتبتها على كثرة ما نشرت . ولم يمتدح لوحة رسمتها على كثرة مارسمت .

وكان يعتبر إنتاجى مجرد عبث . وأقسم أنى لم أسمع منه كلمة تهنئة عندما فزت بجوائز القصة القصيرة . ولم يفكر فى حضور حفل توزيع الجوائز الذى حضره وزير التربية والتعليم . وعندما بدأت المجلات تنشر إنتاجى على نطاق واسع أردت أن أختصر اسمى الثلاثى ليسهل ترديده ، فسألت أبى مجاملة : « هل أجمل إسمى صبحى عزيز . . أم صبحى الجيار ؟ . . ففوجئت برده متهكماً :

— إحذف . . « عزيز » . . يعنى ما شاء الله حاجة تشرف يا أخى ؟ . . .

ألجمتنى كلماته القاسية . . فلم أنطق بكلمة . لكنى منذ تلك اللحظة لم يعد اسمه يقترن باسمى إلى الأبد . !

* * *

الإضراب عن الطعام :

كان هذا الضغط المستمر يدفعنى أحياناً إلى اتخاذ موقف سلبى على طريقة الزعيم غاندى ، فأضرب عن الطعام احتجاجاً على التعسف والاستبداد . وتدور عقارب الساعة بطيئة مؤلمة ، والجوع يمزق أحشائى . وأكاد أتخاذل . لكن كبريائى تمنعنى من التسليم ويأبى عنادى أن ألقى سلاحى فى المعركة حتى لا أتعرض للشماتة والسخرية . وشد ما كان يؤلمنى أن أسمع والدتى تقول بلامبالاة:

— دعوه وشأنه . لعله شبعان .. وعندما يشعر بالجوع سيجد الأكل فى النملية .

فأعض على نواجذى فى غيظ وأقول لنفسى : « كيف تدعى أنى شبعان ، مع أنى لم آكل شيئاً منذ أفطرت معهم ؟ . . ليتها تدرى أن معدتى تتلوى من الجوع حتى تبدأ فى مفاوضات الصلح وتقنعنى بالعدول عن الإضراب » . لكن هذه الوساطة لم تكن تبدأ قبل الوجبة الثالثة عادة . وتبدأ بجس النبض ، فتغلف كلماتها فى لهجة باردة وهى تقول :

— أنت الجانى على نفسك . . أبوك أكل ودخل نام ولم يسأل عنك . . أنت تعرف كم هو عنيد . . .

فاستجمع شجاعتى وأقول مكابراً :

— ومن قال لك إنى أنتظر سؤاله عنى ؟

— إذن لماذا أنت ممتنع عن الطعام ؟

— حتى أموت وترتاحوا منى . . .

— كلام فارغ . . لا أحد يموت من الجوع . . .

وتدير لى ظهرها متجهة إلى باب الحجرة ، فأحس بأن الزمام كاد يفلت من يدى ، فأصيح قائلاً حتى استوقفها :

— أنا عارف أنكم ضقتم بى . . وتريدون موتى . . لكنى لن أحقق لكم غرضكم . . فسوف آكل حتى أعيش وأفوت عليكم هدفكم ! . .

وبالطبع تضحك أمى لهذا الإدعاء السخيف الذى أتعلل به لأضع حداً لعواء معدتى الخاوية .

أذكر أنى فى أحد تلك الإضرابات تماديت فى عنادى ، وصممت على تحقيق مطالبى ... ولا أذكر الآن تفاصيلها . وشجعنى على العناد أنى كنت قد قرأت مقالاً عن السياسيين الذين يضربون عن الطعام . وجاءت فيه بعض الحقائق العلمية ، علمت منها أن الإنسان يستطيع أن يصوم عن الطعام والشراب ثلاثة أيام فقط ، لكنه إذا اقتصر على شرب الماء فإنه يستطيع أن يصوم أربعة وثلاثين يوماً . . إذن ففى العمر متسع للإضراب مع تناول الماء .

وجاء فى المقال أيضاً أن آلام الجوع تزداد فى اليوم الأول ، ثم تقل تدريجياً حتى تنمحى تماماً بعد ثمانية وأربعين ساعة . وعلامة هذا أن يتقيأ الصائم سائلاً أصفر ، يصمت بعده عواء معدته ويصبح الصيام ميسوراً .

شجعنى هذا المقال على التمادى فى العناد ، مؤملاً أن أجتاز حاجز الثمانية والأربعين ساعة . ولم تعد المسألة مجرد عناد ، بل تجربة فريدة أريد تحقيقها . واجتزت فعلا حاجز الجوع ، وتقيأت السائل الأصفر ، وأحسست بعدها بضعف شديد ، ودارت بى الدنيا وشحب وجهى ، وتفصد جبينى بعرق غزير ، وهمست فى خفوت :

ــ الحمد لله . . سوف أصمد للنهاية . . .

انتقل الخبر إلى أبى ، فابتلع عناده ، وجاء على عجل ، وراح يهز كتفى ويصيح :

— ماهذا يامجنون ؟ . . ماذا جرى حتى تعمل كل هذا بنفسك ؟

حاولت أن أستغل لحظة ضعفه ، فقلت فى لهجة مؤثرة :

— انتهى كل شىء . . وسوف ترتاحون منى جميعاً . . .

فقال والدى فى حزم مصطنع انقاذاً لكبريائه :

— هذا كلام فارغ . . شغل عيال . . .

واستدار إلى والدتى ، وقال فى ثقة :

— . . هاتوا الأكل هنا حالاً . . وسنرى إذا كان سيجرؤ على رد يدى . . .

لم أجرؤ بالطبع على رد يده الممدودة بالطعام ، وقنعت بتصرفاته النادمة رغم حرصه على إخفائها . وعدلت عن الإضراب رغم أنى لم أكن أشعر بالجوع .

كانت هذه الإضرابات فى فجر شبابى ، وأنا أجتاز مرحلة المراهقة ، تلك الفترة الحرجة فى حياة كل شاب ، فما بالك إذا مازادتها القيود كبتاً وتعقيداً . ثم تخليت عن عنادى على مر السنين بعد أن اقتنعت بعدم جدواه ، وعاهدت نفسى على ألا أتورط فى مثل هذه الاضرابات التى لم يكن يقاسى منها سواى .

* * *

العلاج الروحى

كان زوج أختى « عبد الملاك » عضواً فى الجمعية الروحية التى يديرها العالم الروحى أحمد فهمى أبو الخير . وكان يحكى لنا عن المعجزات التى رآها بعينى رأسه فى شفاء الأمراض المستعصية الخطيرة . وكان الإقبال شديداً على هذه الدائرة الروحية . ومن ذا الذى لا يتهافت على صانع المعجزات ، خاصة إذا كان لا يتقاضى أى مقابل ؟ لكن زوج أختى استخدم نفوذه كعضو أساسى فى الجمعية ، واستطاع أن يفسح لى مكاناً بين المرضى الذين ينالون العلاج الروحى مرتين فى الأسبوع .

كانت أول عقبة اعترضت طريقنا هى مشكلة الانتقال إلى مقر الجمعية ، وكانت تشغل غرفة صغيرة بأسفل الفيللا التى يسكنها الأستاذ أبو الخير بأقصى جزيرة الروضة . وإذا كان من المتيسر أن تصل إليها السيارات الأجرة فى الذهاب ، فإنه كان من المتعذر

العثور على سيارة بعد انتهاء الجلسة ، حيث يخيم الليل والسكون على تلك المنطقة النائية[1] فضلاً على أن ركوب السيارات المقفلة كان قد أصبح مشكلة بالنسبة لجسدى ، الذى لا ينحنى بالقدر الذى يتيح له دخول السيارة .

وقام اقتراح بأن يقود أخى دراجة ، وأركب أنا خلفه . وكانت المسافة بين بيتنا فى ميدان فم الخليج والجمعية الروحية لا يزيد على عشر دقائق بالدراجة . وإن كان وضعى على الكرسى الخلفى فى الدراجة غير مريح ، فهو على الأقل ممكن .

وهنا بزغت فى رأسى فكرة متهورة . . ولماذا لا أقود أنا الدراجة ؟. واقترحت على أخى أن نجرى التجربة سراً ، فقد كنت متأكداً أن والدى سيرفض . واستعان أخى بعضلاته القوية ، فرفعنى فوق كرسى الدراجة المريح ، وأطبقت بقبضتى على «الجادون» وبدأ أخى يدفع الدراجة وهو ممسك بها من الخلف . كان هدفنا أن يجرى بجانبى بضع خطوات حتى تأخذ ساقاى فى دفع الدراجة بحركة نصف دائرية . ولدهشتى البالغة وجدت أنى أستطيع تحريك ساقى على « البدال » فى حركة دائرية كاملة ، لأن ضغط جسدى لم يكن

---

(١) كان ذلك فى سنة ١٩٤٣ قبل أن يغزو العمران جزيرة الروضة كما هو الآن .

محملاً على مفاصلي . كذلك تعاون قرصا النوفالجين المسكّن للألم مع رهبة الموقف مع فرحتي الطاغية ، على تخدير آلامي ، وصحت في أخي كي يترك الدراجة ، وقمت بدورة كاملة في الميدان ، وعدت إليه متهللاً ضاحكاً كأني أركض فوق حصان جامح .

ودون أن أفكر كيف سأنزل من فوق الدراجة انطلقت إلى الجمعية الروحية في نشوة عارمة . فها أنذا أعدو بمفردي وبكامل حريتي في الطريق العام ، بعد أن كنت لا أستطيع أن أخطو فيه متكئاً على عصاي ، إلا إذا استندت إلى شخص آخر من الناحية الأخرى . ولم أجد صعوبة تذكر في التحكم في قيادة الدراجة ، لكني عندما بدأت أعبر كوبرى الملك الصالح ، حدث ما لم يكن في حسابي . أخذ « الجادون » يهتز بين يدي ، فقد أبطأت سرعة الدراجة لأن ساقيّ الكليلتين لم تقويا على دفع « البدال » في النصف الأول من الكوبرى وهو طريق صاعد . وتفصد العرق من جبيني وقد تملكني الرعب خشية السقوط وسط الكوبرى بين العربات والترام . لكنني استجمعت كل قوتي دون أن أبالي بآلامي . وبعد لحظات حرجة وصلت إلى منتصف الكوبرى ، وبدأت أنحدر في الجزء الثاني الهابط ، وأنا ألتقط أنفاسي دون أي جهد .

أخيراً وصلت إلى ڤيللا الأستاذ أبو الخير ، وكان يحيط بها سور حديدي ، فتشبثت به بيدي اليمنى بينما اليسرى تضغط « الفرملة » . وظللت في ذلك الوضع فترة غير قصيرة أفكر كيف سأنزل من فوق

الدراجة . وكانت أية مجازفة بالنزول وحدى تعرضنى للسقوط ، وعندئذ يستحيل علىّ الوقوف وحدى . وآثرت أن أظل فى مكانى حتى يصل أبى وزوج أختى فينقذانى من هذا المأزق ، لكن لحسن الحظ لمحتنى أخت الأستاذ أبو الخير ، وكانت صديقة لوالدتى وتعرف حالتى ، فصاحت فى البواب كى يسرع لنجدتى .

فى حجرة التحضير :

كانت حجرة تحضير الأرواح متوسطة الحجم ، سقفها منخفض ومطلى مع حوائطها باللون الأحمر . اصطفت فيها كراسى من الخيزران وكنبة عادية . وفى إحدى زواياها منضدة صغيرة عليها حاكى « جراموفون » وفوقها مصباح أحمر . ويجلس بجانبها الأستاذ أبو الخير متحكماً فى الحاكى ، والمصباح الأحمر ، والمصباح العادى المتدلى من السقف . وفى صدر المكان كرسى طويل كالذى يستعمل على الشواطىء يجلس عليه الوسيط « ابو سريع » .

بعد أن اتخذنا أماكننا ، أشار الأستاذ أبو الخير للمريض الأول ، فقام ليجلس على كرسى فى منتصف الحجرة تحت المصباح ، بينما تمدد أبو سريع الوسيط على مقعده فى وضع مريح ، ومن حوله الوسطاء المساعدون .

بدأت الجلسة باطفاء الأنوار جميعاً ، وقال الأستاذ أبو الخير :

— أرجوكم يا جماعة .. المسلمون يقرأون الفاتحة .. والمسيحيون يقرأون الجنيوت .

وراح الجميع يتمتمون بالصلوات ، وقد علمت فيما بعد أن هذه الصلاة القصيرة لتجميع أفكار الموجودين فى الذات الالهية ، وهذا يعمل على تركيز القوة الروحية التى تساعد على اتمام الاتصال بعالم الروح . ثم أدار الأستاذ أبو الخير أسطوانة موسيقية هادئة . وطوال الفترة التى قضيتها فى العلاج الروحى لم تتغير الإسطوانة، وهى موسيقى « عتاب » للموسيقار محمد عبد الوهاب . و بعد دقائق قصيرة من الموسيقى الهادئة وسط السكون المطبق ، يرتفع صوت أنفاس ثقيلة تتطور إلى أصوات كحشرجة مخنوق يحتضر، ثم تصمت فجأة ،وينطق الوسيط الذى كانت تصدر عنه هذه الحشرجة، فيقول بصوت يختلف عن صوت أبو سريع الطبيعى قبل أن يقع فى الغيبوبة:

— السلام عليكم . . .

فتتصاعد الهمهمات ترد السلام ، ويعود فيقول باللغة العربية الفصحى :

— أضىء النور ياسيد أحمد . ..

فيسرع الأستاذ أحمد أبو الخير بإضاءة المصباح الأحمر، و يسأل الروح التى تسمى « إيجل » :

— السيد إيجل حضر .. ؟

— نعم ياسيد أحمد ...

و يبدأ الأستاذ أبو الخير فى توجيه بعض الأسئلة إلى الروح ،

فيجيب عليها . وكان من ضمنها سؤال عنى .. وهل من الممكن علاجى ، فأجاب السيد « إيجل » بصوته الذى تشوبه لكنة أجنبية، ولكن بألفاظ فصحى دائماً :

— سنرى فيما بعد ياسيد أحمد . . .

ثم قام الوسيط متخشباً، وتقدم خطوتين نحو المريض الجالس أمامه فى مركز الحجرة . وراح يفحص رأسه ويدور حوله بنفس الخطوات المتصلبة وهو يحك قدميه بالأرض ، فبدا فى حركاته أشبه ما يكون بالإنسان الآلى . وكان يتمتم بكلمات غير مفهومة أحياناً ، وأحياناً تظهر بينها بعض الكلمات الإنجليزيه الواضحة . وقد علمت فيما بعد انه كان يتحدث مع الأرواح غير المرئية ويشاورهم فى التشخيص والعلاج . وعلمت من أبى أن « أبو سريع » الوسيط رجل أمى ولا يعرف حرفاً فى الأنجليزية ، وكان يعمل عند أبى فى مهنة « مبيض معمارى » .

وجاء دورى ، فجلست على الكرسى فى مركز الحجرة ، وتقدم نحوى الوسيط ، وراح يلمس مفاصلى بطرف أصبعه السبابة، وكأنه يشير لمعاونيه إلى مكمن الداء . وكنت أحس بسخونة غير عادية فى طرف أصبعه . وفجأة انتصب واقفاً وقال بالعربية :

— أطفىء النور ياسيد أحمد ...

وأطفىء النور ، فعادت الغرفة تسبح فى ظلام دامس ، بحيث لايرى المرء منديلاً أبيض قريباً من عينيه . ولم أشعر بأى خوف

أو رهبة، فقد كنت أعلم - من الكتب الروحية ومن زوج أختى — أن هذه الأرواح خيّرة ، وكان أصحابها آدميين علماء وصالحين فى حياتهم الدنيا . وهم يختلفون عن الجان أو العفاريت والأسياد .

جلست مطمئناً ، لكنى كنت مرهف الشعور لما يدور حولى . ولاحظت فى الظلام بقعاً ضوئية شاحبة تظهر بوضوح عند ركبتى متمشية مع السخونة التى تنبعث من طرف أصبعه . ثم أحسست بأصابع تمتد إلى رقبتى من الخلف ، فأجفلت لحظة وقد ظننت أن الوسيط سيخنقنى ، لكنه كان يفحص العمود الفقرى، ثم صعدت أصابعه إلى رأسى ، ثم توقف مرة ثانية وقال فى هدوء :

— أضىء النور يا سيد أحمد ...

وعاد الضوء الأحمر يغمر الحجرة . وإذا بأحد مساعدى الوسيط يقفز من مكانه وكأن أحداً يشده بعنف من ذراعه ، كما يحدث فى أفلام الرجل الخفى ، ووضع يده على ركبتى ، ثم قام مساعد آخر ، فركع بجانبى ، وراح ينفخ بشدة فى ركبتى لفترة طويلة لا يحتملها إنسان عادى ، رغم أنه كان رجلاً عجوزاً ضئيل الجسم. وهؤلاء المساعدون لا يقعون فى الغيبوبة مثل «أبو سريع» لكنهم يكونون مسلوبى الإرادة رغم انتباههم لكل ما يجرى حولهم . بعكس أبو سريع الذى كان لا يذكر شيئاً عند ما يفيق من الغيبوبة .

انتهى الفحص والتشخيص ، وعاد الوسطاء إلى مقاعدهم، وسأل

الاستاذ أبو الخير :

— ما رأيكم فى هذه الحالة يا سيد إيجل ..؟

فأجاب السيد إيجل بلسان الوسيط :

— إنها حالة مَسْ يا سيد أحمد ...

— وهل يمكن علاجه ..؟

— آى نعم يا سيد أحمد .. وعليه أن يحضر الجلسات بصفة منتظمة حتى يتم له الشفاء ...

وبعد علاج حالتين أخريين انتهت الجلسة ، وبدأ الوسيط يفيق من غيبوبته بالتدريج . وعندما أفاق من حركاته التشنجية ، أضاء الأستاذ أبو الخير النور العادى . ولاحظت علامات الإرهاق الشديد على وجه الوسيط ، الذى كان يتابع تعليقات الموجودين بنظرات ساذجة، ولا يجرؤ على اقتحام مناقشاتهم بشخصيته العادية التى تاهت بين الموجودين . وكان منهم الطبيب والعالم الأزهرى وضابط الجيش والمهندس والمحامى وغيرهم من المثقفين .

وقام الأستاذ أبو الخير يصافح والدى مهنئاً فى ثقة من شفائى، وراح يشرح لنا المرض الذى وصفه السيد إيجل بأنه «حالة مس»، فقال إن لكل إنسان «هالة» غير مرئية فوق رأسه، وأحياناً تسكن هذه الهالة روح عابرة عن قصد أو غير قصد ، فتتسبب عنها اضطرابات فى الجسم المادى . وحالة المس هذه يمكن علاجها فى جلسة واحدة بطرد هذه الروح المعتدية . ولكن المضاعفات

المرضية التى تركت آثارها فى مفاصلى تحتاج إلى بعض جلسات اخرى .

بدأنا نفكر فى طريقة للعودة إلى المنزل ، فاعترض والدى على ركوبى الدراجة وحدى بعد أن علم بالصعوبات التى واجهتها. فتطوع زوج أختى بأن يقود هو الدراجة ، ويأخذنى خلفه . وما كان يفعل هذا لولا أن الليل ستّار يعفيه من الحرج. فقبلت اعتقاداً منى بأنه يجيد قيادتها ، وما كاد يتقدم خطوتين حتى مالت الدراجة ووجدت نفسى مطروحاً على أرض الشارع ، أما هو فقد ساعدته ساقاه الطويلتان على تفادى السقوط ، وأسرع يرفعنى من سقطتى فى كثير من الحرج والخجل ، وأخذ يعتذر بأنه لم يركب دراجة منذ سنوات طويلة .

ولم نجد وسيلة تعيدنى إلى البيت سوى الركوب بمفردى . وعدت فعلا بنفس الطريقة ، وقد زودتنى التجربة بمزيد من الجرأة ، واتخذت احتياطى قبل « الكوبرى » بمسافة ، فزدت من سرعة الدراجة حتى أكسبتها قوة دفع تغلبت بها على النصف الصاعد من منحنى « الكوبرى ». وعند الوصول إلى بيتنا اخترت مكاناً مناسباً حيث الرصيف مرتفع فرسوت عليه بسهولة ، واتخذت من الدراجة نفسها متكأ متحركاً أستند إليه فى الوصول إلى باب البيت ، حيث ناديت أخى فأسرع لنجدتى . وقد أسعدتنى تلك الرحلة إلى أبعد حد ، فقد كانت انطلاقة نسبية بعد قيود ثقيلة ،

واستبشرت بوعود السيد ايجل المؤكدة .

حادث فى الطريق :

ومع كثرة التردد على الجمعية الروحية ، أصبح الأمر مألوفاً ومأموناً ، فكنت أذهب وحدى بالدراجة وأعود من الجلسة ليلاً بمفردى . وذات ليلة وقع لى حادث لا أنساه .

كانت مصلحة التنظيم تمهد لبناء سور من الحجر يحيط بجزيرة الروضة من الناحية الشرقية . وجهزت لذلك كميات هائلة من الحجارة وأكواماً عالية من الرمال على قارعة الطريق الموصل من «الكوبرى» إلى مقر الجمعية الروحية . وفى طريقى إلى هناك لمحت تلك الأكوام تسد النصف الأيسر من الطريق ، وفى العودة كانت بالطبع تسد النصف الأيمن الذى يلتزمه الراكبون . وللأسف غفا ضمير المسئول عن تلك السدود ، فلم يحددها بمصابيح حمراء تنبه المارة إلى خطر الاصطدام بها . ولم تكن أعمدة النور قد قامت بعد فى ذلك الشارع المظلم .

خرجت بدراجتى إلى الشارع المقفر الغارق فى الظلام ، وقد نسيت أكوام الرمال المكدسة فى طريقى — وإذ بى أدخل فيها فجأة ، فانغرست العجلة الأمامية فى الرمال الناعمة ، وتوقفت الدراجة ومالت على جنبها . وفى ثوان وجدت نفسى أنهار تحتها وأنا أكتم أناتى المتوجعة . وظللت راقداً على الرمال بضعة دقائق

حتى هدأ نباح مفاصلى التى أثارتها الحركة العنيفة . وتلفت حولى لعلى أجد من ينقذنى فى ذلك الشارع المقفر فلم ألمح أحداً. ورحت أزحف مخلصاً نفسى من الدراجة حتى وصلت إلى الرصيف القريب فجلست فوقه .

ولكن كيف سأقف على قدمىّ ؟ وكيف سأرفع الدراجة النائمة أمامى كالقتيل .. وأخيراً كيف سأركبها وحدى ؟ لقد كان أخى يضعنى فوقها فى الذهاب ، وبواب الفيللا يساعدنى على ركوبها فى الإياب . وأيقنت لأول وهلة أنى سأقضى تلك الليلة الحالكة فى الشارع !

عزّت علىّ نفسى فى هذا الوضع المهين ، وتطلعت إلى السماء الداكنة فى عتاب شديد ، وسألت الله أن يلهمنى تفسيراً لحكمته، واصراره على إذلالى وتعذيبى ، حتى لا أكفر بعدالته .

وإذ بى أسمع وقع أقدام تقترب من بعيد ، فأرهفت سمعى ، وسددت نظرى نحو بقعة من الضوء ألقتها نافذة على الطريق ، فإذا بثلاثة أشباح تقترب على الرصيف المقابل ، وعندما دخلوا فى منطقة الضوء ميزت ملابسهم وحدود أجسامهم ، فإذا بهم بعض ضيوف الجلسة الروحية . ثم عبروا أمام النافذة ، وابتلعهم الظلام من جديد ، ولم أعد أراهم غير إشباح باهتة ، لكن أصواتهم ظلت تعلو رويداً رويداً ، حتى أصبحوا أمامى على الرصيف المقابل . وفسرت حديثهم بوضوح فإذا بهم يتندرون ساخرين

مما رأوه فى الجلسة الروحية . وهممت بأن أنادى عليهم ، لكنى ترددت قليلاً ، ولم أدر ما الذى ربط لسانى فى تلك اللحظة . . هل خشيت أن أحرجهم عندما يكتشفون أنى سمعت حديثهم الساخر ، فيظنون أنى سأنقله إلى الأستاذ أبو الخير ؟ أو خشيت ألا يصدقوا أن السقوط من الدراجة يستدعى المساعدة ؟ ولكن مالى أبرر لنفسى هذا التقاعس ولا أعترف بأنه الخجل . . ذلك الداء اللعين هو الذى ألجم لسانى فلم أستطع أن أطلب المساعدة من أناس غرباء ؟ أم لعلها تلك الكبرياء السقيمة المفرطة فى السخف أبت علىّ أن يرانى أحد فى ذلك الوضع الضعيف المستخذى، فيمد لى يده مشفقاً راثياً ؟

عاد السكون يطبق على أنفاسى من جديد بعد أن أضعت الفرصة ، وترامت إلىّ ضحكاتهم الساخرة من بعيد وهم يهزأون من الوسيط الذى كان ينفخ كالمنفاخ ! ! فأقارن بين إنطلاقاتهم المرحة ، وقيودى الكئيبة ، قيودى الجسدية التى ألقتنى فى هذا المأزق ، وقيودى النفسية - الخجل والكبرياء - التى ضيعت علىّ فرصة النجاة .

وعدت أستنجد بعزيمتى ، وأستحث كبريائى حتى تعوض ما أضاعت . واستجمعت كل إصرارى فى ضغطة قوية على أحد مقبضى «الجادون» النائم على الأرض ، فأعطانى بذلك متكأ ارتفاعه حوالى نصف متر ، وهتفت من أعماقى . . يارب ، فاذا بى واقف

على ساقين ترتجفان من عنف المجهود الذى بذلته عضلاتهما الهزيلة. ثم استجمعت طاقة مماثلة إنتزعت بها الدراجة من الرمال ، وأقمتها مستوية على عجلاتها . ولم يبق إلا أن أجد من يساعدنى على اعتلائها. وفكرت فى رصيف مرتفع أقف عليه فيختصر لى بعضاً من ارتفاع الدراجة . وسرت أجر ساقىّ بصعوبة بالغة ، بينما إتخذت من الدراجة ذاتها سنداً متحركاً . وبعد مسيرة مرهقة عثرت على الرصيف المرتفع . لكننى عجزت عن الصعود فوقه، فعدت بالدراجة إلى جزء منخفض من الرصيف فخطوت فوقه ورحت أسحب الدراجة تحت الرصيف حتى وصلت إلى الجزء المرتفع ، فاعتليت الدراجة ، وبدفعة ثالثة عدت أنطلق فى طريقى وكأن شيئاً لم يحدث .

ظواهر روحية :

رغم هذا الحادث المؤلم فقد ظللت أواظب على حضور الجلسات الروحية طوال ستة أشهر ، دون أى تحسن ملموس فى مرضى ، لكننى لاحظت خلالها بعض الظواهر الروحية الغريبة التى لا أستطيع أن أنكرها أو أؤيدها ، لكننى أستطيع أن أؤكد أنها غير عادية . . مثل تلك الأضواء التى كانت تبدو فى الظلام فوق ركبتى ، وتلك الحرارة التى تنبعث من أصبع الوسيط ، والأضواء الكثيرة التى كنت أراها وأنا فى مقاعد المتفرجين ، وهى تصعد وتهبط بين رأس المريض وسقف الحجرة . وكانت

المعلومات والنبؤات التى تأتى من عالم الروح أقل ما توصف به أنها فوق معلومات الوسيط أو بلغة لا يفهمها . وقد رأيت وسيط الكتابة التلقائية يكتب تفاصيل اختراع بطارية جافة طلبها أحد المهندسين ، وهو لا يفهم شيئاً عن الكهرباء .

والكتابة التلقائية نوع من الوساطةالروحية . يجلس الوسيط امام منضدة عليها اوراق كثيرة ، ويمسك بالقلم عمودياً على صفحة الورق ، وبعد قليل تتقمصالروح يد الوسيط ، ثم تحركها فى حركات تشنجية سريعة ، ويكتب ما تمليه الروح فى حروف كبيرة مشوشة لكنها مقروءة . وقد تكون بلغــــة لا يعرفها لوسيط نفسه .

وهناكأنواع أخرى من الوساطة ، كالجلاء السمعى،والجلاء البصرى ، وهؤلاء الوسطاء يسمعون من حديث الأوراح مالا يسمعه الحاضرون ، ويرون الأرواح فى شكل هلامى شفاف .

والواقع الذى لاشك فيه أن الأستاذ أبو الخير كان عالماً نزيهاً ، عاش نظيف اليد بعيداً عن الدجل . ولم يكن يتقاضى مليماً واحداًمن أىإنسان ، بلكان يدفع من جيبهمرتباًلأبو سريع كتعويض عن مهنته التى تركها وتفرغ للتجارب الروحية . ولكن الواقع أنه لم يصل إلى نتائج حاسمة لضعف الوسطاء الموهوبين . وقد كان الأستاذ ابو الخير يتحرق شوقاً لاجتذاب أحد الوسطاء العالميين كى يستخدم وساطته فى اقناع المصريين بصحة نظريات العلوم

الروحية مثبتاً قوله بالبراهين والمعجزات المادية .

علاج غيابي :

ومن هؤلاء الوسطاء العالميين «هاري إدواردز» وله مؤسسة ضخمة بمقاطعة « سوري » بالقرب من لندن . ويقال أنه يشفي المرضى ذوي العاهات المستديمة في جلسة واحدة . وقد عرض الأستاذ أبو الخير شريطاً سينمائياً ، في قاعة يورت ، ظهر فيه كيف أمكنه شفاء الأصم والمشلول في دقائق معدودة . وهاري ادواردز يعالج من يريد من المرضى في جميع أنحاء العالم علاجاً غيابياً ، وذلك بأن يحدد موعداً ثابتاً للمريض يمكث فيه ساعة كاملة في ظلام دامس . ويرسل إليه هاري ادواردز أرواحه المعالجة عبر البحار .

اتصلت بهاري ادواردز بالبريد ، وسألته إذا كان يضمن علاجي في مؤسسته إذا ما تكبدت عناء السفر ومصاريفه ، فرد على بقوله إنه لا يضمن شيئاً ، وليس لديه مكان لإقامتي ، وعليّ أن أدبر ذلك بنفسي إذا شئت . ثم وعدني بالعلاج غيابياً إذا جلست في الظلام ساعة معينة كل أسبوع . وقال إنه لا يتقاضى أجراً ، ولكن المؤسسة تتكبد بعض المصاريف التي تغطيها تبرعات المرضى والمهتمين بالعلوم الروحية . والواقع أن المبالغ التي كنت أتبرع بها كانت زهيدة جداً ، وهي بعض من أذونات البريد العالمية التي لا تزيد قيمة الواحد منها عن «شلن» على ما أظن. وجملة

تبرعاتي خلال فترة العلاج التي استمرت شهوراً ، لم تزد عن أجر أي طبيب في زيارة واحدة . فالأمر إذن لم ينطو على أي إستغلال مادي . كذلك لم يسفر العلاج الغيابي عن أي تحسن ملموس ، حتى مللت المراسلة ومللت الساعات التي كنت أقضيها في الظلام .

الاتصال بالجان :

أدهش زوج أختي عدم جدوى العلاج الروحي ، وكان من المؤمنين به والمتحمسين له . وأرجع هذا الفشل إلى ضعف وساطة أبو سريع . وراح ينقب عن وسيط آخر قوي كان يستخدمه الأستاذ أبو الخير قبل أبو سريع . اسمه «ياسين» . وكانت تتم بوساطته ظواهر روحية مثيرة . لكنه تخلى عنه لأنه كان يدمن الخمر ، ويأتي أعمالاً تتنافى مع الجو العلمي الذي يعمل فيه الأستاذ أبو الخير .

أخيراً عثرنا على « ياسين » . وأقنعه زوج أختي بأن يعقد جلسات روحية خاصة في بيتنا ، فوافق . وكانت الروح المهيمنة عليه هي روح السيد « سيلفربيرش » . وهي روح علوية سامية لكنها تخلت عنه عندما ترك الأستاذ أبو الخير . وبما أن ياسين وسيط موهوب فقد وجد فيه الجان مكاناً خصباً . فتقمصته روح «الملكة عاقصة» . وكانت «عاقصة» توقعه في الغيبوبة في أي وقت . وفي وضح النهار ودون موسيقى أو بخور .

بدأت الجلسة . وبعد لحظات تشنج ياسين وتقلصت ملامحه . وراح يتكلم بصوت غليظ جداً يختلف تماماً عن صوته الطبيعي . وقال إنه خادم الملكة « عاقصة » . وأعلن أنها قادمة في الطريق . وبعد قليل أتت الملكة «عاقصة» . وتكلمت بلسان ياسين . فخرج صوته هذه المرة رفيعاً للغاية . وقدمت نفسها . فسألها زوج أختي عن السيد «سيلفربرش» . فارتجفت وهي ترجو ألا نحاول احضاره حتى لا يعيدها إلى السجن ويحتل جسد ياسين . طمأنها زوج أختي على مصيرها بشرط أن تتولى علاجي .

كان ياسين يتمدد على البساط عندما تتقمصه الجان . وتصدر عنه أصوات متناقضة . مفرطة في الغلظة والنعومة . عندما تتناقش الملكة «عاقصة» مع خادمها . فكان هذا الحوار يثير ضحكاتنا أحياناً . لكننا كنا نكبتها خوفاً من إغضاب جلالة الملكة!! لكن ضحكة أفلتت من أخي الواقف في ركن الحجرة . فصاحت الملكة «عاقصة» :

— لماذا تضحك يامكرم ؟.. إنك لا تصدق أن الملكة «عاقصة» تتقمص جسد ياسين .. أليس كذلك ؟

فحاول أخي أن يعتذر ، لكنها قالت :

— تعال هنا .. قف وراء ياسين ...

فتقدم أخي مبتسماً حتى يرى ماتريد منه الملكة التي أكملت قولها :

— حاول الآن بكل قوتك أن ترفع رأس ياسين عن الأرض ولو ملليمتر واحد ...

كان ياسين هذا هزيلاً ، وكان أخي قوى البنيان بارز العضلات ، وفى إمكانه أن يرفع ياسين كله عن الأرض بسهولة . فتقدم نحو ياسين بكل ثقة ، لكنه لم يستطع أن يدخل أصابعه تحت قفاه ، وحاول بكل قوته أن يزحزح هذا الرأس من مكانه فلم يستطع ، وكرر المحاولة بمزيد من العزم والتصميم ، لكنه عجز عن تحريكها قيد أنملة ، وعندئذ هتفت الملكة شامتة :

— هل صدقتم الآن . . ؟

وهنا تلاشت ملامح السخرية من وجوهنا ، وحلت محلها أمارات الاقتناع والاحترام . لكن تلك التجارب لم تدم ، فقد هرب ياسين ، ولم يواظب على عقد الجلسات. وظللت فترة طويلة أتندر على عاقصة وخادمها، مقلداً أصواتهما ومناقشاتهما المضحكة.

المندل :

وما دمنا بصدد هذه الأساليب الغيبية ؛ فلا بأس من ذكر تجربة «المَنْدَل» التى كانت ضمن القش الذى يتعلق به الغريق . والمعروف أن المندل يستعمل فى كشف المسروقات والأسرار الخفية ، بأن ينظر صبى أو فتاة صغيرة فى وعاء به حبر وزيت ، فيرى على صفحته أناساً يتحركون ويقومون بما يُطلب منهم. ولنبدأ

التجربة من أولها .

جئنا بفتاة فى نحو السادسة عشرة من عمرها ، كانت تعمل بخدمة بيتنا . وجلست أمام فاتح المندل ، الذى جاء بورقة بيضاء كتب عليها الآية القرآنية الكريمة : « لقد كنت فى غفلة من هذا، فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد » ووضعها على جبين الفتاة ، وربط عليها بمنديل . ثم أعطاها فنجان شاى به الحبر والزيت ، وطلب منها ان تنظر إلى السائل ، وتصف ما تراه . وراح يردد آيات من القرآن الكريم ويتمتم ببعض التعاويذ ، وينادى على « سكان المكان » من الجان كى يظهروا فى الفنجان . وبعد قليل قالت الفتاة وكأنها تنظر إلى شاشة تليفزيونية صغيرة :

— أرى بعض الناس الصغار يتحركون هنا وهناك . .

فقال يلقنها :

— قولى لهم . . السلام عليكم . .

فرددت كلماته ، وعاد يقول :

— أطلبى منهم أن يكنسوا المكان ويرشوه بالماء . . .

فقالت . . ثم أعلنت أنهم نفذوا طلبها . . ثم طلب منها أن يذبحوا خروفاً ويعدوا المائدة ، ففعلوا . وعاد يطلب منها أن تدعوهم للطعام . . فقبلوا الدعوة . وهنا اطمأن إلى صداقتهم وإكرامهم ، فقال لها :

— اطلبى منهم أن يحضروا المريض أمامك . . .

وما لبثت الفتاة أن هللت وكبرت عندما رأت صورتى على صفحة السائل الداكن ، ثم طلب منها أن تأمرهم بإحضار الطبيب ليفحصنى ، ففعلوا . وخطر لى أنهم إذا جعلوا « قرينى » يقوم من السرير فى عالم الجان ، فقد يؤثر هذا بالمثل على جسدى الحقيقى . فطلبت منه ذلك . . وإذا بالفتاة ترانى فى الفنجان أقوم وأتحرك وأجرى ، إلى آخر التمرينات الرياضية التى طلبناها منهم ، لكننى لم أشعر بأية نبضة غير عادية فى جسدى . ثم انتهت التجربة بالفشل طبعاً . وبقى سؤال يحيرنى : ما سر تلك الصور الواضحة التى أقسمت الفتاة على المصحف بأنها كانت تراها فعلا ؟ وقد خطر لى أنها قد تكون مجرد تهيؤات ، فأعدت معها التجربة مراراً بدون الوسيط أو فاتح المندل ، فلم تر غير صفحة السائل اللامعة .

ويمكننى أن أقرر بضمير مطمئن أنى على كثرة ماسمعت وقرأت فى هذه المجالات . لم ألمس بيدى برهاناً قوياً يمكننى أن أعتبره حقيقة علمية أتحمس لها وأدافع عنها . ورغم ماذكرته من مشاهداتى الشخصية التى لا تخلو من غرابة ، فإنها لا ترقى — فى تقديرى — إلى مستوى الإيمان أو اليقين . وإن كنت أميل إلى الاعتقاد بإمكانية الإتصال بعالم الأرواح والجان ، لكننى لم ألمس أية نتائج علاجية فى هذا المضمار .

وقبل أن أترك الحديث فى هذا الموضوع أحب أن أذكر بعض التجارب الصغيرة ، التى قمت بها شخصياً ضمن عشرات

المحاولات التي أجريتها بعقلية علمية محايدة . وهـذه التجارب أجريتها على وسيلتين معروفتين لـكثير من الناس الذين يحاولون الاتصال بالأرواح .

الفنجان المتحرك :

أولاهما طريقة الفنجان المتحرك ، وهذه عرفتها عن زوج أختي، الذى علمني إياها كلعبة للتسلية . كانت التجربة لا تتطلب أكثر من لوحة كبيرة ترسم عليها دائرة قطرها أربعين سنتيمتراً ، وتـكتب على محيطها حروف الهجاء ، ثم بعض الـكلمات المستعملة كثيراً ، مثل . . نعم ، لا ، السلام عليـكم ، وذلك توفيراً للوقت فى تلقى الإجابات من الروح .

يوضع فنجان قهوة مقلوب وسط الدائرة ، ويجلس شخصان أو ثلاثة حولها ، ويضع كل منهما طرف أصبعه السبابة على قاعدة الفنجان المقلوب . وأحسن من يصلح لهـذه العملية هن الفتيات الصغيرات حول سن الخامسة عشرة ، فتلك الفئة تتمتع بوساطة قوية فى تحريك الفنجان . يقول الروحيون إن الروح تستمد قوة من مادة الاكتوبلازم المنبثقة من أجسام الوسطاء . وهذا الاكتوبلازم يتحول إلى قوة مادية تدفع الفنجان فى أى إتجاه حسب رغبة الروح .

تبدأ العملية بسؤال الروح عن اسمها ، فتتحرك أذن الفنجان

متجهة إلى الحرف الذى تريده الروح . وتتكرر الحركة ، وتشير أذن الفنجان إلى عدة حروف يتكون منها الاسم المطلوب . وتتوالى الأسئلة ، وتتوالى إجابات الروح بهذه الطريقة البطيئة، وأحياناً يتحرك الفنجان بسرعة وأحياناً يتلكأ ويخطىء ، حسب قوة الوسطاء وقوة الروح المهيمنة على الفنجان .

هذه هى الطريقة المعروفة . لكنى شككت فى الإجابات أن تكون من وحى أفكار الوسطاء ، فأردت أن أتأكد من ذلك بالدليل المادى . فسألت الروح أن تحكى نكتة جديدة . وإذ بالفنجان يدور ويحكى نكتة لطيفة . بقى الشطر الثانى من التجربة البسيطة وهى سؤال الوسطاء : هل منهم من سمع هذه النكتة من قبل ؟ .. وجاءت الإجابة مؤكدة اشكوكى . فقد كانت إحداهن تعرف النكتة ، فكانت تدفع الفنجان — لاشعورياً — نحو الحرف الذى تفكر هى فيه .

وفى تجربة أخرى عاند الفنجان ولم يتحرك ، ومعنى هذا أنه لاتوجد روح مستعدة للتعاون معنا . فاقترحت أن أضع أصبعى معهم ، رغم أنى متأكد من ضعف وساطتى أو إنعدامها . وصبرت معهما على ذلك الوضع فترة طويلة حتى تأكدت من عدم وجود أرواح متعاونة . ثم بدأت أضغط على الفنجان برفق فحركته من مكانه ، فهتفت الفتاتان مرحبتين بالروح الوافدة . وتماديت فى خدعتى ، فرحت أوجه الفنجان إلى جملة « السلام عليكم » ،

فتمتم الحاضرون مرددين التحية بأحسن منها ، وهنا حان الفصل الأخير من التجربة التى رسمتها فى ذهنى ، فادعيت أن ذراعى آلمتنى ، وسحبت أصبعى من فوق الفنجان ، تاركاً إياه للفتاتين ، بعد أن أيقنتا بوجود الروح الوهمية . وإذ بالفنجان يستمر فى الحركة مجيباً على أسئلتهما مدفوعتين بالإيحاء الذى أدخلته فى روعهما.

وهكذا تأكد أن الروح المزعومة ليست إلا الوهم !

وقد سألت مرة الأستاذ أبو الخير ، إذا ما كان ممكناً أن يتحرك الفنجان دون أن يلمسه أحد حتى تتأكد صحة التجربة ، فأجاب باسماً كأنما يهزأ من جهلى :

— إن الاكتوبلازم لا ينتقل إلا باللمس المباشر . .

وعندما عدت إلى البيت ، أخذت أفكر فى جهاز بسيط يكفل انتقال الاكتوبلازم باللمس المباشر ، دون أن يستطيع الوسطاء أن يؤثروا فى المؤشر المتحرك . وبعد شىء من التفكير تمكنت من تحقيق فكرتى بأدوات بسيطة كانت موجودة تحت يدى .

جئت ببكرة خيط فارغة ، وأزلت أحد رؤوسها ، بحيث تصبح الرأس الثانية كقاعدة تثبت وسط الدائرة . وجئت بعجلة رولمان بلى صغيرة ، وكانت هذه العجلات موجودة بكثرة أيام الحرب ، ويلهو بها الأطفال . ثبتُّ الدائرة الداخلية من العجلة فى الجزء الأوسط من بكرة الخيط المقطوعة الرأس والراسية على قاعدتها . وبهذا أصبحت العجلة الخارجية تدور أفقياً فى حرية

تامة . ثم جئت بقطعة من السلك وحزمت بها العجلة الخارجية في « الرولمان بلي » ، ثم أخرجت منها بقية السلك فيما يشبه عقرب الساعة . أي أن عقرب السلك اكتسب نفس حركة العجلة الخارجية. فأصبح يشير إلى أي حرف عند أي مؤثر مباشر مهما كان ضئيلا. ثم عرضت الفكرة على زوج أختي وطلبت منه أن يجروا عليها التجربة ، بأن يضع الوسطاء أصابعهم على الدائرة الداخلية من « الرولمان بلي » فيسري الاكتوبلازم المزعوم إلى العجلة الداخلية .. وبما أنها ملامسة للكرات الحديدية ، وهذه بدورها تلامس العجلة الخارجية ، فإن الاكتوبلازم سيسري في العجلة الخارجية التي تحمل المؤشر ، فاذا كانت الأرواح لها قوة فعلية ، فهي قادرة على تحريك المؤشر ، وفي نفس الوقت أضمن أن الأصابع لا يمكن أن تؤثر في المؤشر حتى ولو أراد الوسطاء .

وبالطبع فشلت التجربة ، أو على الأصح نجحت في إثبات أن الأرواح لا تستطيع أن تحرك الفنجان إلا بوحي من الإنسان أو بإرادته الواعية .

السلة الطائرة :

أما التجربة التي حيرتني فعلاً ، ولو أني أعرف رد علماء النفس مقدماً ، فهي تجربة تحضير الأرواح بواسطة السلة . وهي التجربة التي أدخلها في الشرق العربي الأستاذ أنيس منصور في

أوائل سنة ١٩٦٠ ، وكانت لها ضجة كبيرة حينذاك . وكأى فكرة جديدة غريبة لم أرفضها ، وكذلك لم أسلم بها ، لكنى تحمست لتجربتها .

أحضرت السلة وثبت فيها القلم ، ودعوت فتاة رقيقة اسمها « نجلاء » بريئة الملامح ، طاهرة الأعماق ، عمرها يقرب من سبعة عشر عاما . ورغم أنى أعرفها جيداً فلم أشأ أن أعتمد على ثقتى الشخصية فى أمانتها ، وآثرت أن أباشر التجربة بعقلية علمية محايدة .

طلبت روح المرحوم والدى ، فحضرت ، وألقت السلام ، ورحنا نسألها بعض الأسئلة ، وكانت أختى الكبرى تحضر التجربة ، فتأثرت بالموقف ، وكانت توجه إليه الكلام فى لهفة ورهبة ، وقد تخيلت أنها تخاطب أباها فعلاً . ثم أردت أن أتأكد من وجود الروح .. أى روح ، فقلت مخاطباً إياها :

ـ إذا كانت فى الحجرة معنا أى روح .. تتنبأ بالمستقبل ، فهى من باب أولى تستطيع أن تقرأ ورقة مكتوبة فى هذه الحجرة...

وأمسكت بورقة وكتبت عليها ثلاثة أرقام . وكانت الوسيطة نجلاء تجلس أمامى على بعد ثلاثة أمتار ، بحيث يستحيل عليها قراءة الورقة اطلاقاً . وطلبت من الروح متحدياً أن تقرأ الأرقام التى فى يدى ، ثم تكتبها عن طريق السلة التى فى يد نجلاء . وأصررت

على نض الجلسة إذا لم تثبت الروح وجودها بكتابة تلك الأرقام الثلاثة . . .

وإذا بالسلة تتحرك وتكتب نفس الأرقام بنفس الترتيب ! !

أسعدتنى التجربة الناجحة ، فأعدتها مرة واثنتين وثلاثة .. وكانت النتيجة صحيحة فى كل مرة . وافترضت المستحيل ، وهو أن نجلاء خمنت تلك الأرقام .. لهذا لجأت إلى خدعة بسيطة ، ففى التجربة الرابعة كتبت الأرقام بحروف لاتينية دون أن أخبر أى أحد ، ولدهشتى البالغة راحت السلة تتحرك فى خطوط متعرجة بين دهشة الوسيطة والحاضرين ، الذين ظنوا فى البداية أن الروح أخطأت هذه المرة . ثم ذهلوا معى عندما كتبت السلة نفس الأرقام اللاتينية التى خطتها يدى دون أن يراها أو يتوقعها أحد !

وكما قلت فى أول الحديث عن هذه التجربة أن علماء النفس قد يفسرون هذه الظاهرة بأنها نوع من الإيحاء ، كما يحدث بين المنوم المغناطيسى ووسيطه . وإلى هؤلاء أسوق بقية التجربة . فقد سألت الروح سؤالاً لا أعرف إجابته ، قلت :

— عندما يدق أول جرس تليفون فى حجرتى الآن . هل سيكون المتكلم ذكراً أم أنثى .. ؟

كتبت السلة : — أنثى ...

وعدت أمعن فى التدقيق :

— وما اسمها .. ؟

فكتبت السلة هذا المقطع « سو » وتوقفت ، فسألناضاحكين:
— هل اسمها سوسو . . ؟
ولم تجب السلة ، ثم أستأذنت الروح فى الانصراف . وجلسنا نترقب أول طارق يطلبنا فى التليفون . وبعد قليل دق جرس التليفون ، فرفعت السماعة بلهفة وإذا بالمتحدثة أنثى واسمها «سوسن».

أعتقد أن هذه التجربة تجزم بأن الأمر ليس فيه إيحاء ، ومن الانصاف أن نفكر فيه كثيراً قبل أن ننكر وجود الروح وإمكان الاتصال بها .

علاج نفسانى :

بعد أن يئسنا من العلاج الطبى ، والروحى ، سنحت لنا فرصة للعلاج النفسانى على يد أحد أساتذة الطب النفسى ، وهو المرحوم الدكتور زكى الحفنى . وكان مثالا للطبيب العالم النبيل . وقد تتلمذ على العلامة فرويد شخصياً فى بعثته العلمية .

كان العلاج يعتمد على التحليل النفسى، ليخوض فى ماضى حياتى ، ويكتشف العقدة التى قد تكون سبباً فى إحداث القيود العضوية . بدأ أولا بدراسة أحلامى ، حيث كان يفك ألغازها ويرجعها إلى أسبابها بطريقة تذهلنى عندما يكشف أسرارى الكامنة فى اللاشعور .

طلب منى أن أحتفظ بورقة كبيرة وقلم فى متناول يدى ، حتى إذا ما استيقظت أثناء الليل أو فى آخره أسارع بتدوين

ما يعلق بذهنى مما تراءى لى فى أحلامى . وكنت أدون أحلامى أحياناً وأنا مغمض العينين بخط كبير ، حتى لا أضيء النور فيهرب النوم من رأسى . وفى الصباح تذكرنى العبارات المشوشة بأحلامى فأرصد ما أتذكره من تفصيلاتها فى كراسة أخرى لحين حضور الدكتور الحفنى لزيارتى فى الجلسة التالية ، حيث يناقشها معى ، ويحاول أن يرجعها إلى أصولها ، متلمساً فيها أسباب المرض .

تطلع إلىّ ذات يوم ، وقال :

— إذا تأملت فى وضعك الراقد على السرير . . فماذا ترى ؟

قلت :

— لا أفهم ماذا تعنى .

فقال :

— إن جسدك قد تيبس فى وضع قريب جداً من شكل المسيح على الصليب . إحدى ساقيك ممدودة ، والأخرى تنثنى قليلا ، وذراعاك منفرجتان عن جسدك ، ورأسك تميل قليلا إلى الأمام . .

فرأيت نفسى أتمتم فى ذهول :

— بل إنى مصلوب فى وضع ثابت على صليب مفرغ بين الوسائد الأربع التى أنام عليها . .

ثم هتفت متسائلا :

— ولكن ماذا يعنى هذا التطابق ؟ .

قال مفكراً :

— قد يكون عقلك الباطن هو الذى صلبك فى هذا الوضع تكفيراً عن خطأ ارتكبته فى الماضى . إنه نوع من تأنيب الضمير .

— وما عساه أن يكون هذا الجرم الشنيع الذى يستوجب الصلب ؟

قال ضاحكاً :

— وهل ارتكب المسيح جرماً حتى صلبوه ؟ ومع ذلك فهذا مجرد فرض . ولعلك تعلم أن العقل الباطن ساذج بدائى .. قد يضع حلولاً لمشاكله تتنافى مع المنطق السليم .. لكنها حلول مباشرة للمشكلة التى تؤرقه .

وراح يروى نماذج توضح هذه الفكرة ، فحكى لى عن الأرملة التى أرهقها العمل على آلة الحياكة ساعات طويلة حتى تعول أطفالها، فتجمعت كل آمالها فى أن تتخلص من تلك الآلة اللعينة . فما كان من عقلها الباطن إلا أن خلصها من مصدر شقائها فعلاً ، بأن أصابها بشلل كاذب ! لقد حل مشكلتها بطريقة ساذجة دون أن يفطن إلى أنه أوقعها فى مشكلة أكثر بشاعة وقسوة . وعندما اكتشف الطبيب النفسانى سر العقدة بالتحليل النفسى، أمكنه بسهولة أن يشفى المريضة من الشلل الوهمى الذى كانت له أعراض المرض العضوى .

وهنا تبادر لذهنى خاطر مماثل .. ألا يجوز أن كرهى الشديد لجو المدرسة الثانوية ، هو الذى دفع عقلى الباطن إلى حل مشكلتى على هذا النحو المباشر ، بأن عاقنى عن الذهاب إلى المدرسة ؟ !.

صارحت الدكتور الحفني بخاطري هذا ، فأبدى تأييده لاحتمال وقوعه ، وراح يناقشه معي ضمن إحتمالات أخرى كثيرة .. لعله يصل إلى جذور المشكلة . .

لم تكن مادة الأحلام كافية لإمداده بالمعلومات المختزنة في اللاشعور . فلجأ إلى التنويم المغناطيسي لعله يفتح به مخزن الأسرار في عقلي الباطن .

بدأ أول محاولة بأن أظلم الحجرة ، ثم وقف عند قدمي وأخرج من جيبه مصباحاً يدوياً صغيراً « بطارية . وراح يحركه أمام ناظري وأنا في وضع إسترخاء . بينما أخذ يردد في صوت هادىء واثق النبرات ؟ .

— أنت الآن مسترخي العضلات .. سوف تنام نوماً عميقاً .. نوماً عميقاً .. ستنام نوماً عميقاً ...

وراح يردد هذا الايحاء ، وهو يحرك بقعة الضوء في حركات مختلفة ليشد نظري إليها .. ثم أمرني بأن أسبل جفني واستسلم للنوم. ورغم رغبتي الصادقة في التعاون معه على نجاح التجربة ، فقد أبت رأسي العنيدة أن تستجيب للتنويم المغناطيسي . . .

وفي يوم آخر قام بمحاولة ثانية مستعيضاً عن الضوء الخافت بمرآة صغيرة يتوسطها ثقب قطره حوالي خمسة ملليمترات، وطلب مني أن أركز بصري على الثقب ، بينما أخذ يحرك المرآة أمام عيني مردداً الإيحاء بالنوم العميق . . ولكن دون جدوى . .

أخيراً لجأ إلى طريقة مادية لتخدير عقلى الواعى، حتى يستطيع أن ينفذ إلى قرار اللاشعور . فأظلم الحجرة إلا من ضوء خافت ينبعث من « أباجورة » خلفى . وعبأ محقنه بمادة مخدرة ، ثم غرس إبرته فى وريدى ، وراح ينفث المخدر قطرة قطرة فى دمى .. ببطء شديد ، بينما طلب منى أن أعد من رقم مائة عداً تنازلياً ... حتى إذا ما بدأت أتلعثم أو أخلط فى العد ، يوقف حقن المخدر ، قبل أن أصل إلى الغيبوبة الكاملة . فقد كان هدفه أن يقف بى بين النوم واليقظة أى بين الوعى واللاوعى ، حيث يغفو الرقيب على مخزن اللاشعور فيستطيع أن يستدرج محتوياته أثناء مناقشتى .

كنت أحس بخدر لذيذ ، وأتخفف من قيودى النفسية ، فلا أشعر بخجل أو رهبة أو حرج .. رغم يقظتى التامة لكل كلمة أنطقها . وكنت أخوض معه فى شتى الأحاديث الصريحة دون إرتباك أو حياء . وكان يستغل أيضاً فرصة الباب المفتوح إلى مخزن اللاشعور ، فيتسلل إليه بإيحاءاته الصحية المفيدة .

استمرت جلسات العلاج النفسى عدة أسابيع دون أى تقدم ملحوظ رغم الجهود الصادقة التى كان يبذلها هذا الطبيب النبيل . ورغم أنه كان يتقاضى أجراً رمزياً ضئيلاً ، فقد بدأنا نمل ونتعجل النتيجة ، لكننى كنت أخجل من مصارحته بقلقنا .

وذات يوم لاحظ الدكتور الحفنى أنى مكتئب قلق . فسألنى قبل الجلسة عما يشغل بالى ، فلم أجرؤ على مصارحته برغبتنا فى إيقاف

العلاج توفيراً للمصاريف . وبعد أن بدأ المخدر يسرى فى عروقى، وجردنى من الخجل والحرج ، عاد يسألنى عما يشغل بالى . ودون أى تردد صارحته بالحقيقة فى بساطة وأنا مدرك تماماً لما أقول . فضحك ملء شدقيه ووعدنى بأنه سوف يتم العلاج دون أى أجر .

وعندما انتهت الجلسة ، وبدأت أتخلص من المخدر العجيب ، عاودنى الحرج من جديد ، وخشيت أن يفاتحنى فى الموضوع فأكاد أذوب خجلاً . وعند انصرافه ، مد إليه أبى يده بالورقة المعتادة ذات الجنيه . لكنه تراجع متمنعاً وهو يقول مبتسماً :

ــ كلا .. لقد اتفقت مع إبنك على أن أتمم العلاج مجاناً ..

فهتفت فى حرج شديد :

ــ كلا يادكتور . . لم أكن أقصد . . لقد كنت أخرف ..

فقال ضاحكاً :

ــ بالعكس ... بل إنك تغالط الآن . . ولم يكن بوسعك إلا أن تقول الصدق أثناء التخدير . .

ولم يتخل الطبيب الإنسان عن علاجى طوال ستة عشر جلسة خلال ثمانية أسابيع ، ثم اضطر إلى الانسحاب بعد أن تأكد له أن قيودى لن تستجيب للعلاج النفسانى . وإن لم يكن جسدى قد جنى نتيجة إيجابية من تلك الجلسات ، فقد استفاد عقلى كثيراً من الساعات الطويلة التى قضيتها مع هذا الطبيب العالم .. الإنسان .

علاجات دينية .

إن المأزوم والمتألم عادة ما يتجه إلى السماء طالباً الرحمة والشفاء ، فإذا ما تلكأت رحمة السماء فى الوصول إليه ، فإنه يلجأ إلى وساطة أولياء الله ورجال الدين حتى يطلبوا له الإفراج من سجن المرض .

لم أشذ عن هذه التقاليد الموروثة ، ورحت أغرى الأولياء والقديسين بالوعود المغرية والنذور الكبيرة إذا ما نجحت وساطتهم فى إقناع السماء بأحقيتى فى الشفاء . وكأن الله سبحانه وتعالى محتاج لمن يبصره بشئون عباده ، ويقنعه بالعفو عنهم !!

كم كنت ساذجاً حينما توهمت حينذاك أن النذور المادية كفيلة بتحقيق أغراضى . وكم كنت أكثر سذاجة عندما تمر الأيام ولا تثمر الوساطات . فأحاول أن أغرى الوسطاء بمزيد من النذور حتى يضاعفوا اهتمامهم بمشكلتى العويصة !

كان أهلى يحملوننى إلى الجوامع والكنائس والأديرة ، حيث رجال الدين والرهبان يمسحون جسدى العليل بالزيوت المقدسة ، ويتلون الصلوات والدعاء على رأسى فى تمتمات مبتهلة متهدجة . ويغلبنى التأثر ، واندفع فى تهور باذلاً العهود والنذور بسخاء يفوق طاقتى ، حتى أنى كنت أشفق على نفسى من الورطة إذا ما نلت الشفاء حقاً وجاء موعد السداد .

ظللت فترة طويلة متمسكاً بأهداب القديس مار جرجس ، أناجيه

فى صلواتى ، واستعطفه فى الحاح أن يلبى ندائى . ووعدته أن أرسم له صورة كبيرة أهديها إلى كنيسته فى مصر القديمة . ثم أردت أن أثبت له حسن نيتى ، فبدأت فعلاً فى رسم الصورة بمنتهى الحماس والتأنى والإتقان . وكنت استغرق فى الرسم فى خشوع وابتهال ، وأتأمل القديس جرجس وهو يبرز على الورق أمامى .. فوق حصانه الأبيض ، وبيده الحربة التى يطعن بها التنين . . وأناجى صورته فى مزيد من العشم والإيمان وأناشده أن يستجيب لرجائى . وجاء وقت خيل لى أنه عندما تكتمل الصورة ، سوف تتجسم أمامى حقيقة واقعة ، ويخرج منها القديس جرجس ليلمسنى بحربته فى رفق . . آمراً إياى بأن أقوم من سريرى . . !

وعندما انتهت الصورة ، كانت نذورى قد وصلت إلى صفقة مغرية ، فقد وعدت القديس جرجس بأن أرسم له مجموعة من الصور الكبيرة بعدد الكنائس المسماه باسمه فى مصر . . وهى كثيرة جداً . . ومع ذلك لم يستجب لتوسلاتى . . برغم أن الصورة كانت متقنة جداً !

إننى لا أسخر من الأولياء والقديسين ، بل أكن لهم كل تقدير واحترام . فهم على الأقل قمم اخلاقية حظيت برضاء الخالق . ويكفيهم هذا فضلاً لنمجدهم من أجله . لكنهم بعد هذا مجرد بشر لا يملكون حق الشفاعة والوساطة بين الخالق والمخلوق . وأعتقد أن أحكام

السماء تتضمن من العدل والحكمة ما ينزهها عن قبول الطعن والتظلم والنقض !

حتى الأنبياء .. لا أعتقد أنهم قادرون على مناقشة العدل الالهى فى أحكامه مهما بدت فى ظاهرها مجحفة ، فهم يعلمون أكثر من غيرهم أن الله فى خلقه شئون تعجز عقولنا البشرية عن إدراكها .

المعجزة :

منذ سنوات طويلة زارت مصر مبشرة أمريكية لا أذكر اسمها، لكنها أحدثت ضجة كبيرة فى القاهرة ، وكان الناس والمرضى يتجمعون فى الشوارع طالبين البركة والشفاء . ونشرت الجرائد المصرية معجزاتها المذهلة ، مؤكدة أنها كانت تقف لتصلى على قارعة الطريق ، ثم تشير بيدها إلى جموع المتزاحمين ، فيقفز المرضى مهللين فرحين بنعمة الشفاء .. سواء من المسيحين أو المسلمين .

كدنا نجن أمام هذه المعجزات التى توزع مجاناً على الطريق دون أن أستطيع الوصول إليها .. فقد كان الزحام هائلاً بحيث يستحيل على حاملى النقالة أن يخوضوا غماره .. هذا مع الافتراض جدلاً بأنى سأستقر فوق النقالة وسط الجماهير المجنونة .

لكن أخى استطاع أن يدبر لقاءً خاصاً بينى وبين المبشرة المعجزة .

كان لأخى زميل فى كلية الطب إسمه « مفيد » ، وهو إبن القس الدكتور ابراهيم سعيد راعى الكنيسة المعروفة باسمه قرب ميدان التحرير . ولما كان القس ابراهيم سعيد من أكبر رجال الكنيسة البروتستانتية فى مصر ، فقد كان من المحتم أن تزوره المبشرة الأمريكية زيارة عائلية ضمن برنامج إقامتها بالقاهرة .

كان الأخ مفيد - وهو طبيب معروف الآن — قد زارنى فى البيت بدعوة من أخى ، بقصد المناقشة فى بحث كتبته عن إنكار ألوهية المسيح . ورغم أن هذا الموضوع حساس وشائك ، ورغم أن كلينا لم يقتنع بوجهة نظر الآخر ، فقد استطاع هذا الشاب النبيل أن يقنعنى بأنه شخصياً لا يقل فى شفافيته وإنسانيته ونقائه عن مستوى الملائكة .

عندما طلب منه أخى أن يدبر لقاء بينى وبين المبشرة الأمريكية، لم يتردد فى بذل المستحيل لتدبير هذا القاء بحيث يبدو عفوياً أمام الزائرة الأمريكية . فقد كان المفروض أن الزيارة عائلية تتناول خلالها العشاء مع أسرة القس إبراهيم سعيد . وكانت الزائرة مشترطة ألا تقابل أحداً من المرضى .

بقيت مشكلة الانتقال . .

لم يكن ممكناً أن تنقلنى سيارة إسعاف إلى الكنيسة ليلاً ، ثم تنتظر عودتى بعد اللقاء . كذلك سيارات الأجرة ، لم تكن تسمح بدخول جسدى المتحجر الذى لا ينثنى . وأخيراً استعار

أخي سيارة أحد زملائه ، وكانت عريضه فارهة ، بحيث سمحت لى بأن أتمدد على المقعد الخلفى . . . بالعرض . ومع ذلك بقيت قدماى خارجتين عن حدود السيارة ، مما استدعى أن يظل بابها الجانبي مفتوحاً ، وقد أمسك به الجالس بجوارى .

كانت فترة انتظارى هناك لا يمكن أن أقضيها إلا فوق سرير أو على الكرسى الخشبي الذى أدخل به الحمام . ولو أن طاقة احتمالى فوقه لا تزيد على نصف ساعة ، بعدها تمر الدقائق فى عذاب أليم . ومع ذلك فقـــد كانت فكرة الكرسى هى أيسر الحلول .

استبشرت كثيراً بهذا اللقاء . وتراءى لى الأمل الغالى فى متناول يدى . إن أسعد الناس حظاً ما كان يتمنى أكثر من الوقوف وسط الزحام ليحظى بشىء من البركة التى قد تصله عبر الصفوف المتراصة . فما بالك إذا تيسر لى أن ألتقى بها وجهاً لوجه وفى رحاب بيت الله حيث تتركز كل قوتها فى علاجى وحدى . .

بدأت أمهد لهذا اللقاء الروحى بالتعبد والصيام والصلاة عدة أيام ، وفى اليوم الموعود تحملت عناء الانتقال بنفس راضية مطمئنة ، كإحساس الحاج الذى يستعذب مشقة الرحلة إلى بيت الله الحرام ، طمعاً فى مزيد من الثواب .

وصلت قبل موعد زيارتها بفترة مناسبة ، وأدخلونى فوق الكرسى المتحرك إلى البهو الكبير ، حيث استقبلنى القس وعائلته

فى ترحيب وإكرام بعد أن مهد لهم الأخ مفيد بفكرة واضحة عن مأساتى . . كان الصمت المطبق يخيم على المكان مما شحن الجو بقدسية ورهبة ، وكان أهل الدار يتحركون فى سكون وهدوء . . كأنهم ملائكة يسبحون فى ملكوت الله .

لم أر فى حياتى أناساً تفيض وجوههم بالحنان والهدوء والقداسة مثل تلك العائلة الكريمة . وتكاتفت رهبة المكان ، مع نفحات الإيمان المنبعثة من أرجائه وساكنيه ، فملأت نفسى بالطمأنينة والراحة والثقة العميقة فى اقتراب المعجزة .

ثم جاءت المبشرة .

فوجئت بوضعى الشاذ على الكرسى المرتفع ، فأدركت فى الحال أنها أمام حالة مستعصية . وقبل أن تتساءل ، شرح لها المضيف حالتى فى كلمات مختصرة ، فلم تمتعض أو تعترض ، وتقدمت نحوى بابتسامة راضية مواسية .

كانت تتكلم الإنجليزية بالطبع ، لكنها لم تسألنى عن تاريخ مرضى أو عن مواطن العلة ، فإن تلك التفاصيل لم تكن تعنيها فى شىء ، فالمفروض أنها مجرد وسيط تستخدمه روح السيد المسيح فى شفاء المرضى والمتألمين ، والروح العظيمة التى لها قوة الشفاء لن يخفى عليها أصل الداء .

تقدمت نحوى قبل أن تتخذ مجلسها فى البهو . ولمست رأسى فاقشعر جسدى متوقعاً انتفاضة الشفاء . وأخذت أردد الابتهالات

والتوسلات إلى الله أن يحقق على يديها المعجزة . . .

مضت دقائق طويلة . . وازداد صوتها حماساً ، وتهدجت نبراته فى خشوع وضراعة . والتفت حولنا أسرة القس وأخى فى وجوم وترقب . ثم هتفت المبشرة فى صوت آمر حازم :

— قف . . باسم يسوع المسيح آمرك بالوقوف . .

لم أتردد لحظة ، فشددت عضلاتى فى ثقة وإيمان . . محاولاً الوقوف . فصدمتنى المفاصل الملتصقة . لكنى لم استسلم ، واتكأت بقبضتىّ على ذراعى الكرسى محاولاً الوقوف . وأسرع أخى ومفيد يتشبثان بذراعى ، ليساعدانى على الوقوف ، فازددت حماساً ، وأخذت أشد عضلاتى بأقصى ما أستطيع وأنا أتمتم باسم الجلالة كى يهبنى القوة على اجتياز الموقف الرهيب . .

كانت العملية مؤلمة للغاية . وبدأت ساقاى ترتعشان تحت وطأة الألم العنيف والمجهود العضلى الذى أبذله فى استماتة . وتصبب العرق من جسدى المتوتر . وأحست المبشرة بحرج الموقف ، فأشارت للشبان الواقفين بأن يلمسوا ساقى مرددين الصلوات ، عسى أن تتجمع قواهم الروحية فتتغلب على قيودى العنيدة .

انحنى الجميع فى خشوع وابتهال . واختلطت أصواتهم المتهدجة الضارعة ، بينما كانت تضعف مقاومتى مع مرور الدقائق البطيئة ، حتى لم أعد أحتمل ، لكنى أحسست بحرج شديد أمام هذه القلوب

الكبيرة ، وعز علىّ أن أخذلها ، وأبدد جهودها هباء. فكنت أقاوم الانهيار فى عناد لا ينقصه الإيمان . . .

تراكمت الدقائق . . وامتدت إلى ربع ساعة من التوتر والرهبة والخشوع .. وأدركت المبشرة أن الموقف لم يعد محتملاً ، فأشارت إليهم بإراحتى على الكرسى . وتراجعت إلى مقعدها مرهقة لاهثة . وهمست فى أسف بما معناه : « علينا أن نسعى . . وليس علينا إدراك النجاح » .

لم تصدمنى النتيجة الفاشلة كثيراً .. فقد أثبتت لى الآلام العنيفة أثناء التجربة بأن آلامى الحقيقية محتملة جداً .

عود الى الدراسة :

فى أكتوبر ١٩٤٣ ، بدأ أخى دراسته فى السنة الرابعة الثانوية ، وكنت أنتظر هذه الفرصة لأستأنف دراستى الثانوية مستعيناً بكراساته ، وبعض خبراته التى يتلقاها فى المدرسة خاصة فى العلوم العملية . ومنه عرفت المقررات الفعلية بعد أن كنت تائهاً وسط كومة الكتب التى تسلمتها فى العام السابق . وكنت أعوض شرح المدرس بقراءة الكتب وعمل ملخصات لها ، بجانب كراسات أخى . ثم تقدمت لاتمام امتحان الدراسة الثانوية « قسم عام » ; وكانت تسمى أيضاً شهادة الثقافة العامة ، وكان تقديمى

على أساس أنى من طلبة المنازل ، بعد أن فصلت من المدارس الحكومية لغيابى بدون عذر مقبول !

وعند الامتحان واجهتنى عقبة الانتقال إلى اللجنة فى مدرسة السعيدية بالجيزة . كذلك لم أكن أستطيع أن أظل جالساً ثلاث أو أربع ساعات على مقعد خشبى أثناء الامتحان . أما الانتقال ، فقد تحاملت على نفسى ، فحشرونى بصعوبة فى سياره أجرة ، حملتنى إلى باب المدرسة ، ثم مشيت على عكازين حتى باب اللجنة . ثم اهتدينا فى اليوم التالى إلى وسيلة أسهل ، فكنت أنتقل على دراجة بخارية « موتوسيكل » له عربة جانبية « سايدكار » ، لأن عربة الدراجة البخارية مكشوفة ، ومن السهل إسقاطى فيها . كذلك كانت الدراجة البخارية مسموحاً لها بعبور فناء المدرسة حتى باب اللجنة . وبمساعدة قرصين من النوفالجين كنت أتحمل آلام الجلوس فى مقعدى طوال الامتحانين وما بينهما من فترة استراحة ، بعد أن أخذت إذناً بذلك من رئيس اللجنة . لكنى كنت أعود من الامتحان فى غاية الإرهاق ، فألزم فراشى إلى اليوم التالى .

ولا أذكر أن القلق ساورنى من أية مادة غير الجبر . وأعترف بأن الغرور جعلنى أهمله طوال العام ، فلم أبدأ دراسته إلا فى الشهر الأخير ، لثقتى فى قدرتى على فهمه ، فى فترة قصيرة . ونسيت أن الفهم وحده لا يكفى إن لم يتأكد بالمران الطويل . وفى الامتحان أحسست بصعوبة المسائل ، ورأيت أن أحلها أولاً بالقلم الرصاص

فى صفحات المسودة ، لكنى — لثقتى المزعزعة — خيل لى أن الحل خطأ ، فأعدت بعض المسائل فى صفحات التبييض بطريقة أخرى . وعندما عدت إلى البيت ، وراجعت الإجابات مع أخى اتضح لى أن إجابتى فى المسودة هى الصحيحة ! وإذا حاسبنى المصحح على أساس إغفال المسودة المشطوبة فسوف أرسب حتماً فى مادة الجبر . لكن أحد معارفنا المدرسين ، طمأننى إلى أن المصحح يجب عليه أن يقرأ كراسة الإجابة كلها ، ويعتمد أحسن إجابة حتى ولو كانت مشطوبة . فالأساس فى الامتحان أن يبحث المصحح عن مدى ما يعرفه الطالب ، وليست مهمته أن يكتشف ما لا يعرفه الطالب ، وما دمت قد أثبت فى المسودة أنى أعرف الإجابة الصحيحة ، فمن حقى أن أنال عليها الدرجة الكاملة . فسأله والدى متشائماً كعادته :

— هب أن المصحح لم يراع ضميره وأهمل المسودة ؟

وظل السؤال معلقاً حتى ظهرت النتيجة .

وأذكر أن امتحان الإنشاء العربى ، كان يطلب من الطالب أن يكتب موضوعاً يبين فيه أيهما أنفع للوطن ، أن يهتم بتربية العقول أم بتربية الأبدان . أو بأسلوب آخر . . . العناية بالعلم أم بالصحة ؟ وكأنما كان واضع الامتحان يضرب على الوتر الحساس فى نفسى ، فها أنذا أجلس فى عرين العلم وأنا معتل الصحة . إن عجز المرض كاد يمنعنى من تحصيل العلم . كذلك لا يمكن شفائى إلا بالعلم ،

فإن كلاً من العلم والصحة متمم للآخـــر ولا غنى عن كليهما لنهضة الأمم .

وفى حدود هذه الفكرة كتبت موضوع الإنشاء ، لكن أبى ساوره الشك كعادته دائماً ، لأن الممتحن يريد من الطالب أن ينتصر لأحد المعسكرين . . إما الصحة أو العلم . وكاد الشك يعبث بيقينى ويوهمنى بأنى أخطأت - متحذلقاً - فى إبداء رأيى . ولما كنت أعتمد آساساً فى اللغة العربية على موضوع الإنشاء ، فقد خشيت أن يعتبرنى المصحح خارجاً عن الموضوع . وظللت قلقاً حتى ظهرت النتيجة ، واتضح أن مصحح مادة الجبر ذو ضمير ، وأن مصحح اللغة العربية لمس بين سطورى بذرة أديب . . ونجحت . كذلك نجح أخى .

وبكى أبى بدموع الفرح بعد أن عاش معى عامين من الأحزان . لم يشأ القدر أن يترك لنا فسحة من السعادة دون أن يمزجها بشيء من المرارة ، فقد توفيت جدتى الحنون فى نفس تلك الفترة التى ظننا أننا اغتصبناها من أنياب النحس . وحزنت مع الجميع على على وفاتها ، فقد كانت مثالاً للحنان والكرم والتسامح . وهى أول « حماة » أحبتها زوجتا ابنيها « أمى وزوجة عمى » وكانت هوايتها أن تجلو الصدأ عن العملات المعدنية ، لتوزعها على أحفادها فى الوقت المناسب . وكم نفحتنا يدها السخية من « شلنات » لامعة ،

حتى ابن عمتى وهو أكبر أحفادها ، وكان طالباً بالسنة النهائية بكلية الطب ، كانت تطلب علبة سجائره ، وتزج فيها – خفية – ورقة مالية تتناسب مع سنوات عمره . وعندما وافاها الأجل المحتوم ، هرع الجميع إلى بيت جدى ، وصمم أحفادها على حمل نعشها فلم يمسه غريب حتى وسدوها فى مقرها الأخير .

وزاد من لوعتى على فقدها أن المرض منعنى من حضور جنازتها وحرمنى من حمل نعشها ، ووداعها قبل أن يغرب عنا نورها إلى الأبد .

* * *

العلاج على مستوى عالمى

أحدث نجاحى فى شهادة الثقافة ثغرة فى جدار اليأس المحيط بنا ، وبدأنا نفكر فى العلاج بأسلوب جديد ، وعلى مستوى عالمى ، ولما كان سفرى إلى الخارج متعذراً لما يتطلبه من تكاليف باهظة ، فقد فكرنا فى الإلتجاء إلى الأطباء الأجانب المقيمين فى القاهرة .

بدأنا بطبيب ألمانى نزح إلى مصر هارباً من النازى . وكان متخصصاً فى أمراض العظام . وأحاط نفسه بدعاية ضخمة أضفت عليه هالة من السحر والغموض ، كان اسمه الدكتور « هرمان أنجل » . .

أخذنى أبى إلى عيادته وفى اعتقادنا أنه سيوفر علينا السفر إلى ألمانيا . كانت عيادته فخمة أنيقة واسعة . أستقبلتنا ممرضة حسناء بابتسامة عريضة . وأجلستنا فى حجرتها ، ثم احتلت مكانها

خلف مكتب صغير ، وراحت توجه إلىّ وابلاً من الأسئلة وتدون إجاباتى فى بطاقة خاصة ، حتى لا تضيع وقت الطبيب العالمى الذى لم يكن يتكلم اللغة العربية ، مما يجعل التفاهم معه أمراً عسيراً .

عندما حان دورنا ، فتح باب زجاجى كبير ، ودخلنا إلى حجرة الكشف حيث استقبلتنا ممرضة أخرى على درجة رفيعة من الجمال ، راحت تسندنى بحنان حيث أجلستنى على منضدة الكشف . وحاول أبى أن يساعدنى معها . فأوقفت محاولاته ببسمة رقيقة ، تعنى أن هذه المهمة من اختصاصها . وفى بساطة عجيبة اصطبغ لها وجهى بالحياء اللعين ، نزعت عنى سترتى «وبنطلونى» — وكان الطبيب فى تلك اللحظات يقرأ المعلومات الواردة فى بطاقتى . ثم أقبل على بقامته الفارعة ، ووجهه المشرب بصحة وردية . وكان جسدى المراهق يقشعر تحت لمسات الممرضة الحسناء ، فلم يدع لى فرصة للتفكير فيما سأقوله لهذا الطبيب الرهيب ، حتى أنه عندما رحب بى بالانجليزى ، خرجت كلماتى مرتبكة متلعثمة ، مما دعا والدى — المنشرح فى أمل — أن يهمس فى أذنى بالعربية :

— مالك يا بنى . . ألا تستطيع أن ترد على الدكتور ؟

وعز على أن أخذل والدى ، الذى كنت متأكداً من أنى سأمنحه شيئاً من السعادة إذا ما صمدت أمام هذا الأجنبى ، واستطعت أن أتفاهم معه . وكنت قد أعددت بالفعل بعض كلمات على لسانى عندما علمنا من الممرضة الأولى أن الطبيب يتفاهم بالانجليزية .

لكن رهبة الموقف بخرت اللغة الانجليزية كلها من رأسي .ولحسن الحظ كانت البطاقة تحوى من المعلومات ما يكفى لتوضيح الحالة أمام الطبيب ، واكتمل التشخيص فى رأسه عندما لاحظ خطواتى المتعثرة ، وركبتى الوارمتين ، وقامتى المنحنية على ألم مكتوم .

وبعد فحص دقيق انبسطت له أسارير والدى ، هتف الطبيب فى ثقة بما معناه أن حالتى ميسورة ، وعلاجى لايحتاج إلى أكثر من حقنة صغيرة !

حقنة صغيرة ؟ ! .. ياله من ساحر بارع !!

وقادنا إلى حجرة ثالثة ، حيث كانت ممرضة ثالثة سمراء ، تتكلم العربية.فحمدت الله لأنى وجدت من أتفاهم معه أخيراً. وكانت الحجرة الثالثة هى حجرة العمليات ، وفيها أيضاً توضع الضمادات والجبائر الجبس التى تلتئم العظام بداخلها .

التفت حولى ممرضة الكشف الحسناء ، وممرضة حجرة العمليات السمراء ، وكانت تميل إلى القصر والامتلاء ، لكنها تمتاز بخفة الروح ، ولاتفتأ تداعبنى بتعليقات مرحة حتى تمسح عن وجهى علامات الرهبة والألم . وكان الطبيب أيضاً يحاول أن يخرجنى بمرحه عن كآبتى البادية بعد أن أرهق مفاصلى أثناء الكشف بحركاته العنيفة .

وبعد أن تمددت على منضدة العمليات راح يشرح بالانجليزية

مفهومة[1] كيف أن المرض قد تركز فى ركبتى على شكل سائل يجب استخراجه . ورأيت فى يده محقناً ينتهى بإبرة رفيعة ، ظننت أنه سيسحب بها السائل المحيط بمفصل الركبة . وأمسكت الأيدى الناعمة بساقى حتى لا أحركها أثناء العملية . ولم تكن وخزة الإبرة مؤلمة فعلاً ، لكنى لاحظت أنه لم يسحب أى سائل فى المحقن . ثم عرفت أن الإبرة الأولى كانت لحقن مخدر موضعى فى هذا المكان حتى لا أشعر بعملية سحب السائل الملعون . فالتفت إلى الممرضة السمراء ، وقلت بالعربية فى شجاعة مفتعلة :

— لماذا حقننى بالمخدر ؟ .. هل يظن أن المصريين لا يتحملون وخزة الإبرة ؟

فأجابت مبتسمة وهى تمسح بحنان على ركبتى المنتفخة :

— لعله لا يعرف أنك بطل ...

ولم أكد أنعم بهذا اللقب الخطير من فم الحسناء ، حتى إصفر وجهى ، وتقلصت ابتسامة الفخر من فوق شفتى . فقد لمحت — بطرف عينى — المحقن الضخم فى يد الطبيب ، وفى طرفه إبرة غليظة

---

(١) كنت قد ألممت بكثير من الكلمات الانجليزية التى كان الاطباء يذكرونها بكثرة أمامى ، مما جعلنى مع كثرة تكرارها أستطيع ان أشرح مرضى بالذات شرحا وافيا بالانجليزية .

طولها لا يقل عن عشرة سنتيمترات . فتمتمت برعب :

ـ لمن هذه الإبرة الضخمة ؟ ! .

وأدرك الطبيب تساؤلى فقال مبتسماً :

ـ لا تخف . . لن تشعر بألم . . لأنى خدرت المنطقة التى سأغرس فيها الإبرة . . .

لم تكن أمامى ثغرة للتمرد أو الاعتراض ، فقد كانت نظرات الممرضتين الحسناوين تغلقان أمامى كل الثغرات ، واستسلمت للإبرة الرهيبة التى راح يجوس بها حول المفصل فى بطء شديد . وأخيراً سحب الإبرة مهللاً وهو يرفعها فى حركة مسرحية ، متأملاً السائل الأصفر الشفاف الذى يملأ المحقن . وهتف بالانجليزية :

ـ ويسكى . . يشبه الويسكى . . أليس كذلك ؟

ولما كنت غير خبير بلون الويسكى ، فقد لزمت الصمت ، أما والدى فراح يهز رأسه فى سعادة ، وهو يردد بالإنجليزية :

ـ نعم . . . نعم . . .

والواقع أن ألم الإبرة كان أقل بكثير مما توهمت ، وأبسط مما يوحى به مظهرها الرهيب . ولا أدرى سر احتمالى لها . . هل هى مهارة الطبيب ؟ أم من تأثير المخدر ؟ أم من الأيدى الناعمة التى كانت تمسك بفخذى وساقى !

وبدأت المرحلة الثانية ، وهى تثبيت الركبة بجبيرة من الجبس حتى لا تنضح أنسجتها بسائل جديد . وعندما سأله والدى أخيراً

عن الأتعاب قال ببساطة :

— عشرون جنيها ..

صعق والدى ، ووضع يده على محفظته بحركة عفوية ، وكأنه يقول إنه غير مستعد لمثل هذا المبلغ . فقال الطبيب كى يستحثه على إخراج المحفظة :

— إنها عملية كبيرة . . .

ووجدت نفسى أصيح فى جرأة غريبة على طبعى ، ولكن الغيظ أنطقنى :

— ألم تقل يا دكتور إنها مجرد حقنة صغيرة ؟

فأخذ يهرج فى حركات تمثيلية محاولاً اقناعنا بأنه استخرج الويسكى من ركبتى ، واجتث أسباب المرض من جذوره . وراح أبى يعتذر له متلعثماً بأنه لا يملك فى محفظته غير عشرة جنيهات ، وكان فى هذا صادقاً ، فقبلها الطبيب الألمانى بعد مساومة .

نسيت أن أقول إن الدكتور « هرمان إنجل » كان من اليهود الذين طردهم هتلر حتى يطهر منهم أرض ألمانيا !

كانت عيادة الطبيب اليهودى ، هى آخر مكان دخلته ماشياً على قدمى ، ومتحاملا على ذراع أبى بيسارى ، ومتكئاً على عصاى بيمينى ، لكنى خرجت من عيادته المشؤومة محمولاً على « كرسى السلطان[1] » ، وكأننا كنت أحس — وساقى المثقلة بالجبس ممدودة

---

(١) كرسى السلطان هي طريقة يستعين بها شخصان على حمل شخص ثالث بينهما ، وفوق أيديهما المتشابكة .

أمامى — بأنى أودع السير وحدى على الطريق .. إلى الأبد . فقد كان الهم يقبض صدرى بصورة لم أعهدها من قبل ، لأنها كانت أول مرة منذ بداية المرض يضطرنى العجز - بسبب جبيرة الجبس — أن أنتقل من مكان لآخر محمولاً على السواعد .

درس فى الصبر :

وفى تلك اللحظة اليائسة ، وموكب السلطان يقترب من مدخل العمارة الفخمة حيث السيارة الأجرة واقفة أمام الباب . رأيت منظراً عجيباً لا يبارح مخيلتى حتى الآن . فى تلك اللحظة التى حملتنى فيها السواعد إلى قمة التعاسة واليأس ، عبر أمام باب العمارة رجل يشق طريقه وسط الزحام مليئاً بالصحة ، مفتول الذراعين ، باسم الثغر يتحرك فى سعادة وأمل فوق قاعدة خشبية تجرى على عجلات صغيرة وهو رابض فوقها مبتور الساقين حتى أعلى الفخذين . يضرب أرض الشارع بذراعيه فى قوة ، فكأنهما مجاديف تحركه فوق صفحة الماء !

كانت حكمة السماء فى ذروة سموها ، حين أسقطت هذا الإنسان أمامى فى تلك اللحظة بالذات ، كى يلقننى درساً فى الصبر والجلد ، ظل يقفز إلى ذهنى كلما استبدت بى المحن والآلام . وكانت الثوانى السريعة التى عبر فيها أمام باب العمارة كفيلة بأن تحفر صورته فى خيالى ، وتنحت لجسده المبتور تمثالاً خالداً للكفاح

الإنسانى فوق قاعدة من الصبر والإيمان .

* * *

هذا الطبيب الألمانى هو أحد ثلاثة أطباء أجانب عبروا فى تاريخ مرضى ، والذين دفعتنا « عقدة الخواجة » إلى السعى إليهم فى عناء مبهورين ، ثم ردتنا حقيقتهم إلى واقعنا المرير من خيبة الأمل .

وكان ثانيهم طبيباً تركياً شبه مخبول ، تناهت إلينا سمعته الفذة فى شفاء جميع الأمراض . مستعملاً فى ذلك عقاراً خاصاً من اكتشافه وتركيبه . كانت عيادته المتواضعة فى شارع الخليج ، تكتظ بالمرضى من كل طبقة ، وكل سن ، وكل مرض . فقد كان يحقن مادته السحرية فى العضو المصاب فيطرد منه المرض ، سواء كان سرطاناً أو نوبة زكام . العين المريضة يقطر فيها هذا السائل ، والأنف المزكومة يقطر فيها نفس السائل ، والمعدة المقروحة يقذف إليها نفس السائل ، والمفاصل الملتهبة يحقن فيها عقاره الوحيد .

والعجيب أنه لا يعقم الإبرة والمحقن ، اللذين يسحب بهما السائل من زجاجة كبيرة . ولا بأس من أن تتلوث به يداه ، فالسائل فى حد ذاته له قوة فعالة فى قتل الجراثيم .

لم نستطع أن نقنع الطبيب التركى العنيد بزيارتى ، فهو مشغول دائماً بمرضاه ، الذين يتزاحمون على عيادته . ولما كنا شغوفين بتجربة هذا العقار السحرى ، فقد فكرنا فى أن تنقلنى عربة الإسعاف إلى عيادته . ورحبت جمعية الإسعاف بهذا العمل

الإنسانى على أن نتبرع للجمعية الخيرية بأى مبلغ لا يقل عن جنيه . ورحب والدى بالفكرة . فقد كانت عربة الإسعاف هى الوسيلة الوحيدة التى تصلح لنقلى ، لأن التحجر كان قد بدأ يسرى فى مفاصلى بحيث لا أستطيع أن أنحنى لأدخل سيارة عادية .

فى عربة الاسعاف :

كانت تجربة قاسية يوم ركبت سيارة الإسعاف لأول مرة، فقد كان جسدى يقشعر لمجرد سماع جرسها الملهوف . وعندما صعد إلى غرفتى رجال الإسعاف بقبعاتهم الحمراء جزعت لمرآهم ، رغم البسمات الرقيقة التى واجهونى بها . وفى حركات مدربة سريعة حملونى إلى النقالة ، وحزموا أربطتها فوق صدرى وساقى . وعند بداية الدرج اضطروا أن يرفعونى إلى أعلى حتى يتفادوا درابزين السلم ، فخامرنى إحساس رهيب بأنى جثة هامدة محمولة فى نعش مرفوع على الأكتاف ! وفى وضعى الأفقى وبصرى إلى أعلى لمحت إحدى الجارات تمسح عينيها بمنديل ، وأسرعت بالدخول إلى شقتها حتى لا أتشاءم من دموعها . والواقع أنى لم أتألم لدموعها الشامخة ، فقد أخفتها عنى فى كبرياء ، ولم يلذعنى فيها طعم الرثاء .

عندما وصلت النقالة إلى منعطف السلم الضيق ، اضطروا إلى إخراج منتصفها عند زاوية الدرابزين ، ولمحت بطرف عينى

هوة سحيقة تحتى ، فتشبثت فى ذعر بجانبى النقالة ، وخيل لى أنى نائم على سلك مشدود فى الفضاء !

وعند باب البيت كانت سيارة الإسعاف قد جذبت حولها عشرات من الصبية والكبار ، الذين دفعهم الفضول إلى مشاهدة « المصاب » الذى ستحمله سيارة الإسعاف . وفجأة وجدت نفسى وسط العيون المحملقة فى دهشة ورثاء ، وأسرع بعض المتحمسين يعاونون فى حمل النعش . . أقصد النقالة . وتصاعدت همهمات الأسف وزفرات الدعاء تطلب لى الشفاء . وحاصرنى خجلى المميت وتمنيت لو سحبوا الملاءة فوق وجهى حتى لا أرى تلك المناظر المؤذية ، وهتفت برجال الإسعاف :

— بسرعة من فضلكم .. بسرعة ..

وفى خطوات سريعة وصلوا إلى باب السيارة ووضعوا مقدم النقالة — من ناحية رأسى — على مجرى حديدى ، ثم دفعوها من الطرف الآخر ، كما يدفع الفران صاج الكعك فى الفرن ، فانزلقت النقالة فى مجراها بسهولة ، ووجدت بجانبى نافذة صغيرة تتيح لى رؤية الشارع والمحلات العامة ، أما الأدوار العليا فلم تكن تقع على نظرى خلال إطار النافذة .

ومنذ ذلك اليوم أصبحت سيارة الإسعاف هى وسيلتى الفاخرة فى الإنتقال ، كلما اضطرتنى إلى ذلك ضرورة قصوى ، كما سيأتى فيما بعد .

كانت عيادة الطبيب التركى تفوح منها رائحة نفاذة معينة خيل لى أنى أعرفها . لكنى لم أستطع أن أتذكر مبعث هذه الرائحة . كانت تلك الرائحة بالطبع تفوح من المادة السرية التى يذيبها الطبيب فى هيئة محلول بنى اللون يعالج به جميع الأمراض. وعندما أدخلونى إلى حجرة الكشف ، راح الطبيب يحرك مفاصلى المتيبسة فى عنف مؤلم لم أحتمله ، ولم أعتده من جميع الأطباء الذين فحصونى من قبل . حاولت أن أصبر على هذا المخبول حتى ينتهى من فحصه المزعج ، لكنه تمادى فى لعبته السخيفة فى برود قاتل ، حتى اضطرنى إلى الصراخ عندما فاض الكيل فلم أملك زمام شجاعتى . ثم راح يعبىء محقنه القذر بذلك السائل الداكن ، ويفرغه مرة فى ركبتى وأخرى فى جلد بطنى . وكان يملأ المحقن بطريقة تثير الغثيان والقلق، عندما رأيته يلوث أصابعه بذلك السائل ذى الرائحة النفاذة ، ودون أن يستعمل قطنة مشبعة بمادة مطهرة كما يفعل عباد الله العقلاء. وخرجت من عنده ناقماً مشمئزاً . والعجيب أنه لم تحدث مضاعفات مكان الحقن فى جسدى مما يدل على أن ذلك السائل كان له أثر مطهر فعال.

فرض علىّ هذا الطبيب نظاماً قاسياً فى الطعام . فقد حرم علىّ الملح كلية ، والمواد الدهنية ، والألبان ، واللحوم بأنواعها ، حتى وجدت نفسى أعيش طوال شهرين على الخضروات المسلوقة والمكرونة المسلوقة والفول المدمس المصفى دون أية توابل أو دهنيات ، مع التردد عليه كل أسبوع بنفس الطريقة حيث

يحقننى أربع أو خمس مرات بذلك المحلول الداكن .

ورغم عدم إقتناعى بذلك الطبيب العجيب المتهور، فقد واظبت على علاجه السخيف . والواقع أنى أحرص دائماً على إكمال أى علاج بدأته حتى أرضى ضميرى ، ولا يطاردنى الندم إذا ما أهملت فى تنفيذ تعليمات الطبيب بحذافيرها ، ولا أنتقل من طبيب لآخر إلا إذا أعلن هو يأسه من حالتى . وكم تضايقنى تلك الفئة من الناس الذين يتعجلون الشفاء ، وفى وهمهم أن الطبيب صانع معجزات ، أو يهملون مواعيد الدواء ، أو يخدعون أنفسهم بالهروب من تعاطيه .

وبالطبع باءت جهود الطبيب التركى بالفشل . وأنفى ملىء بتلك الرائحة النفاذة التى لم أكن أعرف كنهها . حتى تصادف فيما بعد أن وصف لى أحد الخبراء الهواة أن أضع مسحوق « المر » على جرح متقيح فى أصبع قدمى لا يريد أن يندمل . وعندما شممت رائحة المر قفزت إلى ذهنى المادة السرية التى يستعملها الطبيب التركى . وفعلا وجدت — بقدر تجاربى الاجتهادية — أن لهذه المادة خاصية مطهرة وقاتلة للجراثيم ، وكان لونها ورائحتها يماثلان تماماً تلك المادة الغامضة . ليت علماءنا يجرون أبحاثهم على « المر » وهو زهيد الثمن ويباع عند العطارين كما هو معروف. فلعل فيه سراً يبيح له إقتحام جسم الإنسان وأنسجته دون أن يلوثه .

* * *

أما ثالثهم فهو طبيب فرنسى استوطن القاهرة ، يدعى « ك. كوركولو » ، وكتب على تذاكره الطبية « الروشتات » بأنه طبيب من مستشفيات باريس . وكأنه يريد بذلك أن يحيط نفسه بهالة من العظمة تبهر المصريين . بذلنا جهداً مستميتاً حتى نقنعه بزيارتى فى البيت ، ولولا وساطة بعض عملائه لما تنازل لنا عن جزء من وقته الثمين . وما كاد يرى مفاصلى حتى هاج وثار . وأخذ يلعن جهل الأطباء الذين أوصلونى إلى هذه الحالة المتأخرة ، وضيعوا على فرصة الشفاء على يديه الساحرتين منذ البداية .

أخرج من حقيبته لفة من الشريط اللاصق العريض ، وراح يلفها حول ساقى حتى يمنع عنهما الحركة تماماً ، ثم أوصى بقائمة طويلة من التحليلات . وأخيراً خرج مزهواً كأنه فتح عكا . بعد أن انتفخ جيبه ببضعة جنيهات إنكمشت لها محفظة أبى .

والعجيب أن الطب أثبت — فيما بعد — بصفة قاطعة أن تثبيت المفاصل فى مثل حالتى يعجل بالتصاقها ويقضى عليها بالعدم. وكم من زملائى التعساء تيبست أجسامهم نتيجة جهل هؤلاء العباقرة المغرورين . ومنهم أساتذة — لاداعى لذكر أسمائهم — كانوا يصرخون فى وجهى عندما أدخل إليهم متوكئاً على ذراع أبى — فى بداية المرض — ويوجهون أشد اللوم إلى أبى لأنه سمح لى بمغادرة الفراش .

والواقع أن نصائحهم الخاطئة لم تكن هى السبب فى قيودى ،

لكنها عجلت بها . فقد كان مرضى يسير فى طريقه فى حزم وتصميم لا تؤثر فيه الأدوية والعلاجات مهما كان نوعها . فهو كالدبابة الرصينة التى تغزو أرضاً منبسطة ، لا تؤثر فيها الطلقات ولا تعوقها الاستحكامات . وحتى الآن وبعد ربع قرن لم يتقدم العلم خطوة واحدة للتحكم فى هذا الاخطبوط الجشع ، الذى يلتهم المراكز الحيوية من الجسم .. مراكز الحركة .

ولا يسعنى والأمر كذلك أن ألوم أحداً أو أحقد على أحد . فلا الأطباء قصروا فى واجبهم ، ولا تأخر أبى أو تباطأ فى علاجى . وما إستسلمت أنا للألم، أو تقاعست عن أية تجربة يرجى منها الشفاء .

تعريف المرض :

كان الأطباء يسمون مرضى فى بدايته «روماتيزم» ، ثم تحدد نوع الروماتيزم وأصبح إسمه « التهاب مفصلى حاد » ، ثم اكتسب إسماً آخر بحكم الأقدمية فأصبح « التهاب مفصلى مزمن » . وهو مرض عجيب يختار ضحاياه من المراهقين غالباً، حسب مشاهداتى الخاصة فيما بعد . ومن طبيعة هذا المرض أنه يسبب آلاماً شديدة فى المفاصل نتيجة تآكل الغضاريف التى تكسو أطراف العظام وتساعد على حركتها وانزلاقها . فإذا ما تآكلت هذه الطبقة الملساء أصبح المفصل يتحرك على سطحين خشنين متآكلين ، فيصدر عنه

صوت يشبه صوت تمزيق القماش . ويسبب آلاماً فظيعة ، فإذا بالمصاب يحد من حركته تفادياً الألم غير المحتمل .

وهنا تبدأ المرحلة الثانية من المرض ، فيجف السائل الطبيعي الذي كان بمثابة الزيت في المفصل . يجف تماماً بعد أن كان متراكماً في المفاصل في مرحلة الالتهاب الأولى . وبعد أن تتآكل الغضاريف تظهر من خلفها طبقة العظم الإسفنجية .. وهي مادة قابلة للالتصاق السريع ، ولا يلبث أن يندمج طرفا المفصل في نسيج واحد ، كأنه عظمة متينة واحدة ، تتخذ الشكل الذي يسره لها المريض ، ولا يصبح للمفصل أي أثر إلا مظهره الخارجي ليذكر صاحبه بأنه في هذا المكان كان يوجد ذات يوم .. مفصل متحرك .

وعندما اكتشف الأطبـــاء خاصية الالتصاق ، أضافوا إلى إسم المرض لقباً جديداً ، فأصبح اسمه الرباعي « التهاب مفصلي التصاقي مزمن » ، وهذه ليست ترجمة حرفية للإسم الإنجليزي Chronic Ankylosing Spondylitis والكلمة الأخيرة مشتقة من اسم العمود الفقري ، فقد لوحظ أن العمود الفقري أو بعض فقراته هو المكان المختار لهذا المرض . وغالباً ما يبدأ الأخطبوط غزواته من العمود الفقري ، ثم يمتد إلى أعلى أو إلى أسفل ، فيصيب مفصلا أو أثنين أو أكثر . أحياناً يقنع بمفصلي الفخذين مع جزء من فقراته المحببة في الظهر ، ثم يتوقف نشاطه . وأحياناً يمتد إلى الركبتين ثم يشبع ، وأحياناً يستعذب طعم العمود الفقري ، فيسري فيه حتى يلتهم الرقبة .

ونادراً مايغزو المفاصل الصغيرة كأصابع القدمين واليدين .

أما حالتى فنادرة جداً ، ولم أر مثيلاً في جميع الحالات التى عرفتها خلال فترة مرضى ، وهى لاتزيد عن عشر حالات ، كان المرض رحيماً بهم فترك لهم بعض المفاصل حرة طليقة ، إما فى الساقين أو الذراعين ، أما أنا فقد كان من نصيبى وحش شره لايشبع ولا يرتوى. فقدالتهم مفاصل الكعبين والركبتين والفخذين، والعمود الفقرى كله ، بما فيه الرقبةوالضلوع ، ثم الكتفين . وأخيراً اختنق عند المرفقين فلم يدمرهما تماماً ، وترك لكل منهما نصف المجال الذى تتحرك فيه الذراع العادية . ولكن هذه الحركة المحدودةمن المرفقين ، مع أصابع يدى تكفينى تماماً لكى أكتب وأرسم وأمسك بالكتاب لأقرأ ، وبالملعقة والشوكة لأوصل الطعام إلى فمى . أما ما لا يثبت فى إحدى هاتين الأداتين ، فإنى أضطر للاستعانة بيد غريبة لإيصاله إلى فمى ، مثل أقراص الدواء ، أوحبات الفول السودانى ، أو البسكويت أو الشيكولاتة . وهذه الأشياء على تفاهتها ، إلا أنها تسبب لى حرجاً عندما يصر الضيوف على أن أشاركهم إياها . أما غسل وجهى وتمشيط شعرى وحلاقة ذقنى فقد تركت أمر هذه المهمات اليومية لأيدى ممرضتى . لكنى مازلت قادراً على غسل أسنانى ، بعد أن ثبت الفرشاة فى عصا طويلة . ومازلت أفرغ أنفى بنفسى بعد أن أثبت المنديل بين عصوين رفيعتين . ومن وقت لآخر تصيبنى نوبات مؤلمة فى المرفقين ، فلا تصل الشوكة

والملعقة العاديتـين إلى فمى . عندئذ استعمل شوكة وملعقة من ابتكارى طول كل منهما أربعين سنتيمتر .

وقد حاول الوحش اللعين أن يغزو أجزاء أخرى من أهم مراكز الحركة الخطيرة فى جسدى ، لكنها كانت محاولات منه فاشلة بعد أن تداركتنى عناية السماء فى اللحظة المناسبة . كانت أولى المحاولات على مفصلى الفكين ، بحيث كنت أمضغ فى صعوبة وألم مما يجعلنى أزهد فى الطعام . وكان من المحتمل أن يتأ كل هذان المفصلان ثم يلتصقان فيغلق فمى إلى الأبد ، لكن رحمة السماء أبت أن تمعن فى حرمانى حتى من الطعام . فتخلى القيد عن الفكين ، ولكن بعد أن ترك تذكاراً فى فمى ، فاختصر نصف مجال فتحته ، لكنه يتحرك على أى حال .

وكنت أتضرع إلى الله أن يوقف زحف الأخطبوط عند مرفقى ، فلا يقترب من اصابع يدى ، فيوقف نشاطى ، ويشل حيويتى ويعصف بكل آمالى ، ويحطم كل معنوياتى . وظللت أرقب هذا الشبح المخيف فى رعب قاتل ، حتى وقع المحظور ، وتحققت مخاوفى فى فترة حالكة من حياتى . لكن رحمة الله ترفقت بى ، وما لبثت أن رفعت عنى الغمة ، وأجلت الغاصب المستعمر عن أصابع يدى بمعجزة لا يتوقعها أكثر الناس تفاؤلا . فإن هذا الداء اللعين لا يعرف التراجع ، أو الرحمة .

وإنى لأتساءل الآن ، وأترك لكم أن تتصوروا معى كيف

تكون حالى لو توقفت مفاصل فكى وأصابعى عن الحركة !

يا إلهى . . إنك لا ترضى لى هذا المصير . . وإن شاءت حكمتك أن تجعل منى كتلة جامدة لاحراك فيها ولا نفع ، فلتعجل بتخليص روحى من سجن هذا الجسد المقيد ، فعساه أن يكون أكثر فائدة إذا ما تحلل إلى تراب ، ينبت فيه الزرع ، ويستمد منه الحركة والنماء .

* * *

في القصر العيني

بدأ المرض يدخل مرحلة جديدة في أوائل سنة ١٩٤٥ ، بعد أو تآكلت أجزاء من غضاريف المفاصل ، فأصبحت الحركة محدودة مؤلمة . وأخذت أطرافي تتقوس قليلا ، وتتخذ وضعاً تقليدياً لهذا المرض . فالذراعان تنفرجان عن جسمي ، والمرفقان ينثنيان إلى الداخل بحيث لا يمكن مد الذراع على استقامته . والفخذان يتجهان نحو البطن ، والركبتان تنثنيان إلى الخلف ، والظهر يتقوس كانحناء الشيخوخة . وكان الطب القديم يشير بشد الجسم أو وضعه في الجبائر حتى يلتصق على وضع مستقيم كلوح الخشب . وهذا وضع غير مريح لأنه يجعل المريض ملتصقاً تماماً بالسرير ، ونظره معلق في السقف ، ولا يستطيع أن يجلس على كرسي فيضطر إلى قضاء حاجته في السرير .

وقد أنقذني الله من هذا الوضع المتعب ، على يدي الدكتور

ادوارد صادق الذى كان مديراً لمستشفى الأمراض المستعصية بحلوان . وكان شجاعاً وصريحاً ، ولمس من روحى المعنوية ما أطلق لسانه بالنصيحة الغالية ، فقال :

— اسمع يا بنى . . هذا المرض ليس له علاج . . وقد يتركك فى أى وقت . . وقد يستمر فيتلف مفاصلك وييبسها . . ويجب أن تفترض الأسوأ حتى لا تندم بعد فوات الأوان . يجب أن نفترض أن جسمك قد يصبح يوماً بدون مفاصل . . كالتمثال المتحجر . . لهذا عليك أن تختار الوضع النهائى الذى تصب فيه هذا التمثال ، الوضع المريح . . دون اهتمام بالناحية الجمالية . . .

وراح الطبيب يشرح لى بخبرته الوضع المريح ، فرفع رأسى على وسادة عالية حتى أرى من يجلس أمامى ، وأقرأ بسهولة وأبتلع طعامى فى شىء من الراحة . ثم ثنى ساقى قليلا بحيث يسمح للتمثال بالارتكاز — ولا أقول الجلوس — على كرسى ، ولو أنها جلسة غير مريحة ، لأن زاوية انثناء فخذى ليست قائمة . ونصحنى بأن أسمح لذراعى وساقى بالإنفراج قليلا ، لأن تلامسها يولد الحرارة فالعرق فالالتهاب ، أما الوضع المنفرج وإن كان منظره سخيفاً إلا أنه يضمن التهوية للابطين والفخذين .

وقد أفادنى هذا الوضع كثيراً فيما بعد ، فقد أتاح لى فرصة القراءة والكتابة والرسم والأكل . كذلك أتاح لى نعمة كبرى ، نعمة الإرتكاز على كرسى مرتفع ذى قاعدة مفرغة كغطاء

المرحاض ، ويتحرك على عجلات صغيرة إلى دورة المياه .

ولو أنى لا أستطيع أن أنتقل إلى هذا الكرسى بمفردى ، ولا أستطيع أن أحركه إلى هدفه المذكور . إلا أنه يجنبنى بشاعة الحدث القاتل الذى لا أتصور أنى أحتمله ، وهو أفراغ أمعائى فى ذلك الوعاء المسطح وأنا راقد على السرير ، كذلك لا أحتمل أن يحمل آدمى فضول أمعائى .

حمداً لله الرؤوف الرحيم . إنه قد يقسو فى تجربته . ليختبر عبده الصابر ، لكنه يقف بى على حافة الهاوية ، ولا يدعنى أسقط فيها . وإنى لأعترف بأن هذه العملية بالذات لولم يتسير لى قضاؤها بالوضع الطبيعى ، لكانت جديرة بأن تحطم معنوياتى تماماً ، وتقضى على مرحى ، وتذل كبريائى إلى أبعد الحدود .

ورغم أنى الآن عاجز تماماً عن الحركة قيد أنملة ، فقد بذلت المستحيل وأجهدت ذهنى وأعصابى ، حتى وفقنى الله لابتكار هذه الطريقة المريحة التى لا يحظى بها من هم أقل منى قيوداً . وهى لم تكن مريحة فى بداية المرض ، لكنى مع اهتمامى وإصرارى على قضاء حاجتى بطريقة طبيعية ، فقد كنت دائب التفكير فيها حتى طورتها عدة مرات على مدى السنين ، فأصبحت الآن طبيعية ومريحة تماما .

وقد أدى بى هذا الاصرار يوماً إلى مأزق عنيف فى مستشفى

قصر العينى كان له أثر واضح فى التعجيل بشل حركتى تماماً فى السرير.

* * *

فى بداية عام ١٩٤٥ ، كنت أستعد لامتحان إتمام الدراسة الثانوية « القسم الخاص » . أو الشهادة التوجيهية . وكنت أيضاً أستذكر دروسى مع أخى . واختار هو شعبه علوم ، فاضطررت أن أدرس معه فى نفس الشعبة ، مع أن اتجاهى للهندسة كان يحتم على أن أدرس شعبة رياضة .

وهكذا أغرتنى مساعدة أخى وكراساته على أن أضحى بالهندسة وأدرس معه العلوم تمهيداً لالتحاقى بكلية الطب ، أما أخى فكان يعتزم أن يلتحق بمعهد التربية البدنية الذى يتفق مع مؤهلات جسده الفارع وعضلاته المفتولة .

ولم يكن تحويل مستقبلى من كلية الهندسة إلى كلية الطب يتعارض مع ميولى واستعدادى الشخصى ، فإن فى الطب مجالاً كثيراً للابتكار والتقدم . كما أن حالتى المرضية وصداع أبى وروماتيزم أمى ، كانت من الحوافز القوية لاحترافى الطب ، كذلك لا أنكر أن لقب « دكتور » كان له رنين ترتاح إليه الأذن ، خاصة فى تلك السن .

ويجب أن أعترف هنا أننى حتى ذلك الوقت لم أكن قد فكرت مطلقاً فى الالتحاق بكلية الآداب واحتراف الأدب ، الذى كان

مجرد هواية لقارىء نهم . ولم أكن قد عالجت الكتابة أو الرسم بشكل يوحى إلى بالاحتراف .

وفى مايو ١٩٤٥ ، كان عقار البنسلين قد أصبح حديث العالم كمعجزة فى عالم الطب . وكان ثمنه مرتفعاً للغاية ، حتى إن الكمية اللازمة للعلاج كانت تتكلف حوالى ثمانين جنيها . ونفس هذه الكمية الآن لا تساوى ثمانين قرشا . وذهب والدى إلى صديقه الدكتور سيد عفت ليستشيره فى أمر هذا العقار الساحر الجديد . فأفهمه الدكتور عفت بأن البنسلين مادة قاتلة لميكروبات معينة تسبب الالتهابات وبعض الحميات ، وأن مرضى ليس ناتجاً عن ميكروب ، وإن كانت أسبابه غير معروفة . لكن والدى ألح فى استعمال البنسلين عسى أن يكون مرضى ناتجاً عن ميكروب مجهول أو بؤرة متقيحة مستترة ، فيقضى عليها البنسلين . وحاول الدكتور سيد عفت أن يلهيه عن موضوع البنسلين . بفكرة جديدة فقال :

ـــ ما رأيك فى أن آخذ ابنك عندى فى قصر العينى ، حيث أجرى عليه كل الفحوص والتحليلات والأشعات اللازمة ، عسى أن نهتدى لأسباب المرض .

لكن أبى تردد فى قبول العرض ، ففهم الدكتور عفت سبب تردده ، وقال :

ـــ لعلك تخشى من فوضى قصر العينى . . لا تخف . . أنت تعلم أن صحى كابنى تماماً . . وسيكون تحت اشرافى المباشر . .

وسأضعه فى حجرة خاصة وليس فى العنبر الكبير . . وأنا المسئول عن راحته . . .

حك أبى ذقنه وهو يقول فى عناد :

— طيب . . والبنسلين . . ؟

فأجاب الطبيب متماشياً معه :

— دعه الآن جانباً . . إلى ما بعد تجربة قصر العينى . . .

وهكذا دخلت مستشفى قصر العينى الجديد ، وهو ما يسمى الآن بمستشفى المنيل الجامعى . وكانت هذه أول مرة أجرب فيها حياة المستشفيات . وكنت قلقاً هياباً من ذلك الجو الرهيب داخل البناء الضخم الذى تختلط بين جدرانه أنات المتوجعين، وضجيج الزوار ، مع حفيف عجلات الكراسى والمحفات المتحركة . وتعلو فوق هذا وذاك أصوات الحكيمات الآمرات الناهيات ، فتردد الحوائط الصلدة العارية صدى صرخاتهن ، وكعوب أحذيتهن التى تنقر فوق البلاط اللامع .

تسلمنى كرسى متحرك من قسم الاستقبال . وراح الممرض يدفعنى بسرعة على طول الممر الطويل ، وهو يدمدم فى تأفف وضيق . وكان والدى يجرى خلفه محاولاً اللحاق بنا ، وهو يهيب به أن يبطىء من السرعة قليلاً ، لأن الكرسى المتهالك كان يهزنى فى عنف فيؤلم مفاصلى الملتهبة . لكن الممرض الأرعن صم آذان ضميره ، ومضى فى طريقه مدمدماً ساخطاً . ولم أنج من تهوره

إلا بعد أن منحه أبى أحـــد الأقراص الفضية المهدئة من فئة « الشلن » ، وكان أبى يحتفظ بها فى جيبه لمثل هذه الحالات العصبية . سرعان ما انبسطت أسارير الممرض ، وأبطأ من سرعته ، بل ومنح أبى لقب « بك » ، وشملنى أنا بدعواته الصالحات أن يمن على سبحانه وتعالى بالشفاء العاجل .

فى كل قسم من المستشفى حجرتان ، كل منها بها سرير واحد . وحجرتان بكل منهما سريران ، وعنبران كبيران . وقد فضلت الحجره المزوجة ذات السريرين ، حتى أجد من يؤنس وحدتى بدلاً من الحبس الانفرادى فى الغرفة المفردة . وسمحوا لى بمنضدة إضافيـــة وضعت عليها المذياع الكبير الذى أحضرته من بيتنا . كذلك أحضرت مصباحاً متنقلا « أباجورة » وضعتها على المذياع حتى أستطيع أن أقرأ عليها عندما تطفأ أضواء المستشفى فى الموعد المحدد ، فينام الجميع بالأمر . وكان الدكتور سيد عفت « رئيس القسم » يزورنى مرتين فى الأسبوع وسط تلاميذه والطبيب النائب والطبيب الامتياز . فيحييني فى ود ملحوظ ويداعبنى بتعليقاته المرحة ، ويسأل عن الوالد ، ويقدمنى للجيمع على أنى إبن أخيه وصديقه . ويسألنى عن سير العلاج ، ويستفسر عما إذا كانت لى شكوى أو طلب ، ثم ينصرف وسط تلاميذه وهو لا يكف عن التدفق بعلمه الغزير على أبنائه الطلبة . وكانت الدقائق التى يمضيها بجانب سريرى كافية جداً لتؤكد مكانتى لدى الجميع ، وكانت

كفيلة بأن تضمن لى حق كمواطن فى هذا المستشفى المجانى . وقلما حظى إنسان بحقه فى ذاك الوقت مالم يستعن بالأقراص الفضية المهدئة !

لم تكن علاقتى برئيس القسم تكفل لى امتيازات استثنائية ، فقد كانت الحجرات المفردة والمزدوجة مخصصة للجمهور أيضاً ، وأغلبهم من الطلبة والموظفين حتى ولولم تكن ظهورهم مسنودة إلى رئيس القسم أو حتى الممرضة . وقد تبدل على السرير الآخر فى حجرتى أكثر من أربعة من المرضى ، أحدهم مدرس ، والآخر طالب جامعى ، والثالث شاعر هو الأستاذ على الجبلاطى ، والرابع شاب هزيل لا أذكر مهنته .

وكانت حجرتى مقصد الطبقة المثقفة من نزلاء المستشفى لعدة أسباب ،أولها أنى الوحيد الذى لايقوى على مبارحة سريره ، وثانيها أن المذياع فى حجرتى كان مصدراً لتسليتنا ، وثالثها أن مرضى غير معد فلم يكن ينفرهم من الالتفاف حولى .

حتى التمورجية والممرضات ، كانوا يمضون أوقات فراغهم فى حجرتى يشاركون فى مرحنا وثرثرتنا ، واستماعنا إلى المذياع . والواقع أنى أمضيت شهرين كاملين فى هذا المستشفى ، كانا من أسعد أيام حياتى . فقد كنت لا أكف عن الضحك ، رغم أن الضحك كان عملية مؤلمة لضلوعى فى ذلك الوقت ، حيث كانت عظامى فى دور الالتهاب الحاد ، لكنها بعد أن التصقت الآن لا أحس بأى ألم يعكر ضحكاتى المنطلقة .

كنا نتبارى فى سرد النكات ، المستور منها والمكشوف .
وإذا اجتمع فريق من الشباب المرح فى مثل هذا المجال، فإن معينهم لا ينضب أبداً ، فيكفى أن يطلق أحدهم نكتة عن شخص عبيط مثلا، فيتذكر الباقون عدة فكاهات عن البلهاء ، وإذا انطلقت نكتة عن الأطباء تداعت لها أفكار الحاضرين بوابل من الفكاهات عن الأطباء.
فالشعب المصرى عريق موهوب فى هذا المضمار . ولم يترك فئة من الناس لم يسخر منها وينتقد عيوبها بمثل هذه النكات اللاذعة .
وقد كنت أقلهم محصولا فى تلك المباريات الفكاهية ، لأنى كنت أصغرهم سناً . وأكثرهم ضحكاً ، والذى يغلبه الضحك لا يجيد القاء النكتة التمثيلية باتقان. وما أظنهم قادرين أن يصمدوا أمامى الآن فى هذا المضمار بعد أن حذقته واحترفته فى بعض المجالات كما سيأتى فيما بعد ، مثل الفكاهات الكاريكاتورية ، والتمثيليات والمسرحيات الفكاهية ، والطرائف التى أترجمها عن الانجليزية لبعض البرامج الإذاعية . وكثيراً ما تحديت أصدقائى الجدد فى هذا المجال بشرط وجود سميعة . فإن إضحاك مجموعة من الناس أسهل من إضحاك شخص واحد ، فالشخص المفرد قد يكون على علم سابق بالنكتة ، أو بما يشبهها ، فلا يضحك لها ، وقد يحرقها قبل أن يكملها الراوى.
أما وسط المجموعة . فيكفى أن يضحك منهم واحد أو اثنين فتسرى العدوى فى الباقين . ولا تلبث أن تنفجر الضحكات فى المكان ،

فتهدهد الأعصاب المشدودة ، وتغسل القلوب الحزينة .
وكثيراً ما نضحك على نكتة يلقيها أحد نجوم الفكاهة من فوق المسرح رغم أننا سمعناها منه مرارا ، لكننا فى الواقع نضحك متأثرين بضحكات الآخرين . وقد فطن إلى هذه النظرية بعض مخرجى التلفزيون الأجانب فأدخلوا ضحكات مرحة فى حلقاتهم الفكاهية رغم خلوها من الجمهور . لكنها أصوات ايحائية قد لا يشعر بها المتفرج لكنها تستجلب ضحكاته .
إن ولعى بالضحك وفوائده جعلنى استرسل فى التعليق عليه . وربما أكون قد تماديت فى حديث الضحك من باب التعويض ، لاحساسى بأنى سأنتقل الآن إلى حادثه مؤلمـــة عكرت على صفو مرحى فى قصر العينى .

السقطة الثانية :

كانت الأولى بسبب عمال التنظيم الذين أسقطونى من فوق الدراجة برمالهم المكدسة . والثانية بسبب تمورجية قصر العينى عندما أغرقوا الأرض بالصابون أثناء عملية التنظيف الصباحية ، وكنت راجعاً من دورة المياه متحاملاً على العكازين فى عناء شديد ، وإذا بأحدهما ينزلق فوق الصابون فيختل توازنى ، ثم ينزلق العكاز الآخر فى حركة خاطفة . وفى لحظة واحدة كنت منبطحاً على البلاط الصلد ، فارتطم به جسدى المتخشب دون أية مقاومة عضلية ، واختلطت

صرخةاستغاثتى بأنّاتى المتوجعة . وأسرعوا يحملونى إلى سريرى وأنا أشعر بأن عظامى قد تفككت من شدة الصدمة . وأسرعت الحكيمة تضمد الكدمات فى وجهى وأجزاء جسدى، بينما استدعى الطبيب الامتياز على عجل ، ليفحص عظامى ويرى إذا ما كان قد أصابها كسر أو شرخ . فراح يحرك مفاصلى فى اتجاهات معينة ويضغط على ضلوعى بطريقة فنية ، ثم أعلن فى النهاية أن عظامى سليمة . . فتنفست الصعداء .

وفى خلال إقامتى فى قصر العينى أجريت لى تحليلات كثيرة والتقطت لى صور بالأشعة ، وتدليك بأيدى ناعمة ،وجربت معى علاجات كثيرة كان من ضمنها الحمى المصطنعة بميكروب التيفويد ، أعدناها مرة أخرى بالمستشفى . لأنها كانت العلاج الوحيد الذى استجاب له جسدى بالتحسن المؤقت .

لقد سعدت حقاً بكل تلك العناية والاهتمام والرعاية التى حظيت بها نتيجة خوفهم من أستاذ القسم . وتساءلت فى مرارة ، لماذا لا يحظى كل مواطن بحقه فى مثل تلك العناية والاهتمام؟ وهل يتحتم على كل مريض أن يحتمى فى شخصية كبيرة لتنقذه من الاستهتار والاهمال؟.

تذكرت أول مرة زرت فيها قصر العينى فى العيادة الخارجية، وكان ذلك فى بداية المرض ، وفى مرحلة الالتهاب والأورام . وقد أغرانى بالمغامرة أحد جيراننا وكان طالباً فى كلية الطب ،

وأراد أن يخدمني بعرضي على أستاذه الذي يشرح للطلبة الحالات المستعصية في العيادة الخارجية. عاندت في بداية الأمر خوفاً من المعاملة السيئة المشهورة عن المستشفيات المجانية، وعلى رأسها قصر العيني الذي كان شعاره «الداخل إليه مفقود، والخارج منه مولود». لكن جاري طالب الطب طمأنني إلى سلطاته العريضة داخل جدران هذا المبنى العريق.

كانت أولى كراماته أنه لم يقطع لي تذكرة أسوة بالمواطنين العاديين. ثم استغل سلطته في إدخالي إلى الحجرة التي يكشف فيها الأستاذ مباشرة، فلم أمر على النائب أو الامتياز. وهنا انكمش الدكتور فريد.. أي جاري، الذي كنا نمنحه لقب دكتور جوازاً باعتبار ما سيكون. وتركني مع والدي على مقعد طويل وسط بعض الحالات المستعصية، وانضم إلى زملائه الطلبة في وسط الحجرة الواسعة حيث كان أستاذ جراحة العظام يشرح لطلبته مستعيناً بالنماذج الحية أمثالي ممن أوقعهم الفقر بين أيديهم الرحيمة.

هالني أن المريض يعرى من ثيابه أمام الجميع بطريقة غير إنسانية ويعامل بفظاظة وخشونة إذا تمسك بكرامته. وظللت أشهد تلك المناظر المثيرة واحداً بعد الآخر حتى لم يبق غيري على المقعد الخشبي الطويل. وكاد الضيق يخنقني إن لم أغادر ذلك المكان فوراً قبل أن يمثلوا بجسدي العليل كما رأيت في الضحايا السابقين. وهمست لوالدي برغبتي في الهروب من هذا المأزق، لكنه راح

يستعطفني في لهجته الملهوفة التي تذيب مقاومتي ، ويرجوني أن أتحمل قليلاً حتى يفحصني الأستاذ الكبير .. وبينما نتجاذب أطراف الموقف ، إذ بالدكتور فريد يقبل نحونا هاشاً متفائلاً .. ليبشرنا بشرف المثول بين يدي أستاذه الخطير الذي يتكلم من طرف أنفه .

قمت إلى منضدة الكشف ، فطلب مني أن أخلع «بنطلوني» رغم أن الكشف لا يستلزم هذا ، لكن الأستاذ في قصر العيني عصبي ويريد أن يشرح لطلبته على جثة عارية ! . وما لبثت أن امتدت إليّ عشرات الأيدي تتحسس الورم في مفاصلي الملتهبة وتضغط عليها بأصابع غير مدربة فتؤلمها . وكانت عملية الكشف عن السائل الزائد في ركبتي تتطلب حركة خاصة ، أرشدهم إليها الأستاذ وهو يقول :

— هكذا تضغط السائل بإحدى يديك إلى أعلا . . ثم تنقر على صابونة الركبة . . فتحس أنها تتحرك تحت أصابعك . .

ثم رفع قامته وتأخر خطوة وهو يقول :

— هيا . . فليجرب كل منكم أن يحرك الصابونة . .

فهجم الطلبة المتعطشون للعلم على مفاصلي المؤلمة يضغطونها ويعصرونها وأنا أكتم تأوهاتي. وأكبت ثورتي ، وأحبس دموعي التي كادت أن تنطلق من فرط إحساسي بالمهانة والعجز .

أما مفصل الكعب فكان الكشف عليه ألعن من الركبة

فكان عليهم أن يغرسوا أصبع السبابة فى جلدى المنتفخ ، فإذا تركت الأصبع حفرة غائرة فهذا معناه أن المفصل ملتهب متورم. أما إذا لم تترك أصبع الطالب منخفضاً غائراً ، فهو يمط شفتيه فى ضيق لأنه لم يوفق فى التجربة ، ثم يعيد الكرّة بمزيد من الضغط.

ثم أراد الأستاذ الكبير أن يشرح لطلبته كيف أن هذا المرض يقيد الحركة ، ويحد من حرية المفصل . ولكى يثبت قوله بالتجربة العملية ، راح يمد ساقى ويثنيها فى عنف ، وهو يهتف مهللاً كأنه اكتشف معجزة :

— انظروا . . إن الساق لا تأخذ حركتها الكاملة . .

ونسى التعس أن يقول لهم إن ألم الحركة العنيفة لا يُحتمل ، ونسى أيضاً أن يصف لى العلاج أو يُطمئن أبى الملهوف بكذبة بيضاء . وخرج يهرول فى معطفه الأبيض ، يحف به طلبته ، ومن بينهم « الدكتور » فريد . وتركونى وحيداً مع أبى ، الذى يساعدنى على ارتداء ثيابى ، وهو يتمتم فى شبه اعتذار :

— لا بأس يا بنى . . مرة وراحت . . ولن تعود . . .

وفى البيت جاء الدكتور فريد يبشرنا بخبر . . لقد اكتشف أستاذه العظيم اسم المرض . . ! لكنه لم يقترح علاجاً جديداً .

والعجيب أن نفس هذا الأستاذ الكبير زارنى بعد عدة شهور فى البيت . حين استدعاه والدى فى نوبة يأس ليحرك أملنا الراكد. فأدهشنى أنى وجدت الطبيب الكبير إنساناً مهذباً مرحاً ، يناقشنى

فى تؤدة وصبر ، وتتدفق منه المعلومات والاقتراحات فى سماحة واهتمام .. مما شجعنى على الثرثرة معه — وهو يحتسى فنجان القهوة — عن تفاصيل ودقائق العمليات المقترحة فكان يناقشنى بلهجة الند للند .

كل هذا مقابل ثلاثة جنيهات فقط .. ما أبخس الثمن . . !!

وبعد شهر واحد من زيارته لى قرأت نعيه فى الجرائد . . !!

ما أتفه الإنسان . . !!

وما أعجب الفارق بين الصورتين ، زيارتى الأولى للقصر العينى وظهرى مستند إلى تلميذ هزيل ، وزيارتى الثانية وظهرى مسنود إلى أستاذ كبير . صورتان مختلفتان تماماً ، رغم وحدة المكان والزمان والشخص موضع التجربة . . . وهو أنا ، وأنا نسخة متكررة من كل مواطن فى ذلك العهد البغيض ، لا يحصل على حقه من رعاية الدولة حتى فى المستشفيات المجانية .

امتحان التوجيهية :

كانت سقطتى على بلاط قصر العينى — كما تقدم — عاملاً فعالاً من الناحية النفسية ، فى التعجيل برقدتى الكاملة فى الفراش ، مما عجل بدوره فى تصلب مفاصلى وتيبسها . وعندما حان موعد امتحان شهادة إتمام الدراسة الثانوية « القسم الخاص » أو ما كانوا يسمونها بالتوجيهية ، كنت ما زلت تحت العلاج فى مستشفى قصر العينى ، فقدمت طلباً لوزارة المعارف مصحوباً بشهادة رسمية من

المستشفى حتى تتاح لى فرصة الامتحان فى الدور الثانى، وكان هذا النظام معمولا به فى ذلك الوقت .

ويشاء القدر ان يرسب أخى أيضاً لأول مرة فى حياته فى اللغة الانجليزية على أن يمتحن فيها مرة أخرى فى الدور الثانى .

وجاء الدور الثانى وهو عنق الزجاجة بين الثانوى والجامعة ، فيشاء القدر أيضاً أن ننحشر — أخى وأنا — فى عنق الزجاجة معاً . أما أنا فلم أستطع الانتقال أساساً إلى لجنة الامتحان ، فرضخت الأمر الواقع وكان هذا آخر عهدى بالامتحانات المدرسية.

عبرة جديرة بالتأمل :

أما أخى فكان لرسوبه قصة عجيبة ، فيها عبرة جديرة بالتأمل . لقد أدى امتحاناً لا بأس به لولا أنه أخطأ فى فهم كلمة واحدة فرسب . كلمة واحدة فقط غيرت مستقبل أخى من مدرس تربية رياضية إلى طبيب .

كان موضوع الإنشاء يطلب من التلميذ أن يتحدث عن الـ « Café » أى المقهى ، فظن أخى أن الممتحن يريده أن يتحدث عن الـ « Goffee » أى القهوة . والكلمتان مشتقتان من مصدر واحد . وهكذا أضاع أخى شطراً كبيراً من وقت الإمتحان فى الحديث عن القهوة . وعندما سلم ورقة الإجابة إلى مراقب اللجنة ، ابتسم المراقب وقال فى برود :

ــ ماهذا يا بنى ؟ . لقد كنت آمر بك طوال فترة الإمتحان فأراك تكتب عن القهوة . . لكن المطلوب هو المقهى . . !

فكاد أخى أن يطبق على عنقه فيكتم أنفاسه ، لأنه لم يرشده إلى تلك الهفوة البسيطة الكفيلة بنجاحه أو رسوبه . وهكذا أعاد أخى سنة التوجيهية بسبب كلمة . لكنه حصل فى العام التالى على مجموع كبير أتاح له دخول كلية الطب ، ولو لم يخطىء فى تلك الكلمة لنجح بمجموع ضعيف لا يسمح له بأن يكون طبيباً ، وهكذا يتحقق قول المولى سبحانه وتعالى: « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وكان درساً قيماً ، فلم أعد ألوم ذلك المراقب الذى ضيع عاماً من عمر أخى بسبب كلمة . . وآمنت أنه لم يكن من واجب المراقب أن يصححها ، ولا من حق أخى أن يعرفها بطريق غير مشروع .

وتحضرنى بهذه المناسبة مناقشة عابرة حول هذا المبدأ ، دارت بينى وبين صديق لى يشتغل بالتدريس . وينتدب للمراقبة فى لجان الامتحانات . كان يفتخر يوماً بأنه يرحم الطلبة ، ويساعدهم ، بل ويتساهل معهم إذا ما لجأوا إلى الغش . ولما عارضته اتهمنى بالقسوة لأنى أنكر عليه هذا العمل الخير الذى لا يكلفه شيئاً ، بينما يساعد الطلبة المساكين على النجاح . فقلت له :

ــ أولاً أنت تخون مهنتك وواجبك الذى تتقاضى عنه أجراً إضافياً من الدولة . ثانياً .. أنت تساعد الطلبة الكسالى فتشجعهم

على التمادى فى الإهمال حينما يستمرئون النجاح السهل غير المشروع .
ثالثاً . . أنت تجنى على المجتمع حينما تخرج إليه هؤلاء الجهلة . . فالطبيب الذى ينجح بالغش قد يقتل مرضاه بجهله . . والمهندس الذى ينجح بالغش قد يخطىء فى تصميم عمارة فتنهار على ساكنيها
ورابعاً . . إنك حينما تساعد طالباً خائباً فأنت بذلك تنصره وتميزه على الطالب المجد فيحتل مركزاً أفضل منه . وهكذا تكون قد ظلمت من يستحق الانصاف على حساب غير المستحق .

أعتقد أن صديقى المدرس اقتنع برأيي ، أو تظاهر بالإقتناع ، والفضل فى حجتى يرجع إلى الدرس الثمين ، والحكمة الإلهية التى استخلصتها من حادثة أخى مع « المقهى والقهوة » بعد أن تأملت فيها كثيراً بين منكر ومؤيد ، حتى أفحمتنى عدالة السماء بأن الطريق المستقيم هو أقصر الطرق إلى العدالة المطلقة .

* * *

عود إلى الخزعبلات

بعد أن استنفدنا طرق العلاج الحديث على أيدى الأطباء الأجانب وأساتذة الطب فى مصر ، وبعد عودتى من قصر العينى محطما تماماً ، أصابتنا نكسة نفسية نتيجة اليأس من العلم والطب . وعدنا إلى الخزعبلات والتخبط بين نصائح الهواة ، وتجارب الأطباء المحترفين ، التى كانت غير معقولة بحيث أستطيع أن أدرجها تحت باب الخزعبلات .

مرض سرى :

كانت أولى شطحات التخريف يوم اتهمنى أحد الأطباء الكبار بأن التهاب مفاصلى كان نتيجة مرض سرى .. وهو السيلان ! فذهلت ، ورحت أنفى بشدة ذلك التشخيص المتهور ، لأنه يحوى بين طياته تهمة سخيفة قذرة . لكن الطبيب الواثق من علمه إتجه إلى أبى وصاح مهللاً وهو يصافحه :

ـــ مبروك .. لقد عرفت سبب المرض .. واعتبر ابنك فى دور الشفاء

احسست بحرج كبير أمام والدى ، ورحت أنفى تلك التهمة بحماس وانفعال . وكيف كنت أصاب بذلك المرض الدنس ، وأنا لم أبارح البيت إلا بصحبة والدى قاصدين أحد الاطباء . وإذا بوالدى ـــ رحمه الله ـــ وقد غمره الفرح بتلك البشرى المؤكدة ، إذ به ينسى أسباب المـــــرض المزعومة ، ويربت على كتفى ليهدىء من ثائرتى :

ـــ لا تضايق نفسك .. هذه مسألة بسيطة .. ليت تشخيص الطبيب يكون صحيحاً .. حتى نعالج الداء وتعود إلى مدرستك ...

ظن الطبيب التعس أنى محرج أمام أبى ، وأنى أدفع التهمة عن نفسى متبجحاً . فأراد أن يخرجنى من المأزق ، وقال هامساً بصوت يسمعه أبى بسهولة :

ـــ ليس ضرورياً أن تكون متصلا بامرأة حتى تلتقط منها عدوى السيلان .. فقد تكون هذه العدوى قد انتقلت إليك من أحد زملائك أيام المدرسة !! .

كدت أصفع ذلك المجنون لولا هيبته ووقاره ، وقائمة الألقاب المرصوصة تحت إسمه على اللافتة النحاسية المعلقة على عيادته . ولم تهدأ ثائرتى إلا عندما ظهرت نتيجة التحليل بعد يومين لتعلن براءتى ، وتصم الطبيب العبقرى بالتسرع والغباء ، واتضح أن سبب ظنه هذا هو التهاب بسيط فى البروستاتا قد يصيب أى إنسان عفيف .

• • •

وفى مرة أخرى اتهمنى أحد الأطباء بأنى مريض بالزهرى ! وفى هذه المرة لم يوجه الطبيب تهمته إلى شخصياً ، بل أرجعها إلى أبى أو جدى ، أو أى جد فى شجرة العائلة . فالمعروف أن الزهرى مرض خبيث من خصائصه أنه يورث ويفتك بالأجيال المتعاقبة . وإن كانت له مظاهر معروفة واضحة إلا أن تدميره لا يقف عند حد ، وقد يصيب أى جزء من جسم الإنسان .

وهكذا خطر ببال عبقرى آخر أن يعالجنى من الزهرى، دون أن يجشم نفسه مؤونة التحقيق فى أصله ، ومن أى الجدود انحدر . وكان ذلك المرض البشع يعالج حينذاك بحقن إسمها « ٦٠٦ » ، فتحاملت على نفسى وخضعت لذلك العلاج كاملا وأنا أعتذر لأسلاف عن سوء ظنى فيهم . وبالطبع لم يسفر العلاج عن أى تقدم لأنه لم يكن على أساس سليم .

لدغ النحل :

من العلاجات المشهورة للروماتيزم لدغ النحل . وبعض القرويين يعالجون به المفاصل الملتهبة ، بأن يغطوا جسم المريض ولا يكشفوا منه غير المفصل المؤلم . ويسلطون عليه خلايا النحل فتلدغه فى مفصله، فتتحسن بعض حالات الروماتيزم من هذا العلاج.

وقد فطن علماء الطب فى روسيا إلى فائدة سم النحل فى علاج الروماتيزم ومجموعة أخرى من الأمراض ، واستخرجوا من هذا

السم نوعاً من الحقن إسمها «ميلليسين» حاولت أن أحصل عليها فلم أستطع ، لكنى حصلت على نوع آخر من هذه الحقن التى تحوى سم النحل ، وهى معروفة فى مصر ، ويجب أن تحقن بواسطة طبيب بإبرة رفيعة جداً وببطء شديد ، والعجيب أنها تحقن فى الجلد نفسه وليست تحت الجلد ولا فى العضل . وتسبب لذعاً شديداً أثناء حقنها ، وتنشأ عنها بقعة داكنة مستديرة قطرها حوالى ثلاثة سنتيمترات ، وكأنها لدغة نحلة فعلا . والمهم أن هذا السم يحقن فى جلد المفصل ذاته .

وبعد عدة لذعات لا أذكر عددها بالضبط ، أعلن الطبيب أسفه لفشل التجربة التى اقترحها . ولم أندم على تلك التجربة لأنها على الأقل تمت إلى العلم بصلة .

الحشيش والأفيون .

إن الغريق الذى يتشبث بعود من القش — وهو يعلم أنه لن يفيده — معذور ، لأنه يجب أن يتحرك .. يعمل أى شىء ولو كان خطأ .. لمجرد أنه لا يقبل الهزيمة والاستسلام .. لأن فيها هلاكه المؤكد .

كذلك كان تفكير أبى ، الذى لم أكن أقره عليه أحياناً ، ثم أرضخ له فى مرات أخرى .. لمجرد إرضائه هو . وبهذا المنطق تعاطيت الحشيش والأفيون من يد والدى كتجربة للعلاج !!

لم يكن أبى يتعاطى المخدرات إطلاقاً ، ولم يكن يدخن ، ولم يحرز يوماً أية مادة مخدرة يعاقب عليها القانون . لكنه وقع تحت الحاح شديد من بعض أصدقائه الذين راحوا يؤكدون له المفعول السحرى لتلك المواد المدمرة . وأوهموه بجهلهم أنى بمجرد تناولى هذه المادة سوف أنسى مرضى وأقفز من سريرى صحيحاً معافى .

لم يجرؤ والدى على حمل المخدرات فى جيبه ، فاشترط على صديقه أن يحضر بنفسه ومعه « الدواء » ليشرح لى كيفية تعاطيه . وقدم لى الخبير الهاوى قطعة صغيرة فى حجم حبة الفول الكبيرة ، لونها بنى مصفر ، وصارحنى بأنها « حشيش » . وكنت أراه لأول مرة . . ولآخر مرة أيضاً . ثم خيرنى بين تدخينها فى سيجارة أو تناولها مذابة فى فنجان من الشاى . ففضلت الشاى لأنى لا أدخن ، وحتى لو دخنت سيجارة فلا أستطيع — حتى الآن — أن أسحب الدخان إلى رئتى كما يفعل المدخنون .

لم يكن طعم الشاى متغيراً كثيراً ، كذلك لم أحس بأى تأثير للمخدر على الإطلاق ، رغم أن الخبير الحشاش أكد أنها كافية لتخدير رجل مدمن .

وتذكر والدى يوم أجريت لى عملية استئصال اللوزتين أنه ظل قلقاً خلف باب حجرة العمليات لفترة طويلة ، لأنه كان يسمع غطيطاً « شخير » عالياً . وعلم من طبيب التخدير أنه أعطانى ثلاثة أمثال الكمية التى تخدر رجلا بالغاً حتى رحت فى الغيبوبة .

ولم أعرف يوماً تعليلا لتلك الظاهرة ، التى لا تظهر إلا على مدمنى الخمر والمخدرات . وأوعزناها إلى الكميات الضخمة من أقراص المسكنات التى كنت أتعاطاها يومياً لتسكين الألم . ولعله كان تفسيراً صحيحاً .

أما الأفيون . . ذلك السم الأسود الشديد المرارة ، فقد جربته مرة واحدة أيضاً تحت إشراف ذلك الخبير بالمخدرات ، ولم أحس له أى تأثير غير إمساك شديد .

والواقع أنى لم أندم كثيراً على تلك التجربة ، التى أتاحت لى فرصة التعرف على هذه السموم التى تفتك ببعض السذج من أبناء وطنى . فإن شغفى بمعرفة كل شيء كان سيؤرقنى فيما بعد إذا لم تكن قد أتيحت لى تلك الفرصة العفوية ، وأحمد الله أن التجربة لم يفلت عيارها فتؤدى بى إلى العواقب الوخيمة التى أعرفها جيداً من تجارب الآخرين .

مصاص الدماء :

من العلاجات الشعبية القديمة ، التى كان يمارسها حلاق الصحة ، نوع من الديدان الصغيرة ، داكنة اللون ، تعيش عند الحلاقين فى كمية من الماء داخل برطمان زجاجى . وهذه الديدان شرهة لامتصاص الدماء . يساعدها فى ذلك فمها المستدير « الشفاط » . والغرض منها هو سحب الدم الفاسد من الأعضاء المريضة ، وهذا

تشخيص ساذج بالطبع لا يقنع إلا الحمقى أو الغرقى .. وكنا من الفئة الثانية !

جاء الحلاق ، وشمر عن ساعديه ، وراح يتحسس مفصل الكعب فى وقار العلماء . ثم أخرج موسى الحلاقة الكبير ، وبسمل وكبر كالجزار قبل أن يهوى على عنق الذبيحة . ثم لمس الجلد بسلاحه المرهف ثلاث لمسات سريعة ، فبرز منه الدم فى ثلاثة خطوط قانية . وأسرع بالديدان الماصة ، واحدة بعد الأخرى ، فوضع فمها على الجرح النازف ، ليغريها بالغذاء الشهى . وبعد تمنع أقبلت الدودة على الجرح فالتصقت به التصاقاً شديداً بحيث يتعذر نزعها. وبدأ جسمها فى الانتفاخ نتيجة ما امتصته من دماء حتى تضاعف حجمها . وعندما امتلأت تماماً سقطت وحدها فتلقاها الحلاق على وعاء به تراب ، فلم تلبث الدودة أن تقيأت ما بجوفها من دماء . عندئذ أعادها إلى برطمان الماء لتعيش فيه حتى تستدعى لوجبة أخرى يتبرع بها مريض ساذج .

والواقع أن تلك العملية لم تكن مؤلمة قط ، ماعدا اللحظات التى جرح فيها السلاح سطح الجلد .

عملية تهريب :

فى تلك الفترة العصيبة ، خرجت علينا مجلة « المختار » بمقال طويل بعنوان « بشرى لمرضى المفاصل » ، وكانت البشرى عبارة

عن عقار جديد ظهر فى أمريكا إسمه« ارترون » . وراح المقال يسرد التجارب التى تمت على هذا العقار الجديد ، وأتت بنتائج رائعة . لكن المجلة كانت أمينة فى معلوماتها ، فقالت جملة مازلت أحفظها بنفس ألفاظها « . . وما كان لمفصل دمرته العلة أن تعود إليه الحياة » . أى أن المفاصل التى تآكلت والتصقت لا يرجى لها شفاء بذلك الدواء . ومع ذلك أصر والدى على احضار ذلك العقار الجديد من أمريكا بأى ثمن ، حتى نتمكن من إنقاذ ما يمكن إنقاذه ونوقف سير الأخطبوط النشط الذى لا يهمد .

لم يكن «الارترون » موجوداً فى الأسواق المصرية . كذلك كان من المستحيل استيراده بالجهود الفردية ، لأن قوانين الدولة تمنع دخول أى دواء ، إلا بعد تحليله فى معامل وزارة الصحة واعتماده رسمياً . وهذه عملية معقدة لا يقدر عليها إلا شركات الأدوية الكبرى.

وتصادف أن كان أحد أصدقاء والدى مسافراً فى عملية تجارية إلى أمريكا ، ولما علم بموضوع الدواء تطوع مشكوراً باحضاره معه . لكن المشكلة كانت فى مروره من الجرك ، فالأوامر صريحة بمنع أى دواء جديد دون ترخيص باستيراده . ولم يكن هناك أى حل سوى المجازفة فى عملية تهريب بريئة لن تضر أحداً . لكنها ستحرم ميزانية الدولة من الرسوم الجركية على قيمة الدواء ، وكانت تربو على ستين جنيها بالعملة الصعبة . ولم يكن هناك مجال

للشهامة والأمانة فى إبراز الدواء وتسديد الرسوم الكرجمية ، وإلا فالنتيجة الحتمية هى المصادرة دون مناقشة .

وتمت عملية التهريب بنجاح، رغم أن الدواء كان يشغل صندوقاً متوسط الحجم به اثنا عشر برطمانا صغيراً . وكان عقابنا على ذلك التهريب غير المشروع أن ساعد هذا العقار على ترسيب الحصيات فى الكليتين فضلا عن عدم جدواه فى علاج مفاصلى .

حصيات فى الكلى :

من الانصاف ألا ألقى ذنب حصيات الكلى على « الارترون » وحده . فالمعروف طبياً أن أى إنسان يرقد سنوات طويلة ، تتكون الحصيات فى كليتيه ، فإن عدم حركة الجسم يسبب ركود حركة البول فى الكلى فتترسب الأملاح فى تجاويفها ، ومع الوقت تتكون حصيات فى كهوف حوض الكلى . ثم تنفصل من مكمنها فى أحجام مختلفة ، ويحاول الجسم طردها إلى الخارج . كان بعضها صغيراً أملس يمر فى هدوء حيث يظهر فى المبولة على شكل بلورات كروية كذرات الرمال . وبعضها كبير الحجم خشن الملمس ، يمزق الأغشية حيثما سار ، ويقطع طريقه الدموى فى بطء شديد مصحوباً بآلام مبرحة لاتهدأ ولا تستكين إلا بخروج الحصاة العنيدة . وقد تستمر المعركة بضع ساعات ، أو بضعة أيـــام . لا سلطان عليها إلا رحمة الله ، ولا طبيب يتعجل سيرها إلا بعلاجات بسيطة المفعول.

بعضها مخدر قوى للألم ، وبعضها يرخى العضلات اللاإرادية للحالب ، فيمنع تشنجاته التى تعرقل مرور الحصاة ، التى تدفعها قطرات البول فى أنبوب الحالب فى بطء مثير .

وبمرور الوقت ، وتكرار نوبات المغص الكلوى ، أصبحت خبيراً بتحركات الحصاة وخط سيرها ، بحيث يمكننى أن أحدد مكانها بالضبط ، منذ أن تهتز فى تجويفها بحوض الكلى ، إلى أن تتسكع على فتحة الحالب ، ثم تهبط ، فيه متلكئة ، حتى تقذف إلى المثانة فى حركة فجائية مؤلمة ، كوخزة الدبوس ، يزول الألم بعدها فوراً ، ويطلق سراح المريض المنهك القوى ، بكفالة ما لم يكن محجوزاً على ذمة حصاة أخرى . والكفالة هنا هى وجود الحصاة الرعناء فى المثانة ، فى شبه هدنة ، ، قد تخرج مع البول فى حركة سريعة ممزقة فى ألم حاد ، بعدها يشمل الهدوء أرض المعركة وتنتهى الأزمة بسلام . وقد تستمرىء الحصاة الصغيرة حياة المثانة ، ويطيب لها المقام فيها ، فتنمو وتترعرع حتى تصل إلى حجم بيضة الدجاجة ، وعندئذ لا يمكن خروجها إلا بمشرط الجراح . كما حدث أخيراً لاثنين من زملائى الصابرين فى الأسرة البيضاء . لكن — والحمد لله كثيراً — حصياتى تخرج أولاً بأول ، لتنضم إلى زميلاتها فى قارورة صغيرة احتفظ بها للذكرى .

نعم الذكرى . . ذكرى الألم الرهيب العنيد الذى لا يدع لى لحظة واحدة التقط فيها أنفاسى . إنها تذكرنى بالأوقات العصيبة

التى أتضرع فيها إلى السماء كى تسكت آلامى لدقائق معدودة أرخى فيها أعصابى المشدودة ، لكن للسماء أحكاماً لا نفهمها ولا تصل إليها عقولنا البشرية القاصرة .

إن تلك القارورة تذكرنى بالخنجر الذى يمزق أحشائى ، وأنا مقيد اليدين والساقين ، لا أستطيع أن أنثنى على نفسى أو أذرع الحجرة ، أو أضغط مكان الألم ، أو أركل الهواء بقدمى . إنها كلها حركات طائشة قد لا تجدى ، لكنها قطعاً تنفس عن المغوص ، وتشعره بأنه يقاوم ، أو تلهيه عن ألمه لحظات ، أو تبعث فيه الأمل بأن فى إمكانه زحزحة الحصاة المتلكئة .

إن حركة المغوص كآهة المتوجع تخفف الضغط عن أعصابه ، حتى هذه الآنات الرتيبة لا أستطيع أن أرخى لها العنان ، فإن فيها ضعفاً وتوسلاً ذليلاً ، قد تستجيب له عبراتى السجينة ، فلا تستطيع أن تصل إليها يدى بمنديل . . ! وهذا ما أتفاداه دائماً .

إن الذكريات الأليمة تفيدنى فى الأزمات وفى لحظات الاكتئاب ، إذ أحدث نفسى وأنا أحاورها . . . لماذا اكتئب ؟ . . ولماذا أحزن ؟ . . ألا احمد الله على أنى لا أشعر بألم حاد فى هذه اللحظة ؟ أليس من الممكن أن أكون الآن مغوصاً أتضرع إلى الله أن يهبنى لحظات خالية من الألم ؟ . . ها أنذا لا أعانى من الألم هذه الساعة ومنذ أيام . أليست هذه نعمة كنت أتمناها وسط آلامى الرهيبة ؟

إننى الآن مستمتع بساعات خالية من الألم بل أستطيع أن أستغلها فى شيء مفيد يضاعف سعادتى . . . .

حقاً إن الإنسان لايقدر كنوز المتعة التى بين يديه إلا إذا حرم منها ، فيتمناها ساعة الحرمان ، وينساها وهو متخم بها . والذكريات الأليمة تقوم بدور إيجابى فى حياتى ، فهى تذكرنى بساعات الحرمان ، وتجسم لى كنوز المتعة التى أحظى بها .

فشكراً لقارورة الحصى . . . إحدى ذكريات الشقاء .

* * *

أخى القارى :

بعد أن خضت معى هذه المرحلة البائسة من حياتى ، والتى تغلب عليها الكآبة والمأساة ، لعلك تتساءل : وأين هو هذا الانسان السعيد الذى تحدثت عنه فى مقدمة هذا الكتاب ؟

الواقع أننا لم نقطع من رحلة حياتى حتى الآن سوى ثمانية عشر عاما ، حيث وصلت المأساة الى ذروتها ، وهبط اليأس بمعنوياتى الى الحضيض . وأصبحت أواجه مصيرى المظلم مجـردا من أى سلاح .

ولما كانت الحياة مفروضة على جسدى المقيد ، فكان لزاما على أن أفكر ، وأعمل ، وأكافح ، لأشق طريقى فى صراع الحياة . بل كان على أن أضاعف من جهودى المستميتة لاعوض عقبات عجزى وقيودى .

وبدأت الصراع من نقطة الصفر ...

وفى غمرة العمـل نسيت آلامى ، وبالكفاح عوضت تخلفى ، وبالنجاح كللت السماء جهودى المتواضعة . ومنحتنى من السعادة فوق ما كان يصبو اليه طموحى المتفائل ..

وهذا ما سوف أحدثك عنه ـ يا أخى القارىء ـ فى الجزأين التاليين من هذا الكتاب ..

الجزء الثانى .. بعنوان « الكفاح »

الجزء الثالث .. بعنوان « الحصاد »

فهل ما زالت بك رغبة فى أن تصحبنى بقية الرحلة .. ؟

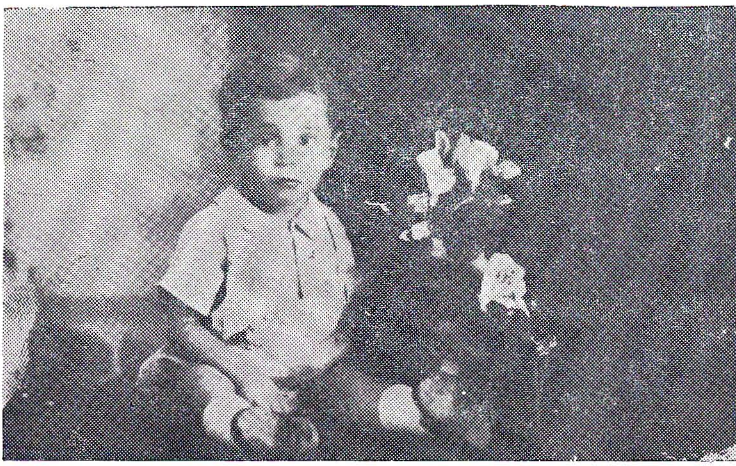
من أرشيف الصور



والدى



والدتى
رسمتها سنة ١٩٤٣



في عيد ميلادى الاول
فبراير ١٩٢٨



تلاميذ السنة الاولى بمدرسة
العقادين الابتدائية سنة ١٩٣٦

ناظر المدرسة فى الوسط ، والى يمينه ((شاهين افندى)) ، ثم ((حليم افندى))
مدرس اللغـــة العربية ، وعن يسار الناظر ((وهبة افندى)) مدرس اللغة الانجليزية ،
و ((محمد على افندى)) مدرس الحساب . وانا تحت الطربوش الموضح بعلامة (x)



تقليد البستانى

سنة ١٩٣٧



رياضة على الشاطىء

سنة ١٩٣٨



فى ثياب الكشافة

سنة ١٩٣٩



مع الكمان

سنة ١٩٤٠



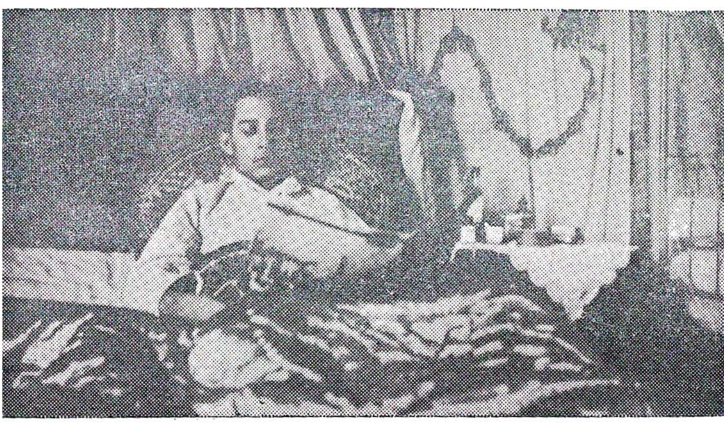
قبل القيود مباشرة
سنة ١٩٤٠



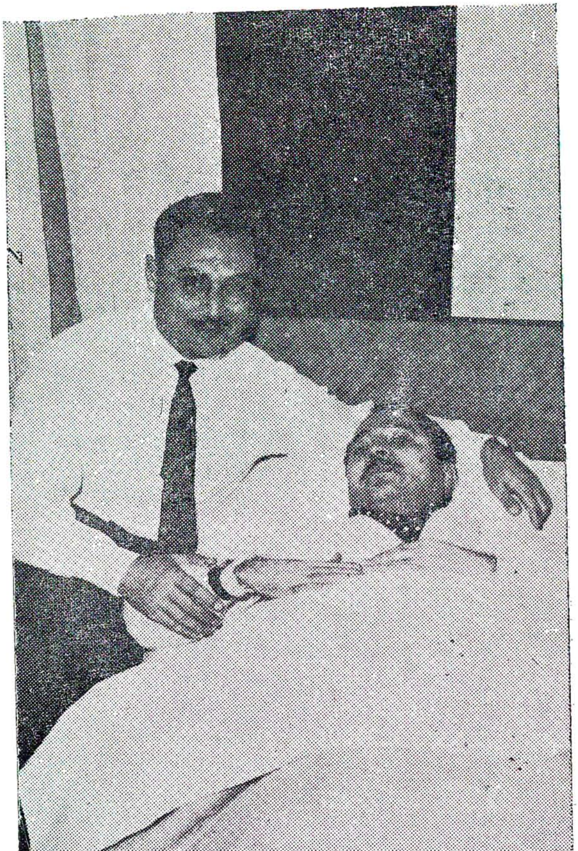
في الشهادة الابتدائية
١٩٣٩



في الثالثة الثانوية
١٩٤٢



في بداية المرض
١٩٤٢



مع شقيقى وصديقى .. مكرم
سنة ١٩٦٤

الفهرس



الجزء
الأول
المأساة
الناشر
دار النهضة
٣٢ عبد الخالق
صبحي الجيار
ربع قرن في القيود
الجزء الأول ـ المأساة
دار النهضة العربية

٧